

الْحُبُّ وَالْإِكْرَامِيَّةُ

فِي كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ

تَأْلِيفُ

خُضْرُ مُوسَى مُحَمَّدَ حَمُودَ

عَالَمُ الْكُتُبِ



الحُبُّ وَالْكَرَامَةُ
فِي كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ



عالم الكتب

للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

ص.ب: ٨٧٢٣ - ١١، بريقياً: نابعلكي
تلفون: ٣١٥١٤٢ - ٨١٩٦٨٤ (٠١)
خليوي: ٣/٣٨١٨٣١
فاكس ٣١٥١٤٢ (٩٦١١)

WORLD OF BOOKS

FOR PRINTING, PUBLISHING & DISTRIBUTION
BEIRUT - LEBANON

P.O.BOX: 11-8723, CABLE: NABAALBAKI

TEL.: 01-819684 / 315142

CELL. 03-381831, FAX: (9611) 315142

E. mail: alamko @ dm.net.lb

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

يمنع طبع هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع، كما يمنع الاقتباس منه أو التمثيل أو الترجمة لأية لغة أخرى، أو نقله على أي نحو، وبأية طريقة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة خطية مسبقة من الناشر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أخي المسلم!

اقرأ

اللهم

ارزقني حبك،

وحب

من أحبك،

وحب

عمل يُقَرِّبني إلى حبك،

اللهم ما رزقتني ممّا أحبُّ

فاجعله قوّة لي فيما تُحبُّ

اللهم ما ذوّيت عني ممّا أحبُّ

فاجعله فراغاً لي فيما تُحبُّ

اللهم آمين

إعمل

إحفظ

إهداء

إلى روح الفقيد الغالي الأستاذ نزيه بعلبكي
تغمده الله بواسع رحمته وأسكنه فسيح
جناته.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيد المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد.

قال تعالى: ﴿مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ نُنَزِّلُ إِلَيْكَ بِهِمْ يَخْفَوْنَ﴾، صدق الله العظيم.

في أيامنا هذه وقد انحدر الناس فيه إلى الطغيان، وركبوا مركب الشيطان، وابتعدوا عما جاء به الرحمن، وحادوا عن سنة نبينا العدنان، وانغمسوا في مناهات الشرور والآثام، فلم يسلم فرد من الأنام، وحلّلوا المحرمات دون وازع من دين أو خلق أو ضمير، وحرّموا ما أحلّ الله تعالى، ولم يأخذوا في حسابهم أنهم إلى ربهم راجعون. قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ ثمّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿١٦﴾، واعتبروا أن حياتهم محصورة في دنياهم، فعاشوها لا يشعرون فيها بطمأنينة، ولا يطمعون بنعيم الآخرة الباقي الخالد.

وإذا أراد المرء أن ينشد رحمة السماء لتدفع عنه البلاء والشقاء، ويرزق النصر من عند الله على الأعداء، فلا بد أن يفرّ من الذنوب والمعاصي ويسلك سبيل الواحد الهادي، لينال رضاه ومحبته، والعمل بما جاء به رسوله الكريم (ﷺ)، فعليه اتّقاء الأعمال التي تغضب وجه الله تعالى، وإتيان الأفعال التي يرضى عنها. فعليه أن يتواجد في المكان الذي أمره الله به، وألا يتواجد في المكان الذي نهاه الله عنه.

لذا أحببت أن ألقى الضوء على معاني الحب والكراهية في القرآن الكريم، من خلال موضوعات الحب والكراهية التي تناولتها بالدراسة في أربعة أبواب، كلّ باب اشتمل على تسعة فصول، بدأتها بحب الله تعالى ورسوله الكريم، وأنهيتها بكراهية الطيرة وأن الله عز وجل هو المؤثر في كل عمل نقوم به، وأن أمره بين الكاف والنون إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون. ولا بد لنا أن نتمسك بما جاء به رسول الله (ﷺ)، وما تركه بين أيدينا، ألا وهو كتاب الله العزيز، نتلوه ونتدبر ما جاء فيه، وأن يكون لساننا رطباً بذكر الله، وقلوبنا عامرة مطمئن بذكره، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ وأرجو من الله العليّ القدير أن يتقبل منا هذا العمل ويجعله خالصاً لوجهه الكريم.

المؤلف

خضر موسى محمد حمود

الباب الأول

الحب في القرآن الكريم

تمهيد: معنى الحب لغوياً.

الفصل الأول: حب الله تعالى وحب رسوله (ﷺ).

الفصل الثاني: (الإيثار) حب الآخرين.

الفصل الثالث: حب المال.

الفصل الرابع: الإحسان.

الفصل الخامس: حب العلم والأدب.

الفصل السادس: فضل بر الوالدين.

الفصل السابع: فضل الذكر وأهميته.

الفصل الثامن: فضل التوبة.

الفصل التاسع: حب الجهاد في سبيل الله.

الباب الأول

الحب في القرآن الكريم

تمهيد

معنى الحب لغوياً

الحُبُّ: نقيض البغض، والحَبُّ: الودادُ والمحبة، وكذلك الحُبُّ بالكسر. وحكى عن خالد بن نضلة: ما هذا الحُبُّ الطارق؟ وأحبه فهو محبٌ، وهو محبوب)، على غير قياس هذا الأكثر، وقد قيل محبٌ، على القياس - قال الأزهري: وقد جاء المحبُّ شاذّاً في الشعر؛ قال عترة:

وَلَقَدْ نَزَلْتُ، فَلَا تَظُنِّي غَيْرَهُ مِثِّي بِمَنْزِلَةِ الْمُحَبِّ الْمُكْرَمِ
وحكى الأزهري عن الفراء قال: وحبيته، لغة، قال غيره: وكره بعضهم حبيته، وأنكر أن يكون هذا البيت لفصيح، وهو قول عيلان بن شجاع النهشاي:

أَحِبُّ أَبَا مَرْوَانَ مِنْ أَجْلِ تَمَرِهِ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْجَارَ بِالْجَارِ أَزْفَقُ
فَأَقْسِمُ، لَوْلَا تَمَرُهُ مَا حَبَبْتُهُ وَلَا كَانَ أَدْنَى مِنْ عُبَيْدٍ وَمُشْرِقِ
وحبه يحبه بالكسر فهو محبوب. قال الجوهري: وهذا شاذ لأنه لا يأتي في المضاعف يَفْعُلُ بالكسر إلا ويشركه يَفْعُلُ بالضم، إذا كان متعدياً، ما خلا هذا الحرف. وحكى سيبويه: حبيته وأحبيته بمعنى، أحبه الله فهو محبوبٌ، مثل محزون، ومجنون، ومزكوم. وذلك أنهم يقولون: قد فُعل بغير ألف في هذا كله، ثم يُبنى مفعول على فُعل، وإلا فلا وجه له، فإذا قالوا: أفعله الله، فهو كله بالألف؛ وحكى اللحياني عن بني سليم: ما أحببت ذلك، أي ما أحببتُ. كما قالوا: ظننتُ ذلك، أي ظننتُ، ومثله ما حكاه سيبويه من قولهم ظننتُ. وقال: في ساعةٍ يُحبُّها الطَّعامُ.

أي يحب فيها. واستحبته كأحبته. والاستحباب كالإستحسان. وإنه لَمِنْ حُبِّهِ نَفْسِي أي

مَمَّنْ أَحَبُّ. وَحُبُّكَ: مَا أُخْبِتَ أَنْ تُعْطَاهُ، أَوْ يَكُونُ لَكَ. وَأَخْتَرْتُ حُبَّتَكَ وَمَحَبَّتَكَ مِنَ النَّاسِ
وغيرهم أي الذي تُحِبُّهُ. والمحبة أيضاً: اسمٌ للحُبِّ.

والجِبَابُ بالكسر: المحابة والمواودة والحبّ.. قال أبو ذؤيب (الهدلي):

فَقُلْتُ لِقَلْبِي: يَا لَكَ الْخَيْرُ، إِنَّمَا يُدْلِيكَ لِلْخَيْرِ الْجَدِيدِ، حِبَابُهَا
وقال صخر الغي:

إِنِّي بِدَهْمَاءَ عَزَّ مَا أَجْدُ عَاوَدَنِي، مِنْ حِبَابِهَا، الزُّوْدُ
وتحبُّ إليه: تودّد. وامرأةٌ محبّةٌ لزوجها ومحبٌ أيضاً، عن الفراء.

قال الأزهري: يقال: حب الشيء فهو محبوبٌ، ثم لا يقولون: حبيته، كما قالوا: جُنٌّ
فهو مجنون، ثم يقولون: أجته الله.

والحبُّ: الحبيبُ: مثل خِذْنِ، وَخَدِينِ. قال ابن بري (رحمه الله): الحبيب يجيء تارة
بمعنى المحبِّ، كقول المخنبل:

أَتَهَجَّرُ لَيْلَى، بِالْفِرَاقِ، حَبِيبَهَا وَمَا كَانَ نَفْسًا، بِالْفِرَاقِ، تَطِيبُ
أي محبّها.

ويجيء تارة بمعنى المحبوب كقول ابن الدميني:

وَإِنَّ الْكَثِيبَ الْفَرْدَ، مِنْ جَانِبِ الْحَمَى إِلَيَّ، وَإِنْ لَمْ آتِهِ، لَحَبِيبُ
أي المحبوب.

والحبُّ: المحبوبُ، وكان زيد بن حارثة (رضي الله عنه). يُدْعَى: حَبُّ رسول الله
(ﷺ): والأنثى بالهاء. وفي الحديث: ومن يجترى على ذلك إلّا أسامة، حَبُّ رسول الله
(ﷺ): أي محبوبه. وكان رسول الله (ﷺ) يحبه كثيراً. وفي حديث فاطمة (رضوان الله
عليها)، قال لها رسول الله (ﷺ)، عن عائشة: إِنَّهَا حَبَّةٌ أَيْبُكَ. الحبُّ بالكسر: المحبوب،
والأنثى: حَبَّةٌ، وجمعُ الحبِّ: أَحْبَابٌ، وَحَبَانٌ، وَحُبُوبٌ، وَحَبِيبَةٌ، وَحُبٌّ، هذه الأخيرة إمّا
أن تكون من الجمع الغزير، وإمّا أن تكون اسماً للجمع.

والحبيبُ والحُبَابُ بالضم: الحبُّ، والأنثى بالهاء. قال الأزهري: يقال للحبيب:
حُبَابٌ، مخفف.

وقال الليث: الحَبَّةُ والحبُّ بمنزلة الحبيبة والحبيب. وحكى ابن الأعرابي: أنا حبيبكم
أي مُحِبُّكُمْ: وَأَشَدُّ:

وَرُبُّ حَبِيبٍ نَاصِحٍ غَيْرِ مَحْبُوبٍ

وَالْحُبَابُ بِالضَّمِّ: الْحُبُّ. قَالَ أَبُو عَطَاءٍ السُّنْدِيُّ، مَوْلَى بَنِي أَسَدٍ:

قَوَالُّهُ مَا أَذْرِي، وَإِنِّي لَصَادِقٌ أَدَاءُ عِرَانِي مِنْ حَبَابِكَ أَمْ سِخَرُ
قَالَ ابْنُ بَرِيٍّ: الْمَشْهُورُ عِنْدَ الزَّوَاةِ: مِنْ حَبَابِكَ، بِكَسْرِ الْحَاءِ، وَفِيهِ وَجْهَانِ. أَحَدُهُمَا
أَنْ يَكُونَ مَصْدَرُ حَابِيَّتِهِ مُحَابَّةً وَحِبَاباً، وَالثَّانِي أَنْ يَكُونَ جَمْعُ حُبٍّ مِثْلُ عُشٍّ وَعُشَايَشٍ. وَرَوَاهُ
بَعْضُهُمْ: مِنْ جَنَابِكَ بِالْجِيمِ وَالنُّونِ، أَيِ نَاحِيَّتِكَ.

وَفِي حَدِيثٍ أَحَدٌ: هُوَ جَبَلٌ يُحْبِنَا وَنُحْبُهُ. قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: هَذَا مَحْمُولٌ عَلَى الْمَجَازِ،
أَرَادَ أَنَّهُ جَبَلٌ يُحْبِنَا أَهْلَهُ، وَنُحِبُّ أَهْلَهُ: وَهُمْ الْأَنْصَارُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَابِ الْمَجَازِ
الصَّرِيحِ، أَيِ إِنَّا نَحُبُّ الْجَبَلَ بَعِينَهُ؛ لِأَنَّهُ فِي أَرْضٍ مِنْ نُحُبٍّ.

وَفِي حَدِيثٍ أَنَسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): انْظُرُوا حُبَّ الْأَنْصَارِ التَّمَرِ، يُرَوَّى بِضَمِّ الْحَاءِ،
وَهُوَ الْأَسْمُ مِنَ الْمُحَبَّةِ، وَقَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ بِإِسْقَاطِ انْظُرُوا، وَقَالَ: حُبَّ الْأَنْصَارِ
التَّمَرِ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِالضَّمِّ كَالْأَوَّلِ، وَحَذَفَ الْفِعْلَ وَهُوَ مُرَادٌ لِلْعَلَمِ بِهِ، أَوْ عَلَى جَعْلِ
التَّمَرِ نَفْسَ الْحُبِّ مِبَالِغَةً فِي حُبِّهِمْ إِيَّاهُ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْحَاءُ مَكْسُورَةً، بِمَعْنَى الْمَحْبُوبِ،
أَيِ مَحْبُوبِهِمُ التَّمَرِ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ التَّمَرُ عَلَى الْأَوَّلِ، وَهُوَ الْمَشْهُورُ فِي الرِّوَايَةِ مَنْصُوباً
بِالْحُبِّ، وَعَلَى الثَّانِي وَالثَّلَاثِ مَرْفُوعاً عَلَى خَبَرِ الْمَبْتَدَأِ.

وَقَالُوا: حَبٌّ بِفُلَانٍ: أَيِ مَا أَحَبَّهُ إِلَيَّ؛ قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: مَعْنَاهُ حُبٌّ بِفُلَانٍ، بِضَمِّ الْبَاءِ،
ثُمَّ سَكَنَ وَأَدْغَمَ فِي الثَّانِيَةِ.

وَحَبِّتُ إِلَيْهِ: صِرْتُ حَبِيباً، وَلَا نَظِيرَ لَهُ إِلَّا شَرُزْتُ، مِنَ الشَّرِّ، وَمَا حَكَاهُ سِيبَوِيهِ عَنْ
يُونُسَ قَوْلِهِمْ: لَبِيتُ مِنَ اللَّبِّ. وَتَقُولُ: مَا كُنْتُ حَبِيباً، وَلَقَدْ حَبِيتُ بِالْكَسْرِ، أَيِ صِرْتُ
حَبِيباً.

وَحَبَّدَا الْأَمْرَ: أَيِ هُوَ حَبِيبٌ. قَالَ سِيبَوِيهِ: جَعَلُوا حُبًّا مَعَ ذَا، بِمَنْزِلَةِ الشَّيْءِ الْوَاحِدِ،
وَهُوَ عِنْدَهُ اسْمٌ، وَمَا بَعْدَهُ مَرْفُوعٌ بِهِ، وَلَزِمَ ذَا حُبًّا، وَجَرَى كَالْمِثْلِ؛ وَالِدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنََّّهُمْ
يَقُولُونَ فِي الْمُؤَنَّثِ: حَبَّدَا، وَلَا يَقُولُونَ: حَبَّذَهُ. وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: حَبَّدَا زَيْدًا، فَحُبٌّ فِعْلٌ مَاضٍ
لَا يَتَصَرَّفُ، وَأَصْلُهُ حُبَّبٌ، عَلَى مَا قَالَهُ الْفَرَّاءُ، وَذَا فَاعِلُهُ، وَهُوَ اسْمُ مَبْهُمٍ مِنْ أَسْمَاءِ
الْإِشَارَةِ، جُعِلَا شَيْئاً وَاحِداً، فَصَارَا بِمَنْزِلَةِ اسْمٍ يُرْفَعُ مَا بَعْدَهُ، وَمَوْضِعُهُ رَفْعٌ بِالْإِبْتِدَاءِ. وَزَيْدٌ
خَبَرُهُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَدَلاً مِنْ ذَا؛ لِأَنَّكَ تَقُولُ حَبَّدَا امْرَأَةً، وَلَوْ كَانَ بَدَلاً لَقُلْتَ: حَبَّذَهُ
الْمَرْأَةُ قَالَ جَرِيرٌ:

يَا حَبَّدَا جَبَلُ الرِّيَّانِ مِنْ جَبَلٍ وَحَبَّدَا سَاكِنُ الرِّيَّانِ مَنْ كَانَا
وَحَبَّدَا نَفَحَاتِ مِنْ يَمَانِيَةِ تَأْتِيكَ، مِنْ قِبَلِ الرِّيَّانِ، أَحْيَانَا

أما حُبُّ إليه الأمر: جعله يُحِبُّ. وهم يتحابُّون: أي يحبُّ بعضهم بعضاً. وحُبُّ إليّ هذا الشيء يُحِبُّ حُبًّا. قال ساعدة:

هَجَرْتُ غَضُوبَ، وَحَبٌّ مَنْ يَتَجَنَّبُ وَعَدَتْ عَوَادٍ، دُونَ وَلَيْكَ، تَشَعَّبُ
وَأُنْشِدُ الْأَزْهَرِي:

دَعَانَا، فَسَمَّانَا الشَّعَارَ، مُقَدِّمًا وَحَبٌّ إِلَيْنَا أَنْ نَكُونَ الْمُقَدِّمًا
وقول ساعدة: وحبٌّ من يتجنب، أي حبٌّ بها إليّ متجنِّبة.

قال الأصمعي: حبٌّ بفلانٍ، أي ما أحبه إليّ! وقال الفراء: معناه حُبُّ بفلانٍ، بضمّ
الباء، ثم أسكنت وأدغمت في الثانية، وأنشد الفراء:

وَزَادَهُ كَلْفًا فِي الْحُبِّ أَنْ مَنَعَتْ وَحَبٌّ شَيْئًا إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مُنِعَا
قال: وموضع ما رفع، أراد حُبُّ فأدغم، وأنشد شمر:

وَلَحَبُّ بِالْطِّيفِ الْمُلِمِّ خِيَالًا
أي ما أحبه إليّ، أي أحبب به! . والتَّحِبُّ: إظهار الحُبِّ.

وَحَبَّانٌ وَحَبَّانٌ: اسمان موضوعان من الحُبِّ، والمُحَبَّةُ والمحبوبة جميعاً: من أسماء
مدينة النبي (ﷺ)، حكاية كُرَاعٍ، لِحُبِّ النَّبِيِّ (ﷺ)، وأصحابه إياها. أما حبة القلب فهي
ثمرته وسويداؤه، وهي هنة سوداء فيه، وقيل: هي زَنَمَةٌ في جوفه. قال الأعشى:

فَأَضْبْتُ حُبَّةً قَلْبِهَا وَطَحَالِهَا

قال الأزهري: حبة القلب، هي العلقة السوداء التي تكون داخل القلب، وهي حماطة
القلب أيضاً. يقال: أصابت فلانة حبة قلب فلان: إذا شغف قلبه حُبُّها.

وقال أبو عمرو: الحَبَابُ: الطُّلُّ على الشجر يصبح عليه. وفي حديث صفة أهل
الجنة: يصير طعامهم إلى رشح، مثل حباب المسك. قال ابن الأثير: الحَبَابُ، بالفتح:
الطلُّ الذي يُصْبَحُ على النبات، شبه به رشحهم مجازاً، وأضافه إلى المسك ليثبت له طيب
الرائحة، قال: ويجوز أن يكون شَبَّهَ بحباب الماء، وهي نفاخاته التي تطفو عليه؛ ويقال
لمعظم الماء حباب أيضاً. ومنه حديث علي (رضي الله عنه) قال لأبي بكر (رضي الله عنه):
طَرَزْتُ بعبابها، وفُزْتُ بحبابها، أي معظمها، والحُبَّة بالضم. الحُبُّ؛ يقال: نعم وحُبَّة
وكرامة؛ وقيل في تفسير الحُبِّ والكرامة: إنَّ الحُبَّ الخشبات الأربع التي توضع عليها الجرة
ذات العُروتين، وإنَّ الكرامة الغطاء الذي يوضع فوق تلك الجرة، من خشب كان أو من

خزف^(١).

وعن ابن فارس قال: «حَبّ: الحاء والباء أصول ثلاثة، أحدهما اللزوم والثبات...، وأما اللزوم فالحَبّ والمحبة، اشتقاقه من أحَبّه إذا لزمه، والمُحِبّ: البعير الذي يحسّر فيلزم مكانه: قال:

حَبَّتْ نِسَاءُ الْعَالَمِينَ بِالسَّبَبِ فَهُنَّ بَعْدُ كُلُّهُنَّ كَالْمُحَبِّ
ويقال: الْمُحَبُّ بِالْفَتْحِ أَيْضاً. ويقال أَحَبَّ الْبَعِيرُ إِذَا قَامَ. قالوا الإحباب في الإبل مثل
الجران في الذواب، قال:

ضَرَبَ بَعِيرِ السُّوءِ إِذْ أَحَبَّ
أي «وقف»^(٢).

والحُبُّ كما جاء في شعر المتنبي:

الْحُبُّ مَا مَنَعَ الْكَلَامَ الْأَلْسِنَا وَالَّذُ شَكْوَى عَاشِقٍ مَا أَغْلَنَا
لَيْتَ الْحَبِيبَ هَاجِرِي هَجَرَ الْكَرَى مِنْ غَيْرِ جُرِمٍ وَاصِلِي صَلَافَتِنَا
فالحب عند شاعرنا قد ملك فؤاده فلم يستطع التعبير عنه، مع أنه يؤدّ من أعماقه لو
قدر على ذلك. فإن أجمل شكوى هي الشكوى التي يجهرون بها؛ لأنهم بذلك يريحون
نفوسهم المعذبة وقلوبهم الواجفة^(٣).

وهذا أبو تمام يقول عن الحُبِّ:

نَقُلْ فُؤَادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوَى مَا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ
كَمْ مَنَزِلٍ فِي الْأَرْضِ يَأْلَفُهُ الْفَتَى وَحَنِينُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنَزِلٍ^(٤)
أما البحتري فيقول:

عَذِيرِي فَيْكِ مِنْ لَاحٍ إِذَا مَا شَكَوْتُ الْحُبَّ حَرَّقَنِي مَلَامَا
فَلَا وَأَبِيكَ مَا ضَيَّعْتُ جِلْمًا وَلَا قَارَفْتُ فِي حُبِّكَ دَامَا
أَلَامٌ عَلَى هَوَاكَ وَلَيْسَ عَذْلًا إِذَا أَحْبَبْتُ مِثْلَكَ أَنْ أَلَامَا
لَقَدْ حُرِمْتُ مِنْ وَضْلِي خِلَالًا وَقَدْ حَلَلْتُ مِنْ هَجْرِي حَرَامَا

(٢) مقاييس اللغة، ٢٦/٢ - ٢٧.

(٤) شرح ديوان أبي تمام، ٤٦٣.

(١) اللسان، مادة حبب.

(٣) لغة الحب في شعر المتنبي، ٧٢.

أَعْيَدِي فِي نَظْرَةِ مُسْتَثْبِيَةٍ تَوَخَّى الْهَجَرَ أَوْ كَرِهَ الْأَثَامَا^(١)
وقال بشار بن برد:

إِنِّي لَأَكْتُمُ فِي الْحَشَى حُبًّا لَهَا لَوْ كَانَ أَضْبَحَ فَوْقَهَا لِأَظْلَمُهَا
وَيَبِيتُ بَيْنَ جَوَانِحِي وَجَدُّ بِهَا لَوَبَاتٌ تَحْتَ فِرَاشِهَا لِأَقْلَمُهَا^(٢)

وورد في الأحاديث الشريفة حثٌ على المحبة والتجائب بين الناس، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: «سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه، وتفرقا عليه، ورجل دعت امرأته ذات حسن وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة، فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه»^(٣).

(٢) ديوان المعاني، ١/٢٢٣.

(١) ديوان البحري، ١/٣٠.

(٣) رياض الصالحين، ١٦٠ - ١٦١.

حُبَّ الله تعالى وحُبَّ رسوله (ﷺ)

من أفضل ما يسمو بالنفس، ويغرس فيها حُبَّ الإيمان أن يكون الله عز وجل، ورسوله (ﷺ) أحب إلى النفس ممَّا سواهما. فعن أنس (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: «ثلاثٌ من كُنَّ فيه وجدَّ بهنَّ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما، وأن يُحِبَّ المرءَ لا يُحِبُّه إلاَّ لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يُقذف في النار»^(١).

وليعلم المرء أن الفلاح والنجاح في الإخلاص لله عز وجل. فقد روي عن أبي ذر أن رسول الله (ﷺ) قال: قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان، وجعل قلبه سليماً، ولسانه صادقاً، ونفسه مطمئنة، وخليقته مستقيمة، وجعل أذنه مستمعة، وعينه ناظرة، فأما الأذن فقمع، والعين مقرَّة بما يُوعى القلب، وقد أفلح من جعل قلبه واعياً^(٢).

قد فاز من نقى قلبه، وملأه تصديقاً بوجود الله ومحبته، وآمن به وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وعمل صالحاً، وابتعد عن الإلحاد والزيغ، واجتنب الشبهات، حينها يقابل الله عز وجل وهو عامل بكتابه وسنة نبيه، فإذا أخبر قال بالواقع، وإذا شهد شهد بالعدل، ويركن إلى الله عند حدوث المصائب فلا ينجزع ولا يسخط ولا ييأس، وإنما يتحلى بالصبر والطمأنينة.

والحُبُّ لله والخوف منه يدلُّ على كمال الدين وصفاء السريرة والعمل المتقن، ورعاية جانبه واحترام كتابه: وحُبُّ سُنَّةِ حبيبهِ (ﷺ). وأن الله عز وجل يجمع المرء مع من يحبُّ. روي عن أنس (رضي الله عنه) أن رجلاً سأل رسول الله (ﷺ): متى الساعة؟ قال: وما أعددت لها؟ قال: لا شيء إلاَّ أني أحبُّ الله ورسوله. قال: أنت مع مَنْ أحببت. قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي (ﷺ) أنت مع من أحببت. قال أنس: فأنا أحب النبي

(١) رياض الصالحين، ١٦٠.

(٢) الترغيب والترهيب ٥٦/١.

﴿عَلَيْهِ﴾ وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم^(١). فكل من يتذوق حلاوة الإيمان يسري في جسمه النور المحمدي ويتغذى بلبان الإسلام، فيحيا حياة السعداء، ويحيطه الله عز وجل برحمته، ويقيه عادات شذائد يوم القيامة، ويجلب ذلك له الأمن والسُرور، فقلوب المؤمنين مطمئنة آمنة من الأهوال تتلأأ وجوههم نوراً وسروراً، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقد أجمع الأئمة - كما يقول الغزالي في إحياء علوم الدين - على أن الحب لله تعالى ولرسوله ﴿صَلَّى﴾ فرض، وكيف يفرض ما لا وجود له، وكيف يفسر الحب بالطاعة، والطاعة تبع الحب وثمرته فلا بد وأن يتقدم الحب، ثم بعد ذلك يطيع من أحب، ويدل على اثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]. وقوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

فقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ فالحبهم لله وتمايم معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم له لا يُشركون به شيئاً، بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه ويلجأون في جميع أمورهم إليه.

وكان رسول الله ﴿صَلَّى﴾ يقول في دعائه: «اللهم أرزقني حبك وحب من أحبك، وحب ما يقربني إلى حبك، واجعل حبك أحب إلي من الماء البارد». فالمستحق للمحبة هو الله عز وجل وحده. وأن من أحب غير الله لا من حيث نسبته إلى الله فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله تعالى. قال الثوري لرابعة العدوية: ما حقيقة إيمانك؟ قالت: ما عبدته خوفاً من ناره ولا حباً لجنته فأكون كالأجير السوء، بل عبدته حباً له وشوقاً إليه، وقالت في معنى المحبة نظماً:

أَحَبُّكَ حُبِّينِ حُبُّ الْهَوَى وَحُبُّ لَأُتِكَ أَهْلُ لِذَاكَ
فَأَمَّا الَّذِي حُبُّ الْهَوَى فَشَغْلِي بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ
وَأَمَّا الَّذِي هُوَا أَنْتَ أَهْلُ لَهُ فَكَشَفَكَ لِي الْحُجَبَ حَتَّى أَرَكَ
فَلَا الْحَمْدُ فِي ذَا وَلَا ذَاكَ لِي وَلَكِنْ لَكَ الْحَمْدُ فِي ذَا وَذَاكَ^(٢)

(١) الترغيب والترهيب، ٢٥/٤.

(٢) الترغيب والترهيب، ٣١/٤، الحاشية.

ولعلها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة، وبحبه لما هو أهل له.

إن الهداية وسبل الإيمان من الله عز وجل يهدي من يشاء من عباده ويُضِلّ من يشاء، يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَئِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦). فما على الرسول (ﷺ) إلا البلاغ المبين. والله يهدي من يشاء وله الحكمة البالغة في ذلك، والحجة الدامغة، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

قال ابن كثير في تفسيره: إن الله أعلم بمن يستحق الهداية فمن يستحق الغواية، وقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عم رسول الله (ﷺ). وقد كان يحوطه وينصره ويقوم في صفه ويحبه حباً شديداً طبعياً لا شريعياً فلما حضرته الوفاة وحان أجله دعاه رسول الله (ﷺ) إلى الإيمان والدخول في الإسلام، فسبق القدر فيه، واختطف من يده فاستمر على ما كان عليه من الكفر والله الحكمة التامة^(١).

وعلى كل من يدعي حب الله عز وجل، أن يتبع الشرح المحمدي والدين المحمدي في جميع أقواله وأفعاله كما ثبت في الصحيح عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد». فبمحة الله عز وجل يحصل للناس فوق ما يطلبون من محبتهم إياه، وهو محبته لهم وهو أعظم من الأول، فالشأن ليس أن تُحبّ إنما الشأن أن تُحبّ. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٦١). [آل عمران: ٣١].

وأخبرنا رب العزة أنه إذا أحبّ عبداً كان سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ورجله التي يمشي بها، ويده التي يبطش بها. عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «إن الله تعالى قال: ما عادي لي ولياً، فقد أذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني، أعطيته، لئن استعاذني، لأعيذه».

وفي محبة الله روي عن عائشة (رضي الله عنها) أن رسول الله (ﷺ) بعث رجلاً على سرية، فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ ﴿قل هو الله أحد﴾ فلما رجعوا، ذكروا ذلك لرسول الله (ﷺ) فقال: سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟ فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، فأنأ أحب أن أقرأ بها، فقال رسول الله (ﷺ): أخبروه أن الله تعالى يحبه».

(١) تفسير ابن كثير، ٣/٣٨١.

وعن رسول الله (ﷺ) قال: «إذا أحبَّ الله تعالى العبد، نادى جبريل: إنَّ الله تعالى يحبُّ فلاناً، فأحبيه، فيحبه جبريل، فينادي في أهل السماء: إن الله يحبُّ فلاناً، فأحبَّوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»^(١).

وهذا الشاعر محمود الوراق يبين لنا أن المحبَّ لله مطيعٌ له، صادق في حبه، يقول:
تَعْصِي إِلَهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ هَذَا لَعِمْرِي فِي الْقِيَّاسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقاً لَأَطَعْتَهُ إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ
ويبين آخر أن الشكوى لا تكون إلا لله، وأن الله حسبه، وأن محبته شفاء للصدر، وإصلاح للحال، وتسكين للخوف، وإزالة للكرب والدواهي. يقول:

إِلَيْكَ الْمُشْتَكَى لَا مِنْكَ رَبِّي وَأَنْتَ لِنَائِبَاتِ الدَّهْرِ حَسْبِي
تُرَوِّى غُلَّتِي وَتَرْمُ حَالِي وَتُؤْمِنُ رَوْعَتِي وَتُزِيلُ كَرْبِي^(٢)
وتقترن محبة الله عز وجل وطاعته، بمحبة الرسول (ﷺ) وطاعته، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

إنَّ طاعة الله عز وجل ومحبته، وطاعة الرسول (ﷺ) ومحبته تعني الفوز بكل خير، والأمان من كل شرٍّ محقق بالمرء في الدنيا والآخرة.

أما عصيان الله وعصيان رسوله (ﷺ) فهو الضلال الواضح المودي إلى الهلاك في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً﴾ [الأحزاب: ٣٦].
فمحبة الله عز وجل ومحبة رسوله (ﷺ) تكون في الدرجة الأولى، فقد ورد عن الإمام أحمد قوله: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا ابن لهيعة عن زهرة بن معبد عن جدِّه قال: كنا مع رسول الله (ﷺ): وهو أخذ بيد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فقال: والله يا رسول الله لأنَّ أحبَّ إليَّ من كلِّ شيءٍ إلَّا نفسي، فقال رسول الله (ﷺ): لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من نفسه! فقال عمر: فأنت الآن والله أحبَّ إليَّ من نفسي، فقال رسول الله (ﷺ): «الآن يا عمر»^(٣).

ومن محبة الرسول (ﷺ) أن نتخذَه قدوة حسنة لنا في كل عمل وقول نقوم به، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١].

(٢) التمثيل والمحاضرة، ١٢ - ١٣.

(١) رياض الصالحين، ١٦٣ - ١٦٤.

(٣) تفسير ابن كثير، ٣٢٨/٢.

أمرنا الله عز وجل أن نتأسى برسول الله (ﷺ) في أقواله وأفعاله، ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي (ﷺ) يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه عز وجل.

ومن محبته أيضاً أن نلتزم بما جاء به من عند الله، وننأى عما نهانا عنه، لقوله عز وجل: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]. فالرسول (ﷺ) مهما أمرنا به فلا بد أن نفعله: ومهما نهانا عنه فلا بد من اجتنابه، فإنه يأمر بخير وإنما ينهى عن شر، فقد ورد عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه».

كما أن من محبة الله وطاعته، محبة رسوله وطاعته، فإنه من أطاع الرسول (ﷺ) فقد أطاع الله عز وجل، قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ [النساء: ٨٠]. فالرسول (ﷺ) ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

إن محبة الرسول (ﷺ) وطاعته تهدي إلى صراط مستقيم، فيه الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ عَلَىٰ حَكِيمٍ عَالِمٍ﴾ [٥١] وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [٥٢] صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ [٥٣] [الشورى: ٥١ - ٥٣].

وحذرنا الله عز وجل من يخالف أمر الرسول (ﷺ) وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله: فما وافق ذلك قبل وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان. قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وأختم قولِي هذا بقول الأبشيهي في باب الإخلاص لله تعالى والثناء عليه: «وهو أن تعلم أن الله تعالى واحد لا شريك له. فرد لا مثل له، صمد لا نذل له. أزلي قائم. أبدي دائم. لا أول لوجوده، ولا آخر لأبديته. قديم لا يفنيه الأبد، ولا يغيّره الأمد. بل هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، منزّه عن الجسميّة ليس كمثله شيء، وهو فوق كل شيء، فوقيته لا تزيده بعداً عن عبادته، وهو أقرب إلى العبيد من جبل الوريد، وهو على كل شيء شهيد، وهو معكم أينما كنتم، لا يشابهه قربه قرب الأجسام، كما لا يشابهه ذات ذوات الأجرام، منزّه عن أن يحذه زمان، مقدّس على أن يحيط به مكان، تراه أبصار الأبرار في دار القرار، على ما دلّت عليه الآيات والأخبار، حيّ قادر جبار قاهر لا يعترّبه عجز ولا قصور، ولا تأخذه

سنة ولا نوم، له الملكوت والعزة والجبروت، خلق الخلق وأعمالهم، وقدر أرزاقهم وآجالهم، لا تحصى مقدوراته، ولا تتناهى معلوماته، عالم بجميع المعلومات، لا يعزب (يخفى) عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السموات، يعلم الشر وأخفى، ويطلع على هواجس الضمائر وخفيات السرائر، مريد للكائنات، مدبر للحادثات، لا يجري في ملكه قليل ولا كثير، ولا جليل ولا حقير، خير أو شر، نفع أو ضرر، إلا بقضائه وقدره وحكمه ومشيئته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فهو المبدئ المعيد الفاعل لما يريد، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته، ولا قوة له على طاعته إلا بمحبته وإرادته... ثم بعد هذا الاعتقاد الإقرار بالشهادة بأنّ محمداً رسول الله بعثه برسالاته إلى الخلائق كافة وجعله خاتم الأنبياء، ونسج بشريعته الشرائع وجعله البشر والشفيع المشفع في المحشر، وأوجب على الخلق تصديقه فيما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة. فلا يصح إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت، من سؤال منكر ونكير، وهما ملكان من ملائكة الله تعالى يسألان العبد في قبره عن التوحيد والرسالة، ويقولان له: من ربك وما دينك ومن نبيك، ويؤمن بعذاب القبر وأنه حق، وأن الميزان حق، والصراف حق، والحساب حق، وأن الجنة حق، والنار حق، وأن الله تعالى يدخل الجنة من يشاء بغير حساب وهم المقربون، وأنه يخرج عصاة الموحدين من النار بعد الانتقام، حتى لا يبقى في جهنم من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان، ويؤمن بشفاعة الأنبياء ثم بشفاعة العلماء ثم بشفاعة الشهداء، وأن يعتقد فضل الصحابة (رضي الله عنهم) ويحسن الظن بجميعهم على ما وردت به الأخبار، وشهدت به الآثار. فمن اعتقد جميع ذلك مؤمناً به موقناً فهو من أهل الحق والسنة، مفارق لعصاة الضلال والبدعة، رزقنا الله الثبات على هذه العقيدة، وجعلنا من أهلها، ووفقنا للدوام إلى الممات على التمسك والاعتصام بجليلها، إنه سميع مجيب^(١).

الإيثار (حب الآخرين)

يقول ابن فارس في معجمه: «الأثير» الكريم عليك الذي تؤثره بفضلك وصلتك. والمرأة الأثيرية، والمصدر الأثرة، تقول: عندنا أثرة... قال الخليل: استأثر الله بفلان، إذا مات وهو يرجى له الجنة. وفي الحديث: «إذا استأثر الله بشيء قاله عنه» أي إذا نهى عن شيء فاتركه. قال أبو عمرو بن العلاء: أخذت ذلك بلا أثرة عليك، أي لم استأثر عليك. ورجل أثّر على فعل، يستأثر على أصحابه... وفي الحديث: «سترون بعدي أثرة» أي من يستأثرون بالفيء. قال ابن الأعرابي: «أثرته بالشيء إيثاراً، وهي الأثرة والإثرة، والجمع الإثر، قال:

لَمْ يُؤْثِرُوا بِهَا إِذْ قَدَّمُواكَ لَهَا لَا بَلْ لِأَنْفُسِهِمْ كَانَتْ بِكَ الْإِثْرُ»^(١)

والإيثار كما يقول جبور عبد النور: «شعور بحب الناس وإرادة الخير لهم، وتفضيلهم أحياناً على الناس، وهو نظرية خلقية تقول إن الخير هو في تأمين مصلحة الآخرين. وأدبياً فقد يترأى الإيثار أحياناً في الأدب، فيكون التعبير عنه باتخاذ الكاتب أو الشاعر موقفاً أبوياً من الآخرين، وبمحاولته إفادتهم من موهبته إما بالنصح والإرشاد، وإما بالدفاع عن قضاياهم الخاصة والعامة»^(٢).

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخَيِّطُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]. وقوله تعالى: يؤثرون أي يقدمون الذين في حاجة على حاجة أنفسهم ويبدؤون بغيرهم عند حاجتهم إليهم. وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: «أفضل الصدقة جهد المقل». فإن المتصدق ينفق من ماله الزائد بحيث لا يكون له حاجة إليه ولا ضرورة به، بينما نجد أناس يؤثرون على أنفسهم ويفضلون غيرهم وإعطاءهم. رغم أنهم بحاجة إلى ما أنفقوه. ورد في تفسير ابن كثير أن الصديق (رضي الله

(٢) المعجم الأدبي، ٤٣.

(١) مقاييس اللغة، ٥٥/١.

(عنه) تصدّق بجميع أمواله. فقال له الرسول (ﷺ): ما أبقيت لأهلك؟ فقال (رضي الله عنه) أبقيت لهم الله ورسوله.

وجاء في قوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُدُودٍ مَنَعًا وَأَمِيرًا ۖ وَإِنَّمَا تُطْعَمُونَ لِرَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُؤْتِي مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝﴾ [الإنسان: ٨ - ٩].

فهم يطعمون الطعام في حال محبتهم وشهوتهم له، ويفعلون ذلك رجاء ثواب الله تعالى ورضاء، ولا يطلبون ممن يطعمونهم مجازاة ولا شكراً عند الناس.

وجاء في حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: «جاء رجل إلى النبي (ﷺ) فقال: إنني مجهود (أي أصابني الجهد والحاجة وسوء العيش والجوع)، فأرسل إلى بعض نسائه، وقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى، فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهن مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء. فقال النبي (ﷺ): من يضيف هذا الليلة؟ فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله، فانطلق به إلى رحله، فقال لأمراته: أكرمي ضيف رسول الله (ﷺ).

وفي رواية لأمراته: هل عندك شيء؟ فقالت: لا إلا قوت صياني. قال: علّهم بشيء وإذا أرادوا العشاء فتؤمهم، وإذا دخل ضيفنا، فأطفي السراج، وأريه أنا نأكل، فقعّدوا وأكل الضيف وبأنا طاويّين، فلما أصبح غدا على النبي (ﷺ) فقال: «لقد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة»^(١).

وعن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: قيل يا رسول الله أي الناس أحب إليك؟ قال: أنفع الناس للناس، قيل: يا رسول الله، فأَيُّ الأعمال أفضل؟ قال: إدخال السرور على المؤمن، قيل وما سرور المؤمن؟ قال: إشباع جوعته، وتنفيس كربته، وقضاء دينه، ومن مشى مع أخيه في حاجة كان كصيام شهر واعتكافه، ومن مشى مع مظلوم يعينه ثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام، ومن كف غضبه ستر الله عورته، وإن الخلق السيء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل»^(٢).

وجاء عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: «من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»^(٣).

(٢) الأبيشي، ٢٥٢/١.

(١) رياض الصالحين، ٢٣٠ - ٢٣١.

(٣) رياض الصالحين، ١١٤.

الله عز وجل يزيل ويفرج عَمَّنْ أزال وفزع شدائد الناس ومصائبهم، وأدخل السرور إلى نفوسهم، وأراحهم من عناء المرارة والبؤس والشقاء، فكان ذلك وقاية وسترًا للعبد الذي قام بصنع المعروف في الدنيا والآخرة، وأعان الله وحقق له ما يريد من الخير والمنفعة. وكل من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته.

وذكر عن الشاعر العباسي بشار بن برد قوله:

بُئِ التُّوَالُ وَلَا تَمْنَعُكُ قِلَّتُهُ فَكُلْ مَا سَدَّ فَقْرًا فَهُوَ مَحْمُودُ^(١)
فالحمد لمن أعطى، ولو كان قليلاً، فقد سدَّ حاجة وأسكت جوعاً.

وقيل:

الطُّرْفُ يَجْرِي وَبِهِ هُزَالٌ وَالسَّيْفُ يَمْضِي وَبِهِ انْفِلَالٌ
وَالْحَرُّ يُعْطِي وَبِهِ إِقْلَالُ^(٢)

فالإنسان الحرُّ الكريم يُنْفَقُ ويوجد بما عنده، ولو كان قليلاً، فالقليل مع القليل كثير، روي عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) قال: بينما نحن في سفر مع النبي (ﷺ) إذ رجل على راحلة له، فجعل يصرف بصره يميناً وشمالاً، فقال رسول الله (ﷺ): من كان معه فضل ظهر فليعُدْ به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد، فليعُدْ به على من لا زاد له.

وروي عن أبي موسى (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «إن الأشعريين إذا أرمَلوا في الغزو (فرغ زادهم أو كاد)، أو قلَّ طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية فهم مني وأنا منهم»^(٣).

فالتعاون والتكافل يورث المحبة بين المسلمين، ويظهر ذلك عندهم في الشدائد والحاجة الماسة إلى التقارب فيما بينهم ليكونوا يداً واحداً، لا فرق بين غني وفقير، ولا صعلوك أو أمير، كل في حاجة إلى الآخر، يتنافس الجميع في فعل الخير، ولو كان قليلاً، ليسدَّ به رمق المحتاج، حتى وإن كان المنفق محتاجاً إليه، فالاكثار من عمل الخير هو مما يتبرك به. وهو من باب التنافس في أمور الآخرة والفوز برضا الله عز وجل - ومحبته ورضوانه؛ قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

فعن ابن عمر (رضي الله عنهما) عن النبي (ﷺ) قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل

(٢) التمثيل والمحاضرة، ٤٢٣.

(١) التمثيل والمحاضرة، ٤٢٤.

(٣) رياض الصالحين، ٢٣١ - ٢٣٢.

أتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل أتاه الله مالاً، فهو يُنفقه آناء الليل وآناء النهار».

فلا ننال الخير إلا إذا قمنا بالإنفاق في وجوه الخير، ولو كان هذا المال عزيزاً على المرء، قال تعالى: ﴿لَنْ نَأْثُلَا الْيَتِيمَ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ وَمَا يُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢].

ويظن البعض منا أن عدم الإنفاق، وعدم النظر في حوائج الناس أو تفضيلهم على النفس، يزيد في الخير والمال، وإنما هو منقصة له وشر وسيكون عليهم كالطوق في أعناقهم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمِمَّا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَبْزِثُ السَّمَواتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

فأنفقوا أيها المسلمون مما أنتم مستخلفين فيه، فإن الأمور كلها مرجعها إلى الله عز وجل، فقدموا من أموالكم ما ينفعكم يوم معادكم، والله أعلم بسرائركم. فإنه ما من ذي رحم يأتي ذا رحمه فيسأله من فضل جعله الله عنده، فيبخل به عليه إلا خرج له من جهنم شجاع يتلمظ حتى يطوقه. هذا ما أخبرنا به أبي قرعة عن رجل عن النبي (ﷺ).

وإذا أراد المرء المسلم أن يفرج عن أخيه شدة، فلا يأت بالخبيث من الأشياء بل يتحرى ما كان طيباً، فالإنفاق يكون من أطيب المال وأجوده وأنفسه، ولا يكون بالرديل أو الدنيء من الأشياء، فإن الله عز وجل طيب لا يقبل إلا طيباً، وما لا ترضاه لنفسك لا تصنعه لغيرك. قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طِبِّتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

وفي الجود والبذل والعطاء لمن يستحق، يقول البحري:

ما استغرب الناس إفضالاً ولا اشتهروا من حاتم غير بذلٍ لذي يجد^(١)

(١) ديوان البحري، ٢/ ٣٥٧.

حُبُّ الْمَالِ

الأرض التي نعيش فوقها ونعمرها. نأكل من خيراتها ونتمتع بما أخرجت، ننمو عليها ونعود إليها، هذه الأرض ليست من صنع البشر، ولا من عمل أيديهم، وهي فوق قدرتهم وطاقاتهم، وما كانوا يوماً أهلاً لذلك ولن يكونوا، إنما هم مخلوقون، خالقهم هو رب السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّثْلُ مَا خَلَقَ يَفْعَلُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ﴾ [المائدة: ١٨]. وقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ﴾ [يس: ٨١]. فالإنسان يقف مشدوهاً أمام عظمة الخالق وقدرته ويسط نفوذه على الكون وسيطرته ومراقبته للمخلوقات، فلا يجرؤ مخلوق أن يتعدى حد الخلق أو يفكر في تجاوزه. قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبٌ مِثْلُ مَا اسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّكَ إِلَهِنَا لَدَعَوْنِي مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]. وقال: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠]. فالله عز وجل اختص بالخلق، خالق كل شيء مما نستطيع تصوّره وما لا نستطيع، فما على الخلق إلا الطاعة والإخلاص في العبادة، قال تعالى: ﴿وَالِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ١٠٢] فالله عز وجل خالق الكون وكل ما في الكون، وسخر ما في الكون في خدمة الإنسان، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَ وَيَاطُنَةٌ﴾ [لقمان: ٢٠].

فالله تبارك وتعالى سخر ما في الكون لمنفعة الخلق، وخص الإنسان وكرمه وأجزل له العطاء مما تنبت الأرض فأخرج منها كنوزاً وخيرات كثيرة. قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ﴾ [٣٧] وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَلِيلَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ [٣٨] وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ [٢٤]. [إبراهيم: ٣٢ - ٣٤].

وعلى الرّغم من استخلاف الله سبحانه وتعالى للبشر فإنهم لا يملكون شيئاً، فكل شيء هو ملك الوهاب الرّزاق، والبشر مأمورون بالإنفاق مما جعلهم الله مستخلفين فيه. قال

تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَعْلَيْنَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝﴾ [الحديد: ٧].

فكل ما في أيدي الناس ليس لهم إنما هو ملك لله عز وجل فالمال هو لله وديعة في أيدي الناس وأن هذا المال وضع بين أيديهم ابتلاء كي يرى الله عز وجل هل يقوم الإنسان عليه في حدود أمره ونهيه أو لا يقوم.

فانظر إلى بني آدم يعطيه الله المال ويرزقه من حيث لا يحتسب، ولكن الإنسان ظالم لنفسه، فيبدأ هذا الإنسان بجمع هذا المال وكنزه ومع كنزه يزداد حبه له ولا يستطيع له فراقاً. قال تعالى: ﴿وَتَجِبُوا أَكْثَرَ الْبَالِ حُبًّا جَمًّا ۝﴾ [الفجر: ٢٠]. ومع زيادة الحب والكنز يزداد نصبه وعذابه وشقائه. قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۖ يُصْذَوْنَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْثُرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝﴾ [التوبة: ٣٤]. فهذا الذي يكثر المال في الدنيا ويتمسك به ولا ينفق فله عذاب في الدنيا، وعذاب في الآخرة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوهُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ ۝﴾ [التوبة: ٣٥]. ويبقى الإنسان يجمع ماله ظناً منه أنه سيخلده أو أنه يدفع عنه عذاب الله.. قال تعالى: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدُوهُ ۚ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۚ كَلَّا لَيُبْدَنَ فِي الْخَطْمَةِ ۝﴾ [الهمزة: ٢ - ٤]. وما ينفعه هذا المال إذا هلك. قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْفَعِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ۝﴾ [الليل: ١١]. وقال: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩]. فكيف يأتي الإنسان بقلب سليم وقد داخله حب المال والولد وفضلهما على حب الله عز وجل وابتعد عما أمره الله وتمسك بما نهى الله. وقد تلهى بهما عن ذكر الله وحبه، وجعلهما غايته وطلبه، وابتعد عن كل ما يقربه إلى الله جل وعلا. قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝﴾ [المنافقون: ٩].

وليعلم الإنسان أن كل شيء زائل إلا وجه الله الكريم، وليعلم أن الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر في الأموال والولد، ولكن من الناس من يعجبه ذلك ويغرق في الملذات واللهاو، ولا يعلم أن كل هذا سيزول في وقت من الأوقات، ويبقى هو في حسرة دائمة وما هذه الحياة الدنيا إلا متاع الغرور، وسيخلد من فسقه في نار جهنم وبئس المصير. قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهْوُ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۚ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَائِهِ ۖ ثُمَّ يَسْجُغُ فَرُّهُ مُضْفَرًا ۖ ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا ۚ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ ۚ الْغُرُورُ ۝﴾ [الحديد: ٢٠].

فالحياة الدنيا لا شيء عند أصحابها فهي كما أخبرنا الله عز وجل إنما هي كالزهرة الفانية والنعمة الزائلة - كمثل غيث - مطر أعجب الزراع نبتة، كذلك الكفار الذين أعجبهم الدنيا ففرحوا بها وحرصوا عليها ومالوا إليها، فانظر إلى ذلك الزرع يهيج ويصفر بعد خضرة وينعة ثم زوال. فإن الدنيا متاع الغرور فمن اغتر بها وركن إليها وترك الآخرة فجزاؤه جهنم وبئس المهاد.

وانظروا إلى من سبقكم كيف أغتروا بالدنيا وكانوا أشد منكم بأساً وقوة، أين انتهوا؟! قال تعالى: ﴿كَأَلَيْسَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأُولَدًا﴾ [التوبة: ٦٩]. وأعلموا أن الله تعالى أمدكم بأموال وبنين وجعلكم مسؤولين مسؤولية تامة عنهم، فهذا اختبار وامتحان منه لكم إذا أعطاكموها ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها أو تشتغلون بها عنه وتعتاضون بها منه. وأعلموا أن ثواب الله وعطاءه وجناته خير لكم من المال والولد، وأكثر الأبناء لا يغني عنك شيئاً. والله تعالى هو المتصرف المالك للدنيا والآخرة ولديك جزيل الثواب يوم القيامة. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥].

لا يكون المال وحب المال مجالاً للتنافس والتشاحن فيما بين المسلم وأخيه، فلا يغتر كثيراً ولا يتباهى لأنه لا يملك هذا المال إنما المال أمانة لديه وعليه حفظ الأمانة وانفاقها في سبل الخير المشروعة، ولا يجب على المسلم أن يكون متعالياً متكبراً متجبراً يختال على غيره ويفتخر بأنه أكثر من غيره مالاً، فما عليه إلا أن يشكر الله على هذه النعمة ويحمده على فضله، أما التفاخر والمجادلة والخصام فتلك أمنية الفاجر كثرة المال وعزة النفس، والغرور بأن لديه الخدم والحشم والولد والمال الوفير. قال تعالى: ﴿وَكَانَ لَمْ تَمُرْ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤] وبلغ من الغرور بحيث أنه رأى الشمار والزروع والأشجار والأنهار في جوانب جنته التي زعم وأرجأها ظناً منه أنها لا تنفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف، وذلك لقلة عقله وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالدنيا وزينتها ومفاتها وكفره بالله وبالأخرة. ولو أنه حمد الله على ما أنعم عليه وأعطاه من المال والولد ما لم يعطه غيره وقال ما شاء الله لا قوة إلا بالله لكانت له حرزاً من زوال النعمة وحفظها.

فالمسلم لا ينبغي له أن يكتز مالاً أو يباهي به غيره تكبراً وتجبراً وقهراً، وإنما أمرنا الله عز وجل أن نفق في سبيله ابتغاء مرضاته، تصديقاً وقيناً وإيماناً حقيقياً ثابتاً أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء. ومثلهم في ذلك كربوة (مكان مرتفع من الأرض) أصابها مطر غزير فأثت ثمارها ضعفين نسبة إلى غيرها، وحتى إن لم يصبها وابل أصابها مطر خفيف رذاذ (طل) فبذلك تكون هذه الربوة نضرة وأيا ما كان طل أو وابل إنما هو كسب لها، وكذلك

عمل المؤمن فإن لا يبور أبداً بل يتقبله الله ويكرمه وينميه، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتُقْبِلَتَا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَكَانَتْ أَكْثَمًا يُعْفَفُونَ فَإِنَّ لَمْ يُمْسِكْهَا وَابِلٌ فَطُلَّتْ ۗ وَاللَّهُ يَمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة: ٢٦٥].

وأعظم الإنفاق ما كان في سبيل إعلاء كلمة الله، ومقارعة أعدائه، وهذا يكون بالتضحية بالمال والنفس، كسباً لرضا الله والفوز بالجنة. وهذا كان دأب رسول الله (ﷺ) وأصحابه (رضوان الله عليهم) إذ كان إيمانهم عميقاً ثابتاً راسخاً، يتطلعون إلى الخير العميم الذي يلحق بهم في الدار الآخرة في جنات الفردوس والدرجات العلى. قال تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا يَأْمُرُكُمُ اللَّهُ وَأَنْفُسُهُمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [التوبة: ٨٨].

بينما نجد من ضعف إيمانه، وعزّت عليه نفسه، وصعب عليه ماله، يكره أن يكون مثلاً طيباً في الإنفاق في سبيل الله كدأب الرسول (ﷺ) وصحابته الأجلاء، قال تعالى: ﴿فَرَحَ الْمُحَلِّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٨١].

فالله عز وجل دوماً يأمر عباده المؤمنين أن يكونوا أنصاراً له في جميع أحوالهم بأقوالهم وأفعالهم وأموالهم وأنفسهم وأن يستجيبوا له ولرسوله (ﷺ)، فإن الإيمان بالله وتصديق ما جاء به رسول الله والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله فيه الخير العميم خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة.

قال لقمان لابنه: يا بني أكلت الحنظل وذقت الصبر: فلم أر شيئاً أمرُّ من الفقر، فإن افتقرت فلا تحدّث به الناس كيلا ينتقصوك ولكن أسأل الله تعالى من فضله. فمن ذا الذي سأل الله فلم يعطه أو دعاه فلم يجبه أو تضرّع إليه فلم يكشف ما به. وكان العباس (رضي الله عنه) يقول: الناس لصاحب المال ألزم من الشعاع للشمس، وهو عندهم أعذب من الماء، وأرفع من السماء، وأحلى من الشهد، وأزكى من الورد، خطؤه صواب، وسيئاته حسنات، وقوله مقبول، يرفع مجلسه ولا يمل حديثه، والمُفلس عند الناس أكذب من لمعان السراب، وأثقل من الرصاص، لا يسلم إن قدم، ولا يسأل عنه إن غاب، إن حضر أردوه، وإن غاب شتموه، وإن غضب صفعوه، مصافحته تنقض الوضوء، وقرارته تقطع الصلاة.

قال ابن الأحنف:

يَمُشِي الْفَقِيرُ وَكُلُّ شَيْءٍ ضِدُّهُ وَالنَّاسُ تُغْلِقُ دُورَهُ أَبْوَابَهَا
فَتَرَاهُ مَبْغُوضاً وَلَيْسَ بِمُذْنِبٍ وَيَرَى الْعِدَاوَةَ لَا يَرَى أَسْبَابَهَا
حَتَّى الْكَلَابُ إِذَا رَأَتْ ذَا نَرْوَةٍ خَضَعَتْ لَدَيْهِ وَحَرَّكَتْ أَذْنَابَهَا

وَإِذَا رَأَتْ يَوْمًا فَقِيرًا عَابِرًا نَبَحَتْ عَلَيْهِ وَكَثُرَتْ أَنْيَابُهَا^(١)
ولكن مهما جمع الإنسان المال وأحبه حباً قوياً، فمصيره وماله إلى زوال. قال
الشاعر:

أَيَا مَنْ عَاشَ فِي الدُّنْيَا طَوِيلًا وَأَفْنَى الْعُمُرِ فِي قِيلٍ وَقَالَ
وَأَتَعَبَ نَفْسَهُ فِيمَا سَيَفْنَى وَجَمَعَ مِنْ حَرَامٍ أَوْ حَلَالٍ
هَبِ الدُّنْيَا تُقَادُ إِلَيْكَ عَفْوًا أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَلِكَ لِلزُّوَالِ^(٢)

(٢) م.ن، ١٠٥.

(١) المستطرف، ٩٥ - ٩٧.

الإحسان

الإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]. وعن أنس بن مالك قال: قرأ رسول الله (ﷺ): ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾. وقال: هل تدرون ما قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «يقول: هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة»^(١).

فالإنسان يجب أن تكون سريرته أحسن من علانيته لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

فالمسلم عليه في سرّه وعلانيته أن يبذل جهداً كبيراً في عبادة الله عز وجل والإخلاص له حق الإخلاص، وأن يقوم بأعماله على أتم وجه، فعليه أن يخلص لله عز وجل فيعمل إيماناً واحتساباً وهو مُحسن أي يتبع في عمله ما شرعه الله تعالى له وما أرسل به رسوله (ﷺ)، فيكون متابِعاً للشرعية فيصح ظاهره بالمطابقة، وباطنه بالإخلاص، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

فمن أسلم وجهه إلى الله أي أخلص له العمل وانقاد لأمره، واتبع شرعه، وترك ما نهى عنه وزجر، فقد أخذ موثقاً من الله سبحانه وتعالى أنه لا يعذبه. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢].

فعندما يحس المسلم أنه إن لم يكن يرى الله فإن الله تعالى يراه، فإن استشعار هذه

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٨٠.

الرقابة الدائمة من رب العالمين على كل تصرف يأتيه المسلم هو الذي يخلق هذه الحساسية التي ميزت رجال الإسلام الأوائل.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝﴾ [النساء: ١].

فتقوى الله عز وجل عبادته وحده لا شريك له، وطاعته؛ لأن الله عز وجل مراقب لجميع أحوالنا وأعمالنا. قيل: مرّ ثعلبة بن عبد الرحمن الأنصاري خادم رسول الله (ﷺ): يوماً بباب رجل من الأنصار فبصر بإمرأة الأنصاري وهي تغتسل فكرر النظر إليها، ثم تذكر أن الله تعالى يراه وأحسن بذنبه فخرج هائماً على وجهه إلى جبال بين مكة والمدينة.

حب العلم والأدب

العلم لغة:

قال ابن فارس: «العلم نقيض الجهل، وقياسه قياس العَلَم والعلامة، والدليل على أنهما من قياس واحد قراءة بعض القراء: «وَأَنَّهُ لَعَلَّمُ للساعة» قالوا: يراد به نزول عيسى (عليه السلام)، وإنَّ بذلك يُعلم قرب الساعة. وتعلّمت الشيء إذا أخذت علمه»^(١).

وورد في المعجم الأدبي أن العلم: ١ - معرفة الأمر معرفة جيدة. ٢ - معرفة إحدى التقنيات أو المقدرة على إتقان فن من الفنون. ٣ - ابتداء من نهاية القرن التاسع عشر: مجموع المعارف الوضعية في اختصاص معين، منسقة حسب مبادئ واضحة ومؤكدة بطريقة عقلية، في مقابل:

أ - المعرفة الشائعة بين عامة الناس. ب - الماورائيات؛ لأن العلم لا يدرس إلا الأحداث الوضعية. ح - الفلسفة؛ لأن العلم هو تخصص في ميدان محدود. د - الدين؛ لأن العلم مبني على العقل وليس على الوحي^(٢).

وللعلم أصناف مختلفة منها:

١ - علم الأخلاق: علم يبحث في الأخلاق القيمة التي تنصب على الأفعال الإنسانية من ناحية أنها شر أو خير، وهو أحد العلوم المعيارية، وهو ضربان: عملي ويسمى علم السلوك. أو علم الأخلاق العملي. ونظري وهو الذي يبحث في حقيقة الخير والشر والقيم الأخلاقية من حيث هي.

٢ - علم الأصوات: علم يُعنى بالأصوات الإنسانية شرحاً وتحليلاً، ويجري عليها التجارب

(١) مقاييس اللغة، ٤/ ١١٠.

(٢) المعجم الأدبي، ١٨٤.

دون نظر خاص إلى ما تنتمي إليه من لغات، وإلى أثر تلك الأصوات في اللغة من الناحية العملية.

٣ - علم البديع: هو أحد علوم البلاغة الثلاثة: (المعاني، البيان، البديع) وهو العلم الذي تعرف به وجوه تحسين الكلام لفظياً ومعنوياً بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة.

٤ - علم البيان: أحد علوم البلاغة الثلاثة (البيان، والمعاني، البديع) وهو علم يُعرف به التعبير عن المعنى الواحد بطرق مختلفة من تشبيه ومجاز وكناية.

٥ - علم التأويل (علم التخريج): دراسة المبادئ المنهجية في تأويل النصوص وخاصة الدينية منها، حل رموز النص وكشف مغزاه.

٦ - علم الدراية: العلم الذي تظهر فيه شخصية ممارسه بابتكار شيء فيه، أو إضافة جديد إليه. ويقابله علم الرواية الذي تستفاد حقائقه من مجرد النقل عن الغير، وليس لصاحبه شخصية فيه.

٧ - علم الرجال أو علم التعديل والتجريح: وهو علم يختصّ بتمحيص مادة الحديث وتنقيتها من الزيف والتدليس، وأهم من بدأ التصنيف فيه محمد بن سعيد، ويحيى بن معين، ومن أشهر كتبه: صحيح البخاري ومسلم.

٨ - علم الصرف: عند العرب هو العلم الذي تعرف به الأبنية المختلفة للكلام وما يشتق منه كأبواب الفعل وتصريفه، وتصريف الاسم، وأصل المشتقات (الفعل أو المصدر) والمصادر بأنواعها، والمشتقات (اسم الفاعل، اسم المفعول، الصفة المشبهة، أفعال التفضيل، اسم الزمان، اسم المكان، اسم الآلة) والتصغير والنسب.

٩ - علوم القرآن: وهي العلوم التي اشتقت مباشرة من القرآن الكريم أو تفرعت عنه، وذلك كعلم القراءات، وعلم التفسير، وعلم أسباب النزول، وعلم إعراب القرآن، وعلم التجويد وغيرها. ومما تفرع منه علم الفقه وأصوله.

١٠ - علم النحو: وهو العلم الذي يعرف به أحوال الكلمات إعراباً وبناءً، كما يعرف به النظام النحو للجملة، وهو ترتيبها ترتيباً خاصاً بحيث تؤدي كل كلمة فيها وظيفة معينة حتى إذا اختل هذا الترتيب اختل المعنى المراد. وللنحو العربي مدارس أشهرها مدرسة البصريين ومدرسة الكوفيين^(١).

(١) معجم المصطلحات العربية، ٢٥٤ - ٢٦٠.

وعن حب العلم والحث عليه أورد الإبيهي حديثاً عن رسول الله (ﷺ)، قال: عن معاذ بن جبل (رضي الله عنه)، قال رسول الله (ﷺ): «تعلّموا العلم فإن تعلمه الله حسنة ودراسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه عبادة، وتعليمه صدقة، وبذله لأهله قرية؛ لأنه معالم الحلال والحرام، وبيان سبيل الجنة، والمؤنس في الوحشة، والمحدث في الخلوة، والجلس في الوحدة، والصاحب في الغربة، والدليل على السراء، والمعين على الضراء، والزين عند الأخلاء، والسلاح على الأعداء، بالعلم يبلغ العبد منازل الأخيار في الدرجات العلى، ومجالسة الملوك في الدنيا، ومرافقة الأبرار في الآخرة، والفكر في العلم يعدل الصيام، ومذاكرته تعدل القيام، وبالعلم توصل الأرحام، وتفصل الأحكام، وبه يُعرف الحلال والحرام، وبالعلم يُعرف الله ويوحّد، وبالعلم يُطاع الله ويُعبَد^(١).

قال إبراهيم بن خلف المهراتي:

النحو يُصلح من لسان الأكنِ والمرء تُكرمهُ إذا لم يَلَحِنِ
وإذا طَلبت من العلوم أجَلُها فأجلُها منها مقيم الألسنِ
وقال علي بن بشار:

رَأَيْتُ لِسَانَ الْمَرْءِ آيَةً عَقْلِهِ وَعَنَوَائِهِ فَأَنْظِرْ بِمَاذَا تَعْنُونُ
وَلَا تَغْدُ إِصْلَاحَ اللِّسَانِ فَإِنَّهُ يَخْبُرُ عَمَّا عِنْدَهُ وَيَبَيِّنُ
وَيُعْجِبُنِي زَيُّ الْفَتَى وَجَمَالُهُ فَيَسْقُطُ مِنْ عَيْنِي سَاعَةً يَلْحَنُ^(٢)

والراسخون في العلم المتواضعون لله المتذلّلون له في مرضاته لا يتعاضمون من فوقهم ولا يحقرون من دونهم. وسئل الرسول الكريم (ﷺ) عن الراسخين في العلم فقال: «من برّت يمينه، وصدق لسانه، واستقام قلبه، ومن عف بطنه وفرجه فذلك من الراسخين في العلم».

قال تعالى: ﴿لَكِنَّ الرّٰسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُوْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِمَا اُنْزِلَ اِلَيْكَ وَمَا اُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِيْنَ الصَّلٰوةَ وَالْمُؤْتُوْنَ الزَّكٰوةَ وَالْمُؤْمِنُوْنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ اُولٰٓئِكَ سَنُوْنِيْهِمْ اَجْرًا عَظِيْمًا﴾ [النساء: ١٦٢].

فالراسخون في العلم الثابتون في الدين لهم قدم راسخة في العلم النافع، سيؤتيهم الله أجراً عظيماً وهو الجنة.

(١) المستطرف من كل فن مستظرف، ٤٧/١.

(٢) م. ن، ٥٥/١ - ٥٦.

وقال الله تعالى أيضاً: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

فليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذي يفرقون به بين الحق والباطل، والمؤمنون بالله ورسوله أن ما أوحيناه إليك هو الحق من ربك الذي أنزله بعلمه وحفظه وحرسه أن يختلط به غيره بل هو كتاب عزيز (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) فيؤمنوا به أي يصدقوه وينقادوا له فتخبت له قلوبهم أي تخضع وتذل له قلوبهم. وإن الله لهادٍ الذين آمنوا إلى صراط مستقيم. في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فيرشدهم إلى الحق وأتباعه ويوقفهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفي الآخرة يهديهم الصراط المستقيم الموصل إلى درجات الجنات ويزحزهم عن العذاب الأليم^(١)، والله سبحانه وتعالى يرفع الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات، فإن تواضع لأمر الله تعالى رفع الله قدره ونشر ذكره، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ فَتَسَحَّوْا فِي الْمَجَالِسِ فَأَتَسَحَّوْا يَقْسَحُ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

فالله عز وجل يرفع بالكتاب أقواماً ويضع آخرين. قيل أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لقي عسفان وكان عمر استعمله على مكة فقال له عمر: من استخلفت على أهل الوادي؟ قال: استخلفت عليهم ابن أبنى رجل من مواليها، فقال عمر: استخلفت عليهم مولى؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنه قارئ لكتاب الله، عالم بالفرائض قاص. فقال عمر (رضي الله عنه): أما إن نبيكم (ﷺ) قد قال: إن الله يرفع بالكتاب قوماً ويضع به آخرين^(٢).

وقيل العلوم أربعة: الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنجوم للأزمان، والنحو للسان. وقال النبي (ﷺ): «خير الدنيا والآخرة مع العلم، وشرّ الدنيا والآخرة مع الجهل، وقال أيضاً: «يوزن مداد العلماء ودماء الشهداء يوم القيامة فلا يفضل أحدهما على الآخر، ولغزوة في طلب العلم أحب إلى الله من مائة غزوة، ولا يخرج أحد في طلب العلم إلا أملك موكل به، يبشر بالجنة، ومن مات وميراثه المحابر والأقلام دخل الجنة»^(٣).

وعن كرامة العلم والعلماء، قال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني:
وَلَمْ أَقْضِ حَقَّ الْعِلْمِ إِنْ كَانَ كَلِمَا بَدَأَ طَمَعُ صَيَّرْتُهُ لِي سُلْماً

(٢) م.س.، ٤/٣٢٦.

(١) تفسير ابن كثير، ٣/٢٢٤.

(٣) المستطرف، ١/٤٧.

وَلَمْ أَبْتَدِلْ فِي خِدْمَةِ الْعِلْمِ مُهَجَّتِي لِأَخْدَمَ مَنْ لَا قِيَّةَ لَكِنْ لِأَخْدَمَ
أَشْقَى بِهِ غِرْساً وَأَجْنِيهِ ذُلَّةً إِذَا قَابَتِيَاُ الْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمَا
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ وَلَوْ عَظَمُوهُ فِي الثُّفُوسِ تَعَظَّمَا
وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانُوا وَذُنَسُوا مُحْيَاهُ بِالْأَطْمَاعِ حَتَّى تَجْهَمَا

فالقاضي الجرجاني يقول: لو أن أهل العلم أكرموا أنفسهم وأعزوا هذا العلم وصانوه وأنزلوه حيث أنزله الله إذاً لخفضت لهم رقاب الجبابرة وانقاد لهم الناس، وكانوا لهم تبعاً، ولكنهم ألحقوا بأنفسهم الذل والمهانة، وبذلوا علمهم لأبناء الدنيا فهانوا وذلوا، إذ أنهم اتبعوا أهواءهم وسعوا وراء المكاسب الدنيوية، فأعظم بها مصيبة والله أعلم. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وأفضل العلم ما زاد قلب صاحبه هدىً، وخلقهُ حُسنًا، وسيرته عدلاً، قال أبو الفتح البُستي:

إِذَا لَمْ يَزِدْ عِلْمُ الْفَتَى قَلْبَهُ هُدًى وَسِيرَتُهُ عَدْلًا وَأَخْلَاقُهُ حُسْنًا
فَبَشِّرْهُ أَنْ اللَّأْلَاءَ أَوْلَاهُ فَثَنَّةً تُغْشِيهِ جِزْمَانًا وَتُوسِعُهُ حُرْنًا
وعن حب العلم والترغيب فيه والإقبال عليه، قال الشاعر:

الْعِلْمُ أَنْفَسُ شَيْءٍ أَنْتَ ذَاخِرُهُ مَنْ يَدْرُسُ الْعِلْمَ لَمْ تُدْرَسْ مَفَاخِرُهُ
أَقْبِلْ عَلَى الْعِلْمِ وَاسْتَقْبِلْ مَقَاصِدَهُ فَأَوَّلُ الْعِلْمِ إِقْبَالٌ وَآخِرُهُ^(١)
واعلم أن العلم زينة للمرء وأنه أجمل من ارتدائك فاخر الثياب. قال الشاعر صالح اللخمي:

تَعْلَمُ إِذَا مَا كُنْتَ لَسْتَ بِعَالِمٍ فَمَا الْعِلْمُ إِلَّا عِنْدَ أَهْلِ التَّعْلَمِ
تَعْلَمُ فَإِنَّ الْعِلْمَ أَزِينُ لِلْفَتَى مِنَ الْحُلَّةِ الْحَسَنَاءِ عِنْدَ التَّكَلُّمِ

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال رسول الله (ﷺ): «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، ومن يستر على معسر يستر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة،

ونزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»^(١).

وخير ما يخلف الرجل من بعده ثلاث، فعن أبي قتادة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «خير ما يخلف الرجل من بعده ثلاث: ولد صالح يدعو له، وصديقة تجري يبلغه أجرها، وعلم يعمل به من بعده»^(٢).

كما ويجري للمرء بعد موته أجر في سبع: فعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال رسول الله (ﷺ): «سبع يجري للعبد أجرهن وهو في قبره بعد موته: مَنْ عَلمَ علماً، أو كرى نهراً؛ أو حفر بئراً، أو غرس نخلاً، أو بنى مسجداً أو ورّث مصحفاً، أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته».

كما وتكتب الشهادة لطالب العلم إذا أدركه الموت وهو في حالة طلب العلم، روي عن أبي ذر وأبي هريرة (رضي الله عنهما) أن رسول الله (ﷺ) قال: «إذا جاء الموت لطالب العلم وهو على هذه الحالة مات وهو شهيد»^(٣).

ولننظر إلى درجة العلماء وزيادة شرفهم عند الله سبحانه وتعالى إذ ذكرهم الله بعد ملائكته الأبرار فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]. فاعترف العلماء مع الملائكة بأن الله واحد فعبدوه حق العبادة، ودعوا الناس إلى طاعته، وامتنال أوامره، واجتناب نواهيه، والإخلاص له في العمل، والإلتجاء إليه في الأمور، ونبذ ما سواه، والتوكل عليه وحده، فهو الفقاع لما يريد، والعلماء شهداء مع الله على صدق رسالة محمد (ﷺ). قال تعالى: ﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدُ عِلْمٍ لِكُتُبٍ﴾ [الرعد: ٤٣] فقد أقروا بالرسالة وتركوا الجاهالة، وسفهاوا العاصين ووبخوا الكافرين.

وخلاصة باب فضل العلم أن تعليمه هو الخير كله، وذلك بالذهاب إلى العلماء والبحث عن دقائقه وهو سبب خشية الله تعالى، والقرب منه جل وعلا وتمام الثقة به، وفيه الهداية والإلهام إلى الرشد، وتنوير القلب، ويدعو إلى الورع، ويبعد عن الفتن والكبرياء والخيلاء والإعجاب، وطالبه يسلك طريق الجنة وكذلك من ساعده وأمدّه وأعانه، كما وأن اجتماع قوم لدراسة القرآن سبب رحمة الله وفيضه وغوثة. إضافة إلى أن كل شيء يطلب المغفرة للعالم العامل بعلمه.

(٢) الترغيب والترهيب، ١/ ٩٤ - ٩٣.

(١) الترغيب والترهيب، ١/ ٩٣ - ٩٤.

(٣) م.ن.، ١/ ٩٦ - ٩٧.

والعلم عنوان العز، ومعين البرّ، وباب العلا، ونور الحقّ، والخلّ الوفي، والصاحب الصديق الموصل في الجنة إلى جوار الأنبياء والشهداء الجاري ثوابه مدى الحياة وبعد الممات، وهو خير المكتسب، وأعظم مطلب، يهدي إلى الحق، ويزيل الأذى، وطلبه أفضل من صلاة النافلة، وطالبه كأرض مخصبة وشجرة مثمرة، والجاهل كالصحراء لا فائدة منه. والعالم يشفع فيمن يحبّ له الخير يوم القيامة، والله وعد ألاّ يعذبه، وهو عدوّ الدّ للشيطان يهدم بنيانه ويسقّه رأيه، ويحارب أنصاره، ويحذر الناس من غوايته، ويطلب من الناس أن يتفتّحوا بميراث محمد (ﷺ) وهو إتباع الكتاب والسنة، وخير العلم ما قربك إلى ربك، وشزّه السفسطة والجدل والإلحاد والزندقة، وإن موت العالم خسارة على الأمة، وخلل في بنيانها، وكوكب غاب في سمائها. أسأل الله أن يعلمنا فنعمل ويوفقنا فنسعد إنه قدير^(١).

فانظر إلى آيات العلماء العاملين الذي أنار الله بصائرهم فأرشدوا الخلق إلى ما فيه منفعتهم والعالم بالشيء كالصبر، والجاهل به كالأعمى الذي ختم الله على قلبه فلم يستضيء بنور العلم، ولم يتذكر ما يضرّه وما ينفعه، ولا يتذكر إلاّ أصحاب العقول الراجحة والبصائر المستنيرة. وقد وصف الله تعالى العلماء أصحاب العقول الكاملة التي استخدموها في مرضاة ربهم بصفات هي عنوان الإخلاص وشمس القبول ودليل التوفيق، منها: الوفاء بالعهد وعدم نقض الميثاق بإطاعة أوامر الله واجتناب نواهيه وإرشاد الخلق إلى ذلك لأنهم قدوة حسنة. صلة جميع الأقارب وهوالة المؤمنين، ومودة الصالحين، وحجة العاملين وعدم هجرانهم. خوف الله تعالى وخشيته والخوف من حسابه، الصبر على المكروه، مقابلة السيئة بالحسنة.

فالرسول الكريم (ﷺ) حث المسلمين على التفقه في الدين، والفقه تفهم مسائل الدين، من صلاة وصوم ومعاملة ونكاح، وعلوم الشريعة، وثمرته الزهد في الدنيا، والورع، والإكثار من العمل الصالح والعبادة، والفقيه قدوة حسنة، ومثل كامل، وعنوان المكارم. قال تعالى: ﴿فَتَسْلُوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧] صدق الله العظيم.

أما الأدب فيقول ابن فارس: «الأدب أن تجمع الناس إلى طعامك، وهي المأدبة والمأدبة. والأدب الداعي. قال طرفة:

نحنُ في المَشْتَاةِ ندعو الجَفْلَى لا تَرَى الأدبَ فِينَا يَنْتَقِرُ
والمآدب: جمع المأدبة، قال الشاعر:

كأنّ قلوبَ الطيرِ في قعرِ عُشِّها نَوَى القِسْبِ مُلْقَى عِنْدَ بَغْضِ المآدِبِ
ومن هذا القياس الأدب أيضاً؛ لأنه مُجمع على استحسانه. فأما حديث عبد الله بن

(١) الترغيب والترهيب، ١٠٧/١ الحاشية.

مسعود: «إنَّ هذا القرآن مأدبة الله تعالى فتعلموا من مأدبته». فقال أبو عبيد: من قال مأدبة فإنه أراد الصنيع يصنعه الإنسان يدعو إليه الناس. يقال منه أدبْتُ على القوم أدبٌ أدباً، وذكر بيت طرفة، ثم ذكر بيت عدِّي:

رَجُلٌ وَبَلُّهُ يُجَابُ بِهِ دَفٌّ لِحُيُونٍ مَأْدُوبَةٍ وَزَمِيرُ
قال: ومن قال مأدبة فإن يذهب إلى الأدب يجعله مفعلة من ذلك. ويقال: إنَّ الإِدْبَ العَجَبُ، فإن كان كذا فلتجتمع الناس له^(١).

وقد اختلف معناه عند العرب على مرِّ العصور، ففي صدر الإسلام قصد به التهذيب والخُلُق. كقوله (عليه السلام): «أدبني ربِّي فأحسن تأديبي». وفي عصر بني أمية، التعليم، واشتق منه بهذا المعنى (المؤدِّبون) الذين كانوا يُلقنون أولاد الخلفاء الشعر والخطب وأخبار العرب وأنسابهم وأيامهم في الجاهلية والإسلام. وفي العصر العباسي، التهذيب والتعليم معاً، مثال ذلك: الأدب الصغير والأدب الكبير، لابن المقفع.

وفي القرن الرابع للهجرة ذكر إخوان الصفا أنَّه كل المعارف غير الدينية التي ترقى بالإنسان اجتماعياً وثقافياً.

وفي أدب الكاتب لابن قتيبة، سنن السلوك التي يجب أن تُراعى عند طبقة من الناس. وأصبح المعنى العام منذ القرن التاسع عشر، كل ما يتتجه العقل والشعور. وكان الأدب في الغرب يتضمن ما يأتي: مجموع الآثار النثرية والشعرية التي تتميز بسمو الأسلوب. وخلود الفكرة الخاصة بلغة ما أو بشعب معين.

التراث المخطوط أو المطبوع الخاص بشعب ما أو بلغة معينة. كل ما كتب في موضوع معين كأدب الفلك أو الزراعة، كل ما أنتجه البشر مخطوطاً كان أو مطبوعاً.

أما الأدبي فهي صفة تُطلق على مجهودات في التأليف أو على مطبوعات دورية يُراد بها أن تعالج موضوعات من صميم الأدب وتُكتب بأسلوب يرتقي إلى ما هو أعلى من مجرد الإخبار أو السرد^(٢).

والأديب كاتبٌ متمكن من لغة التعبير وقواعدها، وأسرار البلاغة فيها، وغنيٌّ بالأفكار والأحاسيس والأخيلة، قادرٌ على الإبانة، في دقة وأناقة عن خواطره. وتفرض على الأديب الحق سعة في ثقافته العامة، وإطلاع على الآداب العالمية، ووقوف على التيارات الفكرية، والأدبية، والفنية في العالم، ومسايرة للعصر، وإحساس بالقضايا الإنسانية المحركة

(٢) معجم المصطلحات العربية، ١٦ - ٢٢.

(١) مقاييس اللغة، ٧٤/١ - ٧٥.

للمجتمعات، ومشاركة في تطوير المجتمع وترقيته. وحتى يستحق الكاتب صفة أديب يتحتم أن تكون لآثاره ميزات خاصة به، وطابع لغوي ومعنوي يُفرده عن بقية الكتاب ويُعرف به، وأن تتراءى شخصيته وموقفه وخصائصه الفكرية والأدبية من خلال ما يكتب من مقالات أو مصنفات. كما أن الشمول والعمق والفرادة التي يتصف بها الأديب تجعله متميزاً، في معظم الأحيان، عن الصحافي، والروائي، والمؤلف المسرحي، والباحث، إلا إذا كان هؤلاء يتصفون إلى جانب اختصاصهم، بما يتفرد به الأديب من مؤهلات فكرية وتعبيرية، فيتساوون به ضمن مواهبهم المُميزة^(١).

وخطب الله سبحانه نبيه محمد (ﷺ) قائلاً: ﴿وَأَنَّكَ لَآتَىٰ خُلُقِي عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. ذكر لنا أن سعيد بن هشام سأل عائشة عن خلق رسول الله (ﷺ) فقالت: أَلَسْتُ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قال: بلى. قالت: فَإِنْ خَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) كَانَ الْقُرْآنُ. ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن أمراً ونهياً وسجية له وخلقاً تطبعه وترك طبعه الجبلي فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم من الحياة والكرم والشجاعة والصفح والحلم، وكل خلق جميل، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ﷺ): «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتُمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(٢).

ويحتاج العقل إلى مادة الأدب كما تحتاج الأبدان إلى قوتها من الطعام، قال علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه): الأدب كنز عند الحاجة، عون على المروءة، صاحب في المجلس، أنيس في الوحدة، تعمر به القلوب الواهية، وتحيا به الألباب الميتة، وينال به الطالبون ما حاولوا.

وروي أن رجلاً تكلم بين يدي المأمون فأحسن، فقال: أبن من أنت؟ قال: أبن الأدب يا أمير المؤمنين، قال: نعم النسب انتسبت إليه. ولهذا قيل: المرء من حيث يثبت لا من حيث ينبت، ومن حيث يوجد لا من حيث يُولد. قال الشاعر:

كُنْ أَبْنُ مَنْ شِئْتَ وَاکْتَسَبْ أَدَباً يُغْنِيكَ مَحْمُودُهُ عَنِ النَّسَبِ
إِنَّ الْفَتَى مَنْ يَقُولُ هَذَا لَيْسَ الْفَتَى مَنْ يَقُولُ كَانَ أَبِي
وقال بعض الحكماء: من كثر أدبه كثر شرفه، وإن كان وضعياً، وبعد صيته، وإن كان خاملاً وساد، وإن كان غريباً وكثرت حوائج الناس إليه، وإن كان فقيراً. قال بعض الشعراء:
لِكُلِّ شَيْءٍ زِينَةٌ فِي الْوَرَى وَزِينَةُ الْمَرْءِ تَمَامُ الْأَدَبِ

(١) المعجم الأدبي، ١٠ - ١١.

(٢) تفسير ابن كثير، ٤/٤٠٣.

قَدْ يَشْرَفُ الْمَرْءُ بِأَدَابِهِ فِينَا وَإِنْ كَانَ وَضِيعَ الْأَدَبِ
وقال بعض الأعاجم مفتخراً:

مَالِي عَقْلِي وَهَمَّتِي حَسْبِي مَا أَنَا مَوْلَى وَمَا أَنَا عَرَبِي
إِذَا أَنْتَمِي مُنْتَمِي إِلَى أَحَدٍ فَلِأَنْتِي مُنْتَمِي إِلَى أَدَبِي
وقال عبد الملك بن صالح:

فِي النَّاسِ قَوْمٌ أَضَاعُوا مَجْدَ أَوْلَاهُمْ مَا فِي الْمَكَارِمِ وَالتَّقْوَى لَهُمْ أَدَبٌ
سُوءُ الثَّأْدِبِ أَرْدَاهُمْ وَأَرْدَلَهُمْ وَقَدْ يَزِينُ صَحِيحُ الْمُنْصِبِ الْأَدَبُ
وقيل أربعة تسود العبد: الأدب، والعلم، والصدق، والأمانة.

وقال بعض الحكماء خمسة لا تتم إلا بخمسة: لا يتم الحسب إلا بالأدب. ولا يتم
الجمال إلا بالحلاوة، ولا يتم الغنى إلا بالجود، ولا يتم البطش إلا بالجرأة. ولا يتم الجهاد
إلا بالتوفيق. والله تعالى أعلم^(١).

ولا يخفى ما في حُسْنِ الخلق من الفضل، فقد روي عن أبي الدرداء (رضي الله عنه)
عن النبي (ﷺ) أنه قال: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن».
وفي حديث آخر: «إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً،
وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة مساويكم أخلاقاً»^(٢).

ومن محاسن الأخلاق ما قيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت حسن الخلق؟ فقال: من
قيس بن عاصم، بينما هو ذات يوم جالس في داره إذ جاءته خادمة له بسفود عليه شواء حار،
فنزعت السفود من اللحم وألقته خلف ظهرها فوقع على ابن له، فقتله لوقته، فدهشت
الجارية، فقال: لا روع عليك، أنت حرة لوجه الله تعالى.

وكان ابن عمر (رضي الله عنه) إذا رأى أحداً من عبيده يُحسن صلاته يعتقه، فعرفوا
ذلك من خلقه، فكانوا يُحسنون الصلاة مراعاة له، فكان يعتقهم. ف قيل له في ذلك، فقال:
من خدعنا في الله انخدعنا له.

وروي أن علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) دعا غلاماً له، فلم يجبه. فدعاه ثانياً
وثالثاً فرآه مضطجعاً، فقال: أما تسمع يا غلام؟ قال: نعم. قال: فما عملك على ترك
جوابي؟ قال: أمنت عقوبتك، فتكاسلت، فقال: إذهب فأنت حر لوجه الله تعالى.

(٢) مختصر منهاج القاصدين، ٨٤.

(١) المستطرف، ٥٦/١ - ٥٨.

وروي عن القاضي يحيى بن أكثم قال: كنت نائماً ذات ليلة عند المأمون، فعطش، فامتنع أن يصيح بغلام يسقيه، وأنا نائم، فینغص علي نومي، فرأيته وقد قام يمشي على أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء وبينه وبين المكان الذي فيه الكيزان نحو من ثلاثمائة خطوة، فأخذ منها كوزاً، فشرب، ثم رجع يمشي على أطراف أصابعه حتى قرب من الفراش الذي أنا عليه، فخطا خطوات خائف لثلاثين بهني حتى صار إلى فراشه. ثم رأته آخر الليل قام يبول، وكان يقوم في أول الليل وآخره، فقعد طويلاً يحاول أن أتحرک فيصيح بالغلام، فلما تحركت وثب قائماً وصاح يا غلام، تأهب للصلاة. ثم جاءني، فقال لي: كيف أصبحت يا أبا محمد، وكيف كان بيتك؟ قلت: خير بيت جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين، قال: لقد استيقظت للصلاة، فكرهت أن أصيح بالغلام، فأزعجك. فقلت: يا أمير المؤمنين قد خصك الله تعالى بأخلاق الأنبياء، وأحب لك سيرتهم، فهناك الله تعالى بهذه النعمة، وأتمها عليك^(١).

(١) المستطرف، ١/٢٦١ - ٢٦٢.

فضل برّ الوالدين

قال ابن فارس: «صدق فلان وبرّ، وبرّت يمينه: صدقت، وأبرّها أمضاها على الصدق، وتقول: برّ الله حجك وأبرّه، وحجة مبرورة، أي قبلت قبول العمل الصادق. ويقال: هو ببرّ ذا قرابته، وأصله الصدق في المحبة، يقال: رجل بارّ وبرّ. وبررت والدي وبررت في يميني، وأبرّ الرجل وَلَدَ أولاداً أبراراً»^(١).

وقال أيضاً: «عقّ إذا شقّ. والعقوق: قطيعة الوالدين وكل ذي رحمٍ محزم. يقال: عقّ أباه فهو يعقّه عقّاً وعقوقاً. قال زهير:

فأصبحتما فيها على خير موطنٍ بَعِيدَيْنِ فيها مِنْ عَقُوقٍ وَمَأْتِمٍ
ويقولون: العقوق تُكُلُّ من لم يثكل؛ أي إن من عقّه ولده فكأنه ثكلهم وإن كانوا أحياء. و«هو أعق من ضبّ»؛ لأن الضبّ تقتل ولدها»^(٢).

أمرنا الله عز وجل أن نعبده وألا نشرك به شيئاً، وأن نطيع والدينا ونتمثل لأوامرهما، ولا نعاملهما معاملة قاسية، وألا نضجر منهما، فقد وصى الله عز وجل وقرن بعبادته برّ الوالدين، فلا تُسمعهما قولاً سيئاً حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيء، وألا يصدر إليهما أي فعل قبيح، ولا تنفض يدنا عليهما، بل علينا أن نلين لهما ونخاطبهما بالقول الحسن بتأدب ووقار وتعظيم وتواضع، وأن نرحمهما في كبرهما وعند وفاتهما، كما قاما بتربيتنا التربية الصالحة.

قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا أَوْ لَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٣٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ٣٤﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٤].

وفي الحديث الشريف عن مالك بن عمرو القشيري سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «من أعتق رقبة مسلمة فهي فداؤه من النار فإن كل عظم من عظامه محررة بعظم من عظامه،

(٢) م.ن.، ٥٠٤/٤.

(١) مقاييس اللغة، ١/١٧٨.

ومن أدرك أحد والديه ثم لم يغفر له فأبعده الله عز وجل ومن ضمَّ يتيماً بين أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله وجبت له الجنة». وقال: «إن الله يوصيكم بآبائكم إن الله يوصيكم بأمهاتكم إن الله يوصيكم بأمهاتكم إن الله يوصيكم بالأنسب فالأقرب»^(١).

وقال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

وفي هذه الآية أيضاً يأمر الله تبارك وتعالى بعبادته وحده لا شريك له فإنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الآنات والحالات فهو المستحق منهم أن يوحده ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته كما قال النبي (ﷺ) لمعاذ بن جبل (رضي الله عنه): «أتدري ما حق الله على العباد؟ قال الله ورسوله أعلم. قال: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ثم أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ أن لا يعذبهم». ثم أوصى الله تعالى بالإحسان إلى الوالدين فإن الله سبحانه جعلهما سبباً لخروجك من العدم إلى الوجود، ثم عطف على الإحسان إليهما الإحسان إلى القربات من الرجال والنساء، واليتامى والجار والمساكين والرقيق. وعن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه): لو علم الله شيئاً في العقوق أدنى من أفٍ لحرّمه، فليعمل العاق ما شاء أن يعمل، فلن يدخل الجنة، وليعمل البار ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار، وقيل: إن رضا الرّب في رضا الوالدين وسخط الرب في سخط الوالدين.

وقال رسول الله (ﷺ): «إياكم وعقوق الوالدين فإن ريح الجنة يوجد من مسيرة خمسمائة عام، ولا يجد ريحها عاق».

وقال رجل لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «إن لي أمّاً بلغ منها الكبر إنها لا تقضي حاجتها إلّا وظهري لها مطيّة، فهل أديت حقها؟ قال: لا. لأنها كانت تصنع بك ذلك وهي تتمنى بقاءك، وأنت تصنعه وتتمنى فراقها».

وقيل لعلي بن الحسين (رضي الله عنه): «إنك من أبرّ الناس ولا تأكل مع أمك في صحفة، فقال: أخاف أن تسبق يدي يدها ما تسبق عيناها إليه، فأكون قد عققته»^(٢).

فالوالدين هما سبب وجود الإنسان، ولهما على الأبناء غاية الإحسان، فالوالد بالانفاق

(٢) المستطرف، ٢٠/٢.

(١) تفسير ابن كثير، ٣٥/٣.

والوالدة بالإشفاق. أما إن حرصا عليك أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين فأياك وإياهما فلا تطعهما في ذلك فإن مرجعك إلى خالقك يوم القيامة فيجزي الله المرء بإحسانه إليهما وصبره على دينه ويحشره مع الصالحين.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِنَّ مَرْجِعَكُمْ فَأْتِيكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾﴾ [العنكبوت: ٨ - ٩].

وعن عبد الله بن عمر بن العاص (رضي الله عنهما) قال: «أقبل رجل إلى نبي الله (ﷺ) فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله تعالى. قال: «فهل لك من والديك أحدٌ حي؟ قال: نعم. بل كلاهما. قال: فتبتغي الأجر من الله تعالى؟ قال: نعم. قال: فأرجع إلى والديك، فأحسن صحبتهما»^(١).

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصْلَتُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ تَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَحْسَنِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١١﴾﴾ [الأحقاف: ١٥ - ١٦].

لقد عانت الأم متاعب الحمل من وحم وغثيان وثقل وكرب، وعند الوضع، وفي الرضاعة، وفي التربية، حتى قوي وشب وارتجل، ثم حين يبلغ الأربعين من عمره نجد أن عقله تناهى وكمل فهمه وحلمه، وابتعد عن ارتكاب الذنوب. قال الشاعر:

ضبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه فلما علاه قال للباطل أبعد
وفضل البر بالوالدين عظيم فلا يزيد في العمر إلا البر كما أخبرنا رسول الله (ﷺ) والبر المقصود هنا هو حسن الخلق والسخاء وإطاعة الوالدين. يقول ثوبان (رضي الله عنه) قال رسول الله (ﷺ): «إن الرجل ليحرّم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يردّ القدر إلا الدّعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر»^(٢).

انظر إلى الثلاثة نفر ممّن كانوا قبلنا إذ فرّج الله عنهم كربتهم بعمل صالح قاموا به، فعن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: «سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: انطلق ثلاثة نفر ممّن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل، فسدت عليهم

(٢) الرغبة والترهيب، ٣/٣١٧.

(١) رياض الصالحين، ١٤٠.

الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم: قال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنأى بي طلب شجر يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً. فلبثت والقدح على يدي انتظر استيقاظهما حتى برق الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج. وقال الآخر: اللهم كانت لي ابنة عم، وكانت أحب الناس إلي فأردتها عن نفسها فامتنعت مني حتى ألفت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار، على أن تخلى بيني وبين نفسها ففعلت حتى إذا قدرت عليها قالت: لا يحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه، فنحرت من الوقوع عليها، فانصرفت عنها، وهي أحب الناس إلي، وتركت الذهب الذي أعطيتها. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها. قال النبي (ﷺ): وقال الثالث: اللهم إني استأجرت أجراً وأعطيتهم أجرتهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فتمرت أجره حتى كثرت فيه الأموال فجاءني بعد حين، فقال لي: يا عبد الله أذ لي أجري؟ فقلت: كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق، فقال: يا عبد الله لا تستهزيء بي؟ فقلت إني لا استهزي بك، فأخذه كله فساقه فلم يترك منه شيئاً: اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فاخرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون^(١)، ومن عاق والديه حُرمت عليه رائحة الجنة، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي (ﷺ) قال: «أربع حق على الله أن لا يدخلهم الجنة، ولا يذيقهم نعيمها: مدمن الخمر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم بغير حق، والعاق لوالديه»^(٢).

وأن عاق والديه يعجل له الله العذاب في الحياة قبل الممات. فعن أبي بكر (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين، فإن الله يُعجله لصاحبه في الحياة قبل الممات.

وقيل:

عَلَيْكَ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ كِلَيْهِمَا وَبِرِّ ذَوِي الْقُرْبَى وَبِرِّ الْأَبَاعِدِ
وَلَا تَصْحَبَنَّ إِلَّا تَقِيًّا مُهَذَّبًا عَفِيفًا ذَكِيًّا مَنْجَزًا لِلْمَوَاعِدِ
وَبِاللَّهِ فَاسْتَعَصِمْ وَلَا تَرْجُ غَيْرَهُ وَلَا تَكُ فِي النِّعَمَاءِ عَنْهُ بِجَاهِدِ

(٢) م.ن.، ٣/٣٢٨.

(١) الترغيب والترهيب، ١/٥١ - ٥٢.

وغض عن المكروه طَرْفَكَ وَاجْتَنِبْ أَذَى الْجَارِ واستمسك بحبل المحامد^(١)
 فعقوق الوالدين من أكبر الكبائر المهلك الموصول إلى الجحيم، فيمنع صاحبه من
 التعطر بريح الجنة وشم شذاها، ولا يقبل للعاق أي عمل يقوم به، والعاق مخالف ما نهى
 عنه الله ورسوله، والعاق ينال جزاءه في الدنيا قبل مماته من تحقير وفقر مدقع، وأمراض
 وسخط أهله وإبعاده، كما لعن الله ورسوله العاق، كما أن العقوق يجلب لصاحبه سوء
 الخاتمة ويطمس على بصيرته، ويتزع الإيمان من قلبه، فلا يمكن أن ينطق بالشهادتين. فقد
 روى عن عبد الله بن أبي أوفى (رضي الله عنه) قال: كنا عند النبي (ﷺ) فأتاه آت، فقال:
 شاب وجود بنفسه، فقيل له: قل لا إله إلا الله، فلم يستطع، فقال: كان يصلي؟ فقال:
 نعم. فنهض رسول الله (ﷺ)، ونهضنا معه، فدخل على الشاب، فقال له: قل لا إله إلا
 الله، فقال: لا أستطيع. قال: لِمَ؟ قال: كان يعق والدته. فقال النبي (ﷺ): أحيّة والدته؟
 قالوا: نعم. قال: أَدْعُوهَا، فدعوها فجاءت. فقال: هذا ابنك؟ فقالت: نعم. فقال لها:
 أَرَأَيْتَ لو أَجَبْتَ نار ضخمة، فقيل لك: إن شفعت له خلينا عنه، وإلا أحرقتاه بهذه النار،
 أكنّت تشفعين له؟ قالت: يا رسول الله إذا أشفع له. قال: فأشهدني الله وأشهديني قد رضيت
 عنه. قالت: اللهم إني أشهدك، وأشهد رسولك أنني قد رضيت عن ابني، فقال له رسول الله
 (ﷺ): يا غلام قل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،
 فقالها، فقال رسول الله (ﷺ): الحمد لله الذي أنقذه بي من النار.

قال تعالى: ﴿قُلْ تَكَلَّوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ إِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهِنَّ وَرَاقَاتٌ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

ونهى رسول الله (ﷺ) عن العقوق وقطيعة الرحم، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص
 (رضي الله عنهما) عن النبي (ﷺ) قال: «الكبائر، الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل
 النفس، واليمين الغموس»^(٢).

(١) م.ن.، ٣/٣٣١.
 (٢) رياض الصالحين، ١٤٥.

فضل الذكر وأهميته

الذكر كما يقول ابن فارس: «ذكرت الشيء، خلاف نسيته، ثم حمل عليه الذكر باللسان. ويقولون: اجعله منك على ذكر، بضم الدال، أي لا تنسه، والذكر: العلاء والشرف، ويقال: رجل ذكّر وذكيّر، أي جيد الذكر شهم»^(١).

الذكر طيب وله فضل عظيم، إذ هو من أجل المقاصد، وأفضل الأعمال وأنفعها. فهو قد أمر به الله سبحانه وتعالى في مواطن كثيرة من الكتاب المطهر، ورغب فيه، وحث عليه، ومدح أهله، وأثنى عليهم خير الثناء وأطيبه.

فذكر الله عز وجل في السر والعلن، يزيل الهم والغم، ويجلب للذاكر الخير العميم، وليكن لسانك أخي المسلم رطباً بذكر الله، ففيه الاستعانة على كل أمر، وفيه سعادة إذ هو غرس الجنة، كما أنه يُبعدك عن الغيبة والنميمة وعن كل مُفسد، وتستوجب رضا الله ومحبه ورضا رسوله الكريم والفوز بجنة الرضوان. فاذكر الله عز وجل في جميع أحوالك وأوقاتك. فأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ القلب اللسان، وكان من الأذكار النبوية، وشهد الذاكر معانيه ومقاصده.

أمرنا الباري جل وعلا بكثرة الذكر، وذلك لشدة حاجتنا إلى الله جل شأنه، وافتقارنا إليه، وألا نستغني عنه طرفة عين، وألا نستكين عن ذكر الله ولو لحظة؛ لأنها علينا لا لنا. قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

فاذكروا الله في حال بيعكم وشرائكم وأخذكم وإعطائكم، اذكروا الله ذكراً كثيراً ولا تشغلكم الدنيا عن الذي ينفعكم في الدار الآخرة، ولهذا جاء في الحديث: «من دخل سوقاً

(١) مقاييس اللغة، ٢/ ٢٥٨ - ٢٥٩.

من الأسواق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة وقال مجاهد: «لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً»^(١).

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْوَانِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ يُرَتِّبُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

وقد أمرنا الله عز وجل بالإكثار من ذكره قياماً وقعوداً وعلى الجنوب، ليلاً نهاراً، براً وبحراً، في السفر والحضر، في الغنى والفقر، في الصحة والسقم، في السر والعلن، وفي كل حال، وجعل في ذلك أجراً عظيماً. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسِيحُوا بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۖ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۖ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ۖ﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٤].

وعن أبي الدرداء (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير من انفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى قال: ذكر الله، قال معاذ بن جبل: «ما شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله»^(٢). وعن أبي سعيد الحمصي قال: سمعت أبا هريرة (رضي الله عنه) يقول دعاء سمعه من رسول الله (ﷺ) لا أدعه: «اللهم اجعلني أعظم شكرك وأتبع نصيحتك وأكثر ذكرك وأحفظ وصيتك».

وذكر الله تعالى عند أداء العبادات، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِّن قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾ [البقرة: ١٩٨].

فالله ينبه المؤمنين إلى ما أنعم به عليهم من الهداية والبيان والإرشاد إلى مشاعر الحج على ما عليه من الهداية إبراهيم الخليل (عليه السلام)، وقد كنتم قبل هذا الهدى (القرآن أو الرسول) ضالين. وكثيراً ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات، فإن الرسول الكريم (ﷺ) كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثاً، وأنه ندب إلى التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثاً وثلاثين، وقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ شَأْنَكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۚ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ ۚ وَمِنْهُمْ مَّن

(١) تفسير ابن كثير، ٤/٣٦٧.

(٢) الترغيب والترهيب، ٢/٣٩٥.

يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَدْ آتَيْنَاكَ الْبَقَرَةَ: ٢٠٠ - [٢٠١].

فالله عز وجل يأمر بذكره والإكثار منه بعد قضاء المناسك وفراغها، وكذلك يأمر في الأيام المعدودات (أيام التشريق) والأيام المعلومات (أيام العشر)، ففي الأيام المعدودات تكبر الله بعد الصلوات المكتوبة (الله أكبر. الله أكبر). قال رسول الله (ﷺ): «يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام، وهي أيام أكل وشرب وذكر الله».

قال تعالى: ﴿وَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَآتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (١).

وتشتمل الصلاة أيضاً على ذكر الله تعالى وهو المطلوب الأكبر ولهذا قال تعالى: «ولذكر الله أكبر» أي أعظم. قال تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فذكر الله لعباده أكبر إذا ذكروه من ذكرهم إياه. والصلاة فيها ثلاث خصال، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة: الإخلاص والخشية وذكر الله، فالإخلاص يأمر بالمعروف والخشية تنهاه عن المنكر وذكر الله القرآن يأمره وينهاه.

وكذلك نذكر الله تعالى عند لقاء العدو، فالله عز وجل يأمرنا بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم فلا نفر ولا نجبن، وأن نذكر الله في تلك الحال ولا ننساه بل نستعين به ونتوكل عليه ونسأله النصر، وأن نطيع الله ورسوله.

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاغْلِبُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]. والمؤمن إذا ذكر الله وجل قلبه أي خاف منه ففعل أوامره، وترك زواجه، وأن المؤمن كلما أراد أن يظلم أو يهمل بمعصيته فيقال له: اتق الله فيجل قلبه.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ ذُنُوبَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وقال أيضاً: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) [الأنفال: ٢ - ٣].

وهناك من قست قلوبهم وابتعدوا عن ذكر الله فويل لهم لبعدهم عن الحق، فهؤلاء لا تلين قلوبهم عند ذكر الله ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم فهم في ضلال مبين. قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْفُتَيَّةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي صَلَائِهِمْ مُبِينٌ﴾ [الزمر: ٢٢].

وهناك من يعمى أو يتعمى ويتغافل ويعرض عن ذكر الله، وعن هداه، نقيض له من الشياطين من يضله ويهديه إلى صراط الجحيم، فإذا وافى الله عز وجل يوم القيامة يتبرأ من الشيطان الذي وكل به. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

ومن الناس من تغافل وتعاصى وصم أذنيه عن قبول الحق والهدى، وكانوا لا يعقلون عن الله أمره ونهييه. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١].

ومن الناس من يخالف أمر الله وما أنزل على رسوله (ﷺ)، أعرض عنه وتناساه. وأخذ من غيره هداه، فلا طمأنينة له في الدنيا. ولا إنشراح ل صدره، بل صدره ضيق حرج ل ضلاله وإن تنعم ظاهره ولبس ما شاء وأكل ما شاء وسكن حيث شاء فإن قلبه ما لم يعمره الإيمان ويخلص لله، فهو في حيرة وقلق فلا يزال في ريبة يتردد فهذا هو الشقاء في المعيشة. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [١٢٤] قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا [١٢٥] قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى [١٢٦] [طه: ١٢٤ - ١٢٦].

وانظر إلى من استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله، وهؤلاء هم الخاسرون. قال تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

وكل من يُعرض عن ذكر الله يستحق العذاب الشاق الشديد المؤلم الذي لا راحة معه. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧].

وقيل:

فنسيان ذكر الله موت قلوبهم وأجسامهم قبل القبور قبور وأرواحهم في وحشة من جسومهم وليس لهم حتى النشور نشور

وقيل:

فَنَسِيَانُ ذَكَرَ اللهُ مَوْتَ قُلُوبِهِمْ وَأَجْسَامِهِمْ فَهِيَ الْقُبُورُ الدُّوَارِسُ
وَأَرْوَاحُهُمْ فِي وَحْشَةٍ مِنْ حَبِيبِهِمْ وَلَكِنَّهَا عِنْدَ الْخَبِيثِ أَوَانِسُ^(١)
وَلَذَكَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَوَائِدُ جَمَّةٍ، مِنْهَا:

١ - ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى وَقَايَةَ مِنْ وَسَاوِسِ الْخَنَاسِ، وَحَصَنَ مَتْنٍ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْمَعَاصِي. فَذَكَرَ
اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَطْرُدُ الشَّيْطَانَ وَيَقْمَعُهُ وَيَكْسِرُهُ، فَلَا حَرْزَ لِلْمُسْلِمِ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا ذَكَرَ
اللهُ، فَإِنْ سَهَا أَوْ غَفَلَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَتَرَصَّدُهُ لِيُثْبِتَ عَلَيْهِ وَيَفْتَرِسَهُ. وَإِذَا ذَكَرَ الْمُسْلِمُ اللهُ
عَزَّ وَجَلَّ انْخَسَ عَدُوُّ اللهِ وَتَصَاغَرَ وَانْقَمَعَ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ الَّذِي أَنْقَضْتَ إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾
[الأعراف: ٢٠١]. وَعَنِ الْحَارِثِ الْأَشْعَرِيِّ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (ﷺ)
قَالَ: «إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَى يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ، وَيَأْمُرَ بَنِي
إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، فَكَأَنَّهُ أَبْطَأَ بِهِنَّ، فَأَتَاهُ عِيسَى فَقَالَ: إِنَّ اللهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ
كَلِمَاتٍ أَنْ تَعْمَلَ بِهِنَّ، وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، فِيمَا أَنْ تُخَبِّرَهُمْ، وَإِمَّا أَنْ
أُخْبِرَهُمْ، فَقَالَ: يَا أَخِي لَا تَفْعَلْ فَإِنِّي أَخَافُ إِنْ سَبَقْتَنِي بِهِنَّ أَنْ يُخَسِفَ بِي، أَوْ
أُعَذِّبَ. قَالَ: فَجَمَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَيْتَ الْمَقْدَسِ حَتَّى امْتَلَأَ الْمَسْجِدَ وَقَعَدُوا عَلَى
الشَّرَفَاتِ ثُمَّ خَطَبَهُمْ فَقَالَ: إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ، وَأَمَرَ بَنِي
إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، أُولَئِكَ: لَا تَشْرِكُوا باللهُ شَيْئاً، فَإِنْ مِثْلُ مَنْ أَشْرَكَ باللهُ كَمِثْلِ
رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرَقٍ، ثُمَّ أَسْكَنَهُ دَارًا. فَقَالَ: اْعْمَلْ وَارْفَعْ
إِلَيَّ فَجَعَلَ يَعْمَلُ وَيَرْفَعُ إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيْكُم يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ، فَإِنَّ اللهَ
خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ فَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَإِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَلَا تَلْتَفِتُوا، فَإِنَّ اللهَ يَقْبَلُ
بُوجْهَهُ إِلَى وَجْهِ عَبْدِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، وَأَمَرَكَ بِالصِّيَامِ، وَمِثْلُ ذَلِكَ كَمِثْلِ رَجُلٍ فِي عَصَابَةٍ
مَعَهُ صُرَّةٌ مَسْكٌ. كُلُّهُمْ يَحِبُّ أَنْ يَجِدَ رِيحَهَا، وَإِنَّ الصِّيَامَ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ
الْمَسْكِ، وَأَمَرَكَ بِالصَّدَقَةِ، وَمِثْلُ ذَلِكَ كَمِثْلِ رَجُلٍ أَسْرَهُ الْعَدُوَّ فَأَوْثَقُوا يَدَهُ إِلَى عُنُقِهِ،
وَقَرَّبُوهُ لِيَضْرِبُوهُ عُنُقَهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: هَلْ لَكُمْ أَنْ أَفْدِيَ نَفْسِي مِنْكُمْ، وَجَعَلَ يُعْطِي
الْقَلِيلَ وَالْكَثِيرَ حَتَّى فَدَى نَفْسَهُ، وَأَمَرَكَ بِذِكْرِ اللهِ كَثِيرًا، وَمِثْلُ ذَلِكَ كَمِثْلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ
الْعَدُوُّ سَرَاعًا فِي أَثَرِهِ حَتَّى أَتَى حَصْنًا حَصِينًا فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ فِيهِ، وَكَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يَنْجُو
مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللهِ»^(٢).

٢ - ذَكَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. . يَنْبِرُ الْقَلْبُ، وَيُحْيِيهِ وَيَزِيلُ رَانَهُ، وَيَهْدِيهِ إِلَى الْحَقِّ، وَيَجْعَلُ

(٢) الترغيب والترهيب، ٢/٣٩٦ - ٣٩٧.

(١) فقه الأدعية والأذكار ١/٥٤.

الذاكر حيًا، أما من لا يذكر الله فقلبه خرب ومظلم وهو ميت، فذكر الله تعالى كالماء للسمك تتنفس وتحيا وتحرك وتدب فيها الحياة، وبدون الماء فلا حياة للسمك.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. وقال (ﷺ): «مثل الذي يذكر ربه، والذي لا يذكر الله، مثل الحي والميت»^(١).

٣ - يذكر الله اسم الذاكر في الجو الهادي، أمام العباد الأصفياء المخلصين، وكان الله تعالى يورث الذاكر ذكر الله له. قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وعن معاذ بن جبل (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): قال الله جل ذكره: لا يذكرني عبد في نفسه إلا ذكرته في ملائكتي. ولا يذكرني في ملائكتي إلا ذكرته في الملائكة الأعلى»^(٢).

٤ - إن العكوف على ذكر الله تعالى أفضل من كثرة الإنفاق، ومن الدفاع عن الوطن بلا إخلاص، وإنه يحط الخطايا ويذهبها، وينجي الذاكر من عذاب يوم القيامة.

عن أبي الدرداء (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتها، وخير من إنفاق الذهب والورق، وخير من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم. ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى. قال: ذكر الله. قال معاذ بن جبل: ما شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله».

٥ - أن يشغل الذاكر قلبه دائماً بربه، فليكن لسانك رطباً بذكر الله تعالى، فحركة اللسان أخف الحركات وأيسرها من بقية الجوارح، ولو تحرك عضو آخر في اليوم والليلة بقدر حركة اللسان لكان ذلك شاقاً، بل مستحيلاً، ومع هذا فالأجور المترتبة عليه عظيمة والثواب جزيل وجميل.

فعن مالك بن يخامر أن معاذ بن جبل (رضي الله عنه) قال لهم: إن آخر كلام فارقت عليه رسول الله (ﷺ) أن قلت: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: أن تموت ولسانك رطباً من ذكر الله»^(٣).

٦ - إن الذكر غراس الجنة، فالجنة قيعان، طيبة التربة، عذبة الماء، وغراسها ذكر الله عز وجل.

عن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «لقيت إبراهيم (عليه

(٢) م.س.، ٣٩٤/٢.

(١) م.س.، ٣٩٨/٢.

(٣) م.ن.، ٣٩٥/٢.

السلام) ليلة أُسري بي، فقال يا محمد: أقرىء أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وزاد ولا حول ولا قوة إلا بالله».

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي (ﷺ) مر به وهو يغرس غراساً، فقال: يا أبا هريرة، ما الذي تغرس؟ قلت: غراساً. قال: ألا أدلك على غراس خير من هذا؟ سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. تُغرس لك بكل واحدة شجرة في الجنة^(١).

٧ - إن الذكر نورٌ للذاكر في الدنيا، وفي قبره، وفي معاده، فالمؤمن من استنار بالإيمان بالله ومحبه ومعرفته وذكره.

قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ مِنَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي يَوْمَ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

٨ - من ذكر الله تعالى وجبت صلاته وملائكته عليه، فمن صلى الله عليه وملائكته فقد فاز. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٣].

٩ - إن الذكر أمانة من النفاق، فالمنافق قليل لذكر الله تعالى، وهو غافل عن ذكره، فالذاكر لله لا يمتلىء قلبه بالنفاق وإنما ذلك للغافل.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون: ٩].

وقال: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

١٠ - شمول الذاكر برحمة الله وإعانتته، وطلب حسن الظن به سبحانه مع العمل الصالح المتقن، فالذاكر قريب من الله عز وجل والله معه قريباً وولاية ومحبة ونصرة وإعانة وتوفيقاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨].

(١) الترغيب والترهيب، ٢/ ٤٢٤ - ٤٢٥.

وقال أيضاً: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤].

١١- إن الذاكرين أهل الإحسان، أصحاب السعادة، جماع الخير، فعال البر، ومجالس الذكر أذكى المجالس وأشرفها، وأنفعها وأرفعها، وهي عالية القدر عند الله عز وجل، وهي حياة القلوب ونماء للإيمان وصلاح وزكاء للعبد.

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) وأبي سعيد أنهما شهدا على رسول الله (ﷺ) أنه قال: «لا يقعد قوم يذكرون الله إلا صفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده»^(١).

وعن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) قال: خرج معاوية (رضي الله عنه) على حلقة في المسجد، فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله قال: الله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: ما أجلسنا إلا ذاك. قال: أما إنني لم استحلفكم تهمّة لكم، وما كان أحد بمنزلي من رسول الله (ﷺ) أقلّ منه حديثاً مني، إن رسول الله (ﷺ) خرج على حلقة من أصحابه فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله، ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومنّ به علينا. قال: الله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إنني لم استحلفكم تهمّة لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة»^(٢).

وأعلم أخي المسلم أن خير ما ينبغي للعبد أن يذكر الله به هو كلامه تبارك وتعالى الذي هو خير الكلام وأحسنه، وأصدقّه، وأنفعه.

(١) الترغيب والترهيب، ٤٠٦/٢.

(٢) رياض الصالحين، ٤٩٨.

فضل التوبة

قال ابن فارس: توب: التاء والواو والباء كلمة واحدة تدلّ على الرجوع. يقال: تاب من ذنبه، أي رجع عنه يتوب إلى الله توبةً ومتاباً، فهو تائب. والتوب، التوبة. قال تعالى: ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾^(١).

قال العلماء: التوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي؛ فلها ثلاثة شروط:

١ - أن يُقلع عن المعصية ٢ - أن يندم على فعلها ٣ - أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً.

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة: هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حق صاحبها، فإن كانت مالاً أو نحوه رده إليه، وإن كانت حداً قذف ونحوه مكّنه منه أو طلب عفو، وإن كانت غيبة استحلّه منها. ويجب أن يتوب من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب، وبقي عليه الباقي. وقد تظاهرت (اجتمعت وكثرت) دلائل الكتاب، والسنة، واجماع الأمة على وجوب التوبة^(٢).

والتوبة يجب أن تكون نصوحاً، توبة صادقة جازمة تمحو ما قبلها من السيئات، وتلم شعث التائب وتجمعه وتكفه عما كان يتعاطاه من الدناءات، فإن أذنب ذنباً ثم لا يرجع فيه؛ أي أنه يتوب من الذنب ثم لا يعود فيه أو لا يريد أن يعود فيه، أو أن يتوب المرء من العمل السيئ ثم لا يعود إليه أبداً. وقال رسول الله (ﷺ): «التوبة من الذنب أن يتوب منه ثم لا يعود فيه». فالتوبة النصوح هو أن يقلع عن الذنب في الحاضر، ويندم على ما سلف منه في الماضي، ويعزم على أن لا يفعل في المستقبل. ثم إن كان الحق لآدمي رده إليه بطريقه. وقيل إن التوبة النصوح أن تبغض الذنب كما أحببته، وتستغفر منه إذا ذكرته، فأما إذا جزم بالتوبة وصمّم عليها فإنها تجب ما قبلها من الخطايا كما ثبت في الصحيح: «الإسلام يجب ما قبله، والتوبة تجب ما قبلها». قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ثُبُوتًا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا

(٢) رياض الصالحين، ١١ - ١٢.

(١) مقاييس اللغة، ٣٥٧/١.

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَكْفِرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزَىٰ اللَّهُ النَّفْسَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتَيْمْنَا نَارًا وَتُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ [التحریم: ٨].

والله عز وجل غافر الذنب قابل التوب، قال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [غافر: ٣].

فالله عز وجل يغفر ما سلف من الذنب ويقبل التوبة في المستقبل لمن تاب إليه وخضع لديه، وأنه شديد العقاب لمن تمرد وطغى وأثر الحياة الدنيا وعتا عن أوامر الله تعالى وبغى.

قيل: أن رجلاً من أهل الشام ذو بأس وكان يفد إلى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ففقد عمر فقال: ما فعل فلان بن فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين تتابع في هذا الشراب. قال: فدعا عمر كاتبه. فقال: أكتب من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان. سلام عليك فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو ثم إليه المصير قال لأصحابه: أدعوا الله لأخيكم أن يقبل بقلبه ويتوب الله عليه. فلما بلغ الرجل كتاب عمر (رضي الله عنه) جعل يقرأه ويردده ويقول: غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، قد حذرني ووعدني أن يغفر لي. فلما بلغ عمر خبره قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أحداً لكم زلّة فسدوده ووثقوه وادعوا الله له أن يتوب ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه^(١).

وقد أمرنا الله تعالى بالاستغفار ثم التوبة، فالاستغفار فيه تكفير للذنوب السالفة وفي التوبة تكفير عما يستقبل المرء. ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه وسهل عليه أمره، وحفظ شأنه، وفي الحديث: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً. ورزقه من حيث لا يحتسب». قال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَقْوِرَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود: ٥٢].

وأمر الله تعالى بالتوبة فقال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١]. ووعد الله تعالى بقبول التوبة فقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٤﴾﴾ [التوبة: ١٠٤].

فالتوبة والصدقة كل منهما يحط الذنوب ويمحّصها ويمحقها. فأخبرنا سبحانه وتعالى

(١) تفسير ابن كثير، ٧١/٤ - ٧٢.

أن كل من تاب إليه تاب عليه، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه فيريها لصاحبها حتى تصير التمرة مثل أحد. ففي الحديث الشريف، قال رسول الله (ﷺ): «إن الله يقبل الصدقة ويأخذ ما بيمينه فيريها لأحدكم كما يري أحدكم مهره حتى أن التمرة لتكون مثل أحد».

وفتح الله سبحانه وتعالى باب الرجاء إذ قال: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّكُمْ هُمْ الْغَافِرُونَ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. فهذه دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والعودة لأن الله سبحانه يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زيد البحر.

وروي عن ابن عمر (رضي الله عنهما) أنه سمع رسول الله (ﷺ) يقول: «أيها الناس توبوا إلى الله تعالى فإني أتوب إلى الله تعالى في اليوم مائة مرة».

قيل: انقطع الغيث عن بني إسرائيل في زمن موسى (عليه السلام) حتى احترق النبات وهلك الحيوان، فخرج موسى (عليه السلام) في بني إسرائيل وكانوا سبعين رجلاً من نسل الأنبياء مستغيثين إلى الله تعالى، قد بسطوا أيدي صدقهم وخضوعهم أو قربوا قربان تذللهم وخشوعهم، ودموعهم تجري على خدودهم ثلاثة أيام. فلم يمطر لهم. فقال موسى: اللهم أنت القائل: ادعوني استجب لكم وقد دعوتك وعبادك على ما ترى من الفاقة والحاجة والذل، فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى إن فيهم من غذائه حرام، وفيهم من يبسط لسانه بالغيبة والنميمة، وهؤلاء استحقوا أن أنزل عليهم غضبي، وأنت تطلب لهم الرحمة. كيف يجتمع موضع الرحمة، وموضع العذاب؟ فقال موسى: من هم يا رب حتى نخرجهم من بيننا؟ فقال الله تعالى: يا موسى لست بهتاك ولا نمام، ولكن يا موسى توبوا كلكم بقلوب خالصة فعساهم يتوبوا معكم فأجود بأنعامي عليكم. فنادى منادي موسى في بني إسرائيل أن اجتمعوا فاجتمعوا فأعلمهم موسى (عليه السلام) بما أوحى إليه والعصاة يسمعون. فذرفت أعينهم ورفعوا مع بني إسرائيل أيديهم إلى الله عز وجل وقالوا: إلهنا جئناك من أوزارنا هاربين، ورجعنا إلى بابك طالبين، فارحمنا يا أرحم الراحمين، فما زالوا كذلك حتى سقوا بتوبتهم إلى الله تعالى، اللهم تب علينا وعلى سائر العصاة والمذنبين يا رب العالمين^(١).

وقد تاب الله عز وجل على بني إسرائيل من عبادة العجل، إذ جعل توبتهم أن يقتل كل واحد منهم من لقي من والد وولد فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن فتاب

(١) المستطرف، ٥٥٩/٢.

أولئك الذين كانوا خفي على موسى وهارون ما أطلع الله على ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا به فغفر الله للقاتل والمقتول. قال موسى (عليه السلام): توبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ تَعْبُدُونَ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَنْتُمْ تَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٥٤].

وانظر إلى فئتين من البشر، فئة كفرت بآيات الله ثم صلح شأنها وتابت، وفئة كفرت بآيات الله ثم آمنت ثم كفرت وإزدادت كفراً فلن تقبل توبتهم. قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٦) ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٧) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْجَوْنَ﴾ (٨٨) ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٨٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الصَّاكُونَ﴾ (٩٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُفْسَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ أَتَدْنَى يَوْمَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٩١) [آل عمران: ٨٦ - ٩١].

فالله عز وجل يتوعد ويهدد من كفر بعد إيمان ثم إزداد كفراً، أي استمر عليه إلى الممات. فأخبرنا سبحانه بأنهم لن تقبل لهم توبة عند الممات: فمن مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبداً ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهباً فيما يراه قرية، كما سئل رسول الله (ﷺ) عن عبد الله بن جدعان وكان يقري الضيف، ويفك العاني، ويطعم الطعام: هل ينفعه ذلك؟ فقال: لا، إنه لم يقل يوماً من الدهر رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين^(١).

فالتوبة ليست للذين يعملون السيئات وقد حضرهم الموت. أو الذين يموتون وهم كفار، إنما التوبة للذين يعملون السيئات وهم جاهلون ثم يتوبون عنها ولا يرجعون إليها. قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٧) ﴿وَلَيْسَ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِسْلَامَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٨) [النساء: ١٧ - ١٨].

فكل من عصى الله خطأ أو عمداً فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب. وأن أصحاب رسول الله (ﷺ) كانوا يقولون: كل ذنب أصابه عبد فهو جهالة. فالله عز وجل يقبل التوبة

(١) تفسير ابن كثير، ٣٥٩/١.

من العبد ما لم يغرغر، فعن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) أنه سمع رسول الله (ﷺ) يقول: «ما من عبد مؤمن يتوب قبل الموت بشهر إلا قَبِلَ الله منه أدنى من ذلك، وقبل موته يوم وساعة يعلم الله منه التوبة والإخلاص إليه إلا قَبِلَ منه».

وانظر أخي المسلم إلى من كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة والهدى النافع من بعد ما بينه الله تعالى لعباده في كتبه التي أنزلها على رسله. فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار». فمن قام بذلك وكتم العلم والحق فإن الله تعالى يلعنه والملائكة والمؤمنون، ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء من تاب إليه، ورجعوا عما كانوا فيه، وأصلحوا أعمالهم، وبيتوا للناس ما كانوا يكتُمونه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [البقرة: ١٥٩ - ١٦٠].

وقد قرن الله تعالى التوبة بالطهارة حين أخبرنا أن نأتي النساء وهن طاهرات غير حيض، وأن نباشرن من حيث أمرنا الله، فالله عز وجل يحب التوابين المتطهرين، المتزهين عن الأقدار والأذى وهو ما نهانا عنه من إتيان الحائض أو في غير المأوى.

قال تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْرِضُوا لِلنِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وانظر أخي المسلم إلى دعوة سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل (عليهما السلام) حين طلبا من الله عز وجل أن يجعلهما مسلمين لأمره، خاضعين لطاعته، لا يشركان في الطاعة مع الله أحداً، ولا في العبادة. وأن يتوب عليهما.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: ١٢٨].

وقال أبو عبد الله الوراق: «لو كانت عليك من الذنوب مثل عدد القطر وزبد البحر محيت عنك إذا استغفرت بهذا الاستغفار، وهو هذا: «اللهم إني أسألك وأستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه عدت فيه، وأستغفرك من كل ما وعدتك من نفسي ثم لم أوف لك به، وأستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطه غيرك، وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها

علي فاستعنت بها على معصيتك، يقول الله عز وجل لملائكته: ويح ابن آدم يذنب الذنب ثم يستغفرني فأغفر له، ثم يذنب الذنب فيستغفرني فأغفر له لا هو يترك الذنب من مخالفتي ولا يئأس من مغفرتي. أشهدكم يا ملائكتي إني قد غفرت له».

وعن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) أن نبي الله (ﷺ) قال: «كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً. فسأل عن أعبد أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ قال: لا، فقتله وكمل به المائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فأتاه. وقال له أنه قد قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ قال: نعم. ومن يحل بينك وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله تعالى معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء. فانطلق حتى كان نصف الطريق أدركه الموت فاختمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط. فأتاهم ملك في صورة آدمي فحكّموه بينهم فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى؟ فهو أقرب لها، فقياسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة. فكان أدنى إلى أرض التوبة الصالحة فجعل من أهلها^(١).

وعن أبي موسى عبد الله بن قيس (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: «إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده في النهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»^(٢).

(١) المستطرف، ٥٥٦/٢ - ٥٥٨.

(٢) رياض الصالحين، ١٣.

حب الجهاد في سبيل الله

الجهاد مصدر للفعل الرباعي «جاهد»، وثلاثي الكلمة هو الجهد بالفتح (المشقة)، وبالضم وتعني (الطاقة). ويقال: جاهد العدو مجاهداً وجهاداً: قاتله، وجاهد في سبيل الله. وفي الحديث النبوي الشريف: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية». وورد في معجم اللغة لابن فارس: «جهد: الجيم والهاء والdal أصله المشقة، ثم يُحمل عليه ما يقاربه. يقال: جهدت نفسي وأجهدت، والجهد الطاقة. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩]. ويقال: إنَّ المجهود اللبَن الذي أخرج زُبده، ولا يكاد ذلك يكون إلا بمشقة ونصب. قال الشماخ:

تُضَحِّقُ وَقَدْ ضَمِنْتَ ضَرَاتِهَا غُرْقاً مِنْ طَيِّبِ الطَّعْمِ حُلُوٍ غَيْرِ مَجْهُودٍ
ومما يقارب الباب: الجَّهَاد، وهي الأرض الصلبة. وفلان يجهد الطعام، إذا حمل عليه بالأكل الكثير الشديد^(١).

وعن سهل بن سعد (رضي الله عنهما) أن رسول الله (ﷺ) قال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها. والروحة يروحها العبد في سبيل الله، أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها»^(٢).

فالإقامة على جهاد العدو في الحرب، وارتباط الخيل وإعدادها للغزو ولنصرة دين الله، ثوابها عند الله يبقى عن تلك الدنيا بحذافيرها؛ لأن الدنيا فانية، ونعيمها زائل، ونعيم الله باقٍ خالد، ولا ينفع الإنسان إلا كثرة الحسنات، وأن راحة «المرّة الواحدة من الإياب»، أو غدوة «المرّة الواحدة من الذهاب» في سبيل الله تشعر الإنسان بنعيم الله وإحسانه بعد موته إذا عمل صالحاً، والجهاد لرفعة دين الله من صفوة العمل الصالح.

والجهاد فريضة على المسلمين كافة لظاهر قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ

(١) مقاييس اللغة، ٤٨٦/١.

(٢) الترغيب والترهيب، ٢/٢٤٢.

كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ [البقرة: ٢١٦].

جاء في تفسير ابن كثير: «هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين أن يكفوا شر الأعداء عن حوزة الإسلام. ، وقال الزهري: الجهاد ووجب على كل أحد غزا أو قعد، فالقاعد عليه إذا استعين أن يعنيه، وإذا استغيث أن يغيث، وإذا استنفر أن ينفر. وإن لم يحتج إليه قعد. ولهذا ثبت في الصحيح «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات ميتة جاهلية».

وقوله «وهو كره لكم» أي شديد عليكم ومشقة وهو كذلك فإنه إما يُقتل أو يجرح مع مشقة السفر ومجالد الأعداء. ثم قال: وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم» أي لأن القتال يعقبه النصر والظفر والاستيلاء على بلاد الأعداء وأموالهم وذرياتهم وأولادهم «وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم» وهذا عام في الأمور كلها قد يحب المرء شيئاً وليس له فيه خيرة ولا مصلحة ومن ذلك القعود عن القتال قد يعقبه استيلاء العدو على البلاد والحكم. ثم قال: «والله يعلم وأنتم لا تعلمون» أي هو أعلم بعواقب الأمور منكم وأخبر بما فيه صلاحكم في دنياكم وآخرتكم فاستجيبوا له وانقادوا لأمره لعلكم ترشدون^(١).

وورد في العقد الفريد لابن عبد ربه كتاب عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إلى سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) يوصيه هو ومن معه من الأجناد فقال: «أما بعد، فإني أمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيذة في الحرب. وأمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي. منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم. وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوكم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عدونا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا في المعصية، كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا فنصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا. واعلموا أن عليكم في مسيركم حفظاً من الله يعلمون ما تفعلون. فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله، وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شرٌّ منا، فلن يُسلط علينا، وإن أسأنا، فرب قوم قد سلط عليهم شر منهم، كما سلط على بني إسرائيل، لما عملوا بمساخط الله، كفار المجوس، ﴿فَجَاسُوا خَلَلِ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٥].

واسألوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل الله ذلك لنا ولكم. وترفق بالمسلمين في مسيرهم، ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم، ولا تقصر بهم عن منزل

(١) تفسير ابن كثير، ٢٣٩/١.

يرفق بهم، حتى يبلغوا عدوهم، والسفر لم ينقص قوتهم، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم، حامي الأنفس والكراع (الخيال).

وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة، حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم، ويرثون (يصلحون) أسلحتهم وأمتعتهم.

ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه، ولا يرزأ أحداً من أهلها شيئاً، فإن لهم حرمة وذمة، أبتليت بالوفاء بها، كما ابتلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم فتولواهم خيراً. ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح. وإذا وطئت أرض العدو، فأذك العيون بينك وبينهم، ولا يخف عليك أمرهم. وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض، من تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإن الكذب لا ينفعك خبره، وإن صدقك في بعضه، والغاش عين عليك، وليس عيناً لك. وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع، وتبث السرايا بينك وبينهم، فتقطع السرايا إمدادهم، ومراقبهم، وتتبع الطلائع عوارثهم. وانفق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك، وتخبر لهم سوابق الخيل. فإن لقوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك. واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد، والصبر على الجلال، لا تخص بها أحداً بهوى، فيضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك. ولا تبعثن طليعة، ولا سرية، في وجه تتخوف عليها فيه غلبة، أو ضيعة ونكاية. فإذا عاينت العدو، فاضمم إليك أقاصيك، وطلائعك، وسراياك واجمع إليك مكيدتك وقوتك. ثم لا تعاجلهم المناجزة، ما لم يستكرهك قتال، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله، وتعرف الأرض كلها كعرفة أهلها بها، فتصنع بعدوك، كصنعه بك. ثم أذك أحراسك على عسكرك، وتيقظ من البيات جهدك، ولا تؤتى بأسير ليس له عقد إلا ضربت عنقه، لثرهب بذلك عدو الله وعدوك. والله ولي أمرك، ومن معك، وولي النصر لكم على عدوكم، والله المستعان^(١).

أوصى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) القائد الفذ سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) وجنوده، العمل بتقوى الله عز وجل واجتباب المعاصي والاحتراس من الوقوع فيها. قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١].

كما طلب إليهم الاستحياء من حفظة الله الذين يسرون مع الجند. قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَفَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

(١) العقد الفريد، ١٣٠/١.

وسؤال الله العون. قال تعالى؛ ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (الرحمن: ٢٩).

وطلب إليهم الترقق في المسير وإراحة الجنود، ورعاية أهل الذمة وعدم إلحاق الظلم والأذى بهم. وبث العيون والطلائع والسرايا. وأخذ الحيطة والحذر. وجمع القوة والاستعداد دائماً، والتأني في معرفة أرض العدو، وأن النصر من عند الله تعالى وبالله المستعان.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٦٠).

وقال: ﴿فَتِلْكَ لَهُمُ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة: ١٤).

والمجاهدون هم مادة الإسلام، وهم روح الأمة، ولحمها ودمها وعظمها، وكل حبيرة منها، ولولاهم لما قامت للإسلام والمسلمين قائمة، ولما أعزهم الله، ولما سمع الناس في مشارق الأرض ومغاربها رسالة الصادق الأمين. والمجاهد في سبيل الله عزيز، راقٍ، عالٍ، قريب من الله عز وجل قال الشاعر:

يَجُودُ بِالنَّفْسِ إِذْ ضَنَّ الْجَوَادُ بِهَا وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ
وأخبرنا الرسول الكريم (ﷺ) أَنَّ هناك عنيان لا تمسهما النار، الباكية تخشى الله عز وجل وترهب عذابه، والباكية تحرس في سبيله. روي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «عنيان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»^(١).

فقد بكت الأولى حين ذكرت صاحبها بجلال الله وعظمته وجبروته، فبكى لتقصيره وقلة زاده أمام الله سبحانه وتعالى والثانية ظلت طوال ليلها يقظة تحرس جند الله المجاهدين في سبيله حباً في نيل الثواب وخشية من فتك الأعداء وهجومهم، وأخذ المسلمين على حين غرة. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ تُشْفِقُونَ﴾ (المؤمنون: ٥٧).

وإن أسمى درجة في الجهاد:

١ - محاربة الكفار من أجل نصر ورفع شأن دين الله، وذبح الأعداء عن الهجمات في الدين، والتفاني في خدمته والتضحية في إعلاء كلمته سبحانه وتعالى وإعزاز إسلامه،

(١) الترغيب والترهيب، ٢/٢٤٨.

والرباط لانتظار الدفاع في ساحة الوعى .

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاؤُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [المائدة: ٣٣].

٢ - محاربة السارقين، ومخاصمة الملحدين، واقناعهم بالحجة الدامغة حتى يبيءوا بالخزي المبين. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْجِدُونَ فِيْءِ آبَائِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا أَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [فصلت: ٤٠].

فالإلحاد وضع الكلام في غير مواضعه، وقيل هو الكفر والعناد، وأن الله تعالى يتوعدهم إذ أنه عالم بمن يلحد في آياته وأسمائه وصفاته وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال.

٣ - دعوة الناس إلى الحق، وحثهم على العمل بكتاب الله تعالى وسنة حبيبه المصطفى (ﷺ). قال تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ ﴾ [النساء: ١٧٠].

٤ - مجاهدة النفس بالتحلي بالمكارم والتخلي عن الرذائل، وتعلم أمور الدين والسير على منهج خير المرسلين، ثم العمل بأحكام الشريعة الغراء حتى ينبع ثمرتها في روضته. قال تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا أِهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِئْتِنَتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ [المائدة: ١٠٥].

٥ - مجاهدة الشيطان بدفع ما يأتي به من الشبهات، وما يزينه من الشهوات. قال تعالى: ﴿ ط يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [النور: ٢١].

فطرق الشيطان مزينة للموبقات الداعية إلى المعاصي وإشاعة الفاحشة والغيبة والنميمة والبغضاء والغواية. ولولا أن الله يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه ويزكي النفوس وشركها وفجورها وندسها وما فيها من أخلاق رديئة كل بحسبه لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيراً. ولكن الله يزكي من يشاء من خلقه، ويضل من يشاء، ويرديه في مهالك الضلال والبغي، وأن الله سميع لأقوال عباده، عليم بما يستحق منهم الهدى والضلال.

٦ - ترك مجالس السوء، وهجر صحبة الأشرار، ونبذ مودة العاصين، وقطع كل صلة

بالفاسقين، وإعلان الحرب على الضالين الغاوين.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقال أيضاً: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ﴾ [الذاريات: ٥٩].

٧ - نصب العالم كله للارشاد والوعظ والهداية والنصيحة وتفهم الناس الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والأحكام الفقهية والسيرة النبوية وتاريخ أبطال الإسلام وحماته. قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

٨ - الإقبال على النصيحة والعمل بها والسعي لجني ثمارها ومحبة الصالحين وزيادة المتقين ومودة العالمين والاستضاءة بأنوارهم والافتداء بأفعالهم. قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْجُدُوا لِلْإِثْمِ لَوْ أَنَّهُمْ تَأْتُوا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلُ مَعَهُمْ لَأَفْتَدَوْا بِهِمْ أُولَئِكَ هُمُ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوِلُهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ لِلْهَادِثِينَ﴾ [الرعد: ١٨].

وكان من عادة المجاهد في سبيل الله عند خوض غمار المعركة أن يعلم نفسه؛ أي يجعل لنفسه علامة الشجعان. قال ابن فارس: «عَلِمَ: العين واللام والميم أصل واحد، يدل على أثر الشيء، يتميز به من غيره، من ذلك العلامة، ويقال: أعلم الفارس: إذا كانت له علامة في الحرب، وخرج فلان معلماً بكذا»^(١).

ورد في سيرة ابن هشام أن رسول الله ﷺ قال: «من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقام إليه رجال، فأمسك عنهم، حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة أخو بني ساعدة، فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: أن تشرب به العدو حتى ينحني، قال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه، فأعطاه إياه. وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً، يختال عند الحرب، إذا كانت. وكان إذا أعلم بعصاة له حمراء، فاعتصب بها، علم الناس أنه سيقاقل. فلما أخذ السيف من يد رسول الله ﷺ أخرج عصابته تلك، وعصب بها رأسه، وجعل يتبخر بين الصفين. قال ابن اسحاق بإسناده: قال رسول الله ﷺ حين رأى أبا دجانة يتبخر: إنها لمشية يبغضها الله، إلا في مثل هذا الموطن»^(٢).

وأخبرنا الرسول الكريم ﷺ أن الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة.

(١) مقاييس اللغة، ٤/ ١٠٩.

(٢) السيرة النبوية، ٢/ ٦٦.

وخير الخيل ما ارتبط في سبيل الله. فعن خباب بن الأرت (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: الخيل ثلاثة: ففرس للرحمن، وفرس للإنسان، وفرس للشيطان؛ فأما فرس الرحمن فما اتخذ في سبيل الله، وقتل عليه أعداء الله. وأما فرس الإنسان فما استُبطن وتجمّل عليه. وأما فرس الشيطان فما روّهن عليه، وقُومر عليه^(١).

فالذي ارتبط من الخيل في سبيل الله فإن شبعها وجوعها ووريها وظمأها وأروائها وأبوالها فلاح في موازين العبد يوم القيامة. وأما من يراهن على خيله فإن ثمنه وزر وركوبه وزر، أما فرس الإنسان فهو للبطن فعسى أن يكون سداداً من الفقر إن شاء الله، فهي له ستر إذ يتخذها تعففاً وتجملاً وتسترّاً، ولا يحبس حق ظهورها وبطنها في يسرها وعسرها. فهو يربّيها لينتفع بأولادها وتناجها، ويقضي عليها حاجاته.

وبيّن لنا الرسول الكريم (ﷺ) أن خير الخيل هو الأدهم، قال (ﷺ): «خيرُ الخيل الأدهم الأقرح الأرثم، ثم الأقرح المحجل طَلَقُ اليد اليمنى، فإن لم يكن أدهم فكُميت على هذه الشّية»^(٢).

فالأقرح: هو الفرس الذي في وسط جبهته قرحة وهي بياض يسير. والأرثم: الفرس يكون به بياض في شفته العليا. وطلق اليمنى: إذا لم يكن بها تحجيل. أما الكُميت: فهو الفرس الذي ليس بالأشقر ولا الأدهم بل يخالط حمرة سواد. فالكُميت: بين اللون الأحمر والأسود. ويفرّق بين الكُميت والأشقر بالعُرف والذنب، فإن كانا أحمرين فهو أشقر، وإن كانا أسودين فهو الكُميت. أما الشّية: فكل لون في الفرس يكون معظم لونها على خلافه.

أما ثقافة المجاهد فهي في تعلّم الكتاب والتفقه في السنّة النبوية الشريفة، والأمانة، والعصمة، والمباينة لأهل الهوى، وأن يظهر فيه من القصد والتواضع واجتناب زي المترفين. فأكبر المجاهدين أجراً، أكثرهم ذكراً لله عز وجل.

عن معاذ بن جبل (رضي الله عنه) عن رسول الله (ﷺ) أن رجلاً سأله فقال: أيُّ المجاهدين أعظم أجراً؟ قال: أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكراً.

وعنه أيضاً أن رسول الله (ﷺ) قال: «طوبى لمن أكثر في الجهاد في سبيل الله من ذكر الله، فإن له بكلّ كلمة سبعين ألف حسنة، كلّ حسنة منها عشرة أضعاف مع الذي له عند الله من المزيد»^(٣).

وعلى المجاهد أن يكون متمرساً مستعداً للقاء العدو، شجاعاً غليظاً على أعداء الله.

(٢) م.ن.، ٢/٢٦٥.

(١) الترغيب والترهيب، ٢/٢٦١.

(٣) م.ن.، ٢/٢٦٧.

قال سبحانه وتعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

في تفسير ابن كثير أن المسلمين كلما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار، وليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالهم فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقاً لأخيه المؤمن غليظاً على عدوه الكافر كقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْرٍ يُجِبُّهُمْ وَيُجِيبُونَهُ أَذِلَّةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وقوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ وفي الحديث أن رسول الله (ﷺ) قال: «أنا الضحوك القتال» يعني أنه ضحوك في وجهه ولية قتال لهامة عدوه. وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي قاتلوا الكفار وتوكلوا على الله واعلموا أن الله معكم إذا اتقيتموه وأطعتموه. وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة في غاية الاستقامة والقيام بطاعة الله تعالى لم يزلوا ظاهرين على عدوهم!.

وعن الرمي في سبيل الله وتعلمه، رغبتا الرسول الكريم (ﷺ) فطلب إلينا أن نستعد للحرب ونتعلم الفروسية وإصابة الرمي مع وجود الذخائر والشجاعة والغلظة على الأعداء. فعن عقبة بن عامر (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله (ﷺ) وهو على المنبر يقول: وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة. ألا إن القوة الرمي: ألا إن القوة الرمي. ألا إن القوة الرمي. وفي رواية للبيهقي قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «إن الله عز وجل يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه الذي يحتسب في صنعته الخير، والذي يُجهز به في سبيل الله. والذي يرمي به في سبيل الله»^(١).

فإن الله تعالى تكرر فائزاً الثلاثة، وأجزل أجرهم، ليكون الإقبال على صنع السلاح للحرب متوافراً، وهذه تعاليم الله عز وجل من لدن آدم (عليه السلام) إلى خاتم الرسل (صلى الله عليهم وسلم أجمعين). فإنهم كانوا غزاة مهرة، وقادة بررة، في الجهاد في سبيل الله تعالى.

ومن أفضل الأعمال أخبرنا ابن عباس (رضي الله عنهما) أن رسول الله (ﷺ) خرج عليهم وهم جلوس في مجلس لهم، فقال: «ألا أخبركم بخير الناس منزلاً؟ قالوا: بلى يا رسول الله: قال: رجل أخذ برأس فرسه في سبيل الله حتى يموت أو يُقتل، ألا أخبركم بالذي يليه؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال: امرؤ معتزل في شعب يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة. ويعتزل شرور الناس، أو أخبركم بشر الناس؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال: الذي يُسأل الله

(١) الترغيب والترهيب، ٢/٢٧٦، ٢٧٧.

ولا يُعطي^(١). قال تعالى: ﴿وَأَعَزَّ لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨].

قال تعالى: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

وأخبر الرسول الكريم (ﷺ) عن منزلة المجاهد ورفعته، فعن أبي سعيد (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: مَنْ رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد (ﷺ) رسولاً، وجبت له الجنة. فعجب لها أبو سعيد، فقال: أعدها عليّ يا رسول الله فأعادهما عليه، ثم قال: وأخرى يرفع الله بها للعبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: الجهاد في سبيل الله^(٢).

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ عَمَلٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوقِفَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩].

وأوجب الله عز وجل على نفسه عون ثلاثة من أصناف البشر. فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: «ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف»^(٣).

فالله جل وعلا يساعد الثلاثة في الوصول إلى بغيتهم، المجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله، والعبد الذي استكثبه سيده على جمع مال ليعتقه، وطالب الزواج الفقير الذي يريد أن يتحصن، ويتعد عن الفحشاء، الله يعاونه في جمع مهره.

قال تعالى: ﴿وَلَسْتَ تُغْنِيهِمُ الَّذِينَ لَا يُحِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣].

وليس شيء أحب إلى الله عز وجل من قطرتين وأثرين. عن أبي أمامة (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: «ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين وأثرين، قطرة دمع من خشية الله، وقطرة دم تهرق في سبيل الله. وأما الأثران: فأثر في سبيل الله، وأثر في فريضة من فرائض الله»^(٤).

ولا بد للمراء أن يخلص النية في كل أعماله لكل امرئ ما نوى، فعن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «إنما الأعمال بالنية، وفي رواية بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى

(٢) م.س.، ٢/٢٨٨.

(٤) م.س.، ٢/٢٩٥.

(١) الترغيب والترهيب، ٢/٢٨٤.

(٣) م.س.، ٢/٢٨٩.

الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يُصيبها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(١).

فالأعمال حسب النية أو القصد أي يجب الاعتقاد الثابت في القلب. ففيه من يقاتل لإعلاء كلمة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ترفرف على ربوع الناس، وتنطق بها ألسنتهم، وتقرّ بها قلوبهم. وفيه من يقاتل للشهرة ولإظهار العظمة والحمية، والغضب بدفع المضرة وجلب المنفعة. والأعمال تشمل الأقوال وأفعال الأعضاء.

فمن كانت نيته خدمة الدين وإعلاء كلمة الله بتعلّم كتابه، وستة رسوله والعمل بهما. فله ما نوى. ومن كانت نيته طلب نيل سعة الرزق أو إدراك شيء ما. أو امرأة يتزوجها، أو يطلب صحة ورفاهية، أو مناخاً طيباً يقيم فيه، فليس له إلا ما قصده.

وعلى المرء الثبات في المعركة، وألاً يفترّ أمام الأعداء وأن ذلك من الكبائر، وأن مصيره ومنقلبه يوم ميّعه جهنم وبئس المصير، إلا من فرّ بين يدي قرنه ليريه أنه قد خاف منه فيتبعه ثم يكر عليه فيقتله، أو فر من ههنا إلى فئة أخرى من المسلمين يعاونهم ويعاونونه.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ١٥﴾ وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقُنَالٍ أَوْ مَتَحَرِّزًا إِلَيْكَ فِتْنًا فَقَدْ بَكَاءٌ يَفْضِبُ مِنْ اللَّهِ وَمَا وَدَّ جَهَنَّمُ وَلَبَّسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ [الأنفال: ١٥ - ١٦].

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الإشراك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»^(٢).

فأمرنا الرسول الكريم (ﷺ) الابتعاد عن السبع المهلكات، الشرك بالله، بحيث تجعل لله ندّاً. والسحر، الذي يخدع الأبصار كما يفعل المشعوذ فيصرف الأبصار إلى ما يفعله بخفة يده بحيل صناعية يتوصل إليها بالاكْتِسَاب، وأكثرها تخيلات بغير حقيقة، وإيهامات بغير ثبوت. قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنٌ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِإِذْنِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا

(٢) م.س.، ٣٠٢/٢.

(١) الترغيب والترهيب، ٢/٢٩٨.

هُمْ بِصَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَآخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿١٨﴾﴾ [الفرقان: ٦٨].

وأكل الربا. وهو أخذ الزيادة على رأس المال من وجه خاص. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَرْبًا لَا يُقِيمُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْطِئُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٥﴾﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [البقرة: ٢٧٥ - ٢٧٦].

وأكل مال اليتيم. فاليتيم من فقد والده، أما اللطيم فمن فقد أمه. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلَيْتِمَىٰ طُلُمًا إِنْ كَانُوا فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠]. والتولي يوم الزحف، الفرار والهرب من محاربة أعداء الدين.

وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، أي رميهن بالزنا. والمحصنات العفيفات اللاتي أحصن نفوسهن من الخنا، والحصن المكان المنيع إذ أن نفوسهن في حصن من العفاف وتقال للحرائر وللمتزوجات لأن الحرية والزواج من دواعي العفة والابتعاد من الفاحشة. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْنُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النور: ٢٣].

والشهداء ثلاثة، فقد بين الرسول الكريم (ﷺ) أصناف المجاهدين ودرجاتهم في الثواب حسب نياتهم. روي عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «الشهداء ثلاثة: رجل خرج بنفسه وماله في سبيل الله لا يريد أن يقاتل، ولا يُقتل، يُكثّر سواد المسلمين، فإن مات أو قتل، غفرت له ذنوبه كلها وأجبر من عذاب القبر، ويؤمن من الفزع، ويزوج من الحور العين، وحلت عليه حلة الكرامة ويوضع على رأسه تاج الوقار والخلد. والثاني خرج بنفسه وماله محتسباً يريد أن يُقتل ولا يُقتل، فإن مات أو قتل كانت ركبته مع إبراهيم خليل الرحمن (عليه السلام) بين يدي الله تبارك وتعالى، في مقعد صدق عند مليك مقتدر. والثالث خرج بنفسه وماله محتسباً يريد أن يُقتل ويُقتل، فإن مات أو قتل جاء يوم القيامة شاهراً سيفه واضعه على عاتقه، والناس جاثون على الرُكب، يقول: ألا أفسحوا لنا فإننا قد بذلنا دماءنا وأموالنا لله تبارك وتعالى. قال رسول الله (ﷺ): والذي نفسي

بيده لو قال ذلك لإبراهيم خليل الرحمن (عليه السلام)، أو لنبي من الأنبياء لرحل لهم عن الطريق لما يرى من واجب حقهم حتى يأتوا منابر من نور تحت العرش، فيجلسوا عليها ينظرون كيف يُقضى بين الناس لا يجدون غم الموت، ولا يفتنّون في البرزخ، ولا تُفزعهم الصيحة، ولا يهتمهم الحساب، ولا الميزان، ولا الصراط، ينظرون كيف يُقضى بين الناس، ولا يسألون شيئاً إلا أعطوا، ولا يشفعون في شيء إلا شُفّعوا فيه، ويُعطون من الجنة ما أحبوا، ويتبوءون من الجنة حيث أحبوا^(١).

وللشهيد عند خالقه سبع خصال. فعن عبادة بن الصامت (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: قال رسول الله (ﷺ): «أَنَّ لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سَبْعَ خِصَالٍ: أَنْ يُغْفَرَ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُحَلَّى حُلَّةَ الْإِيمَانِ، وَيُجَارَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، الْيَاقُوتَةُ مِنْ خَيْرِ مَا فِي الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَقَارِبِهِ»^(٢).

ورهبنا الرسول الكريم (ﷺ) من ترك الجهاد، فعن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله (ﷺ): «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ. سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»^(٣). يقول الرسول الكريم أنه إذا توجهنا إلى البيع والشراء وكان هذا سدمنا وهمنا، واتخذنا الماشية للحرث والري وسقي النبات وتربية نتاجها، وعكفنا على الأعمال التجارية، وتركنا الجهاد، سلَّطَ الله علينا ضعفاً وامتهاناً لا ينزعه حتى نرجع إلى الاهتمام بأمور ديننا، وإلا فإننا نبقي في ذل واستعباد وأسر، ويتحكم أعداؤنا في رقابنا فللجهاد فوائد جمة:

- ١ - أوجب الله تعالى للمجاهد الجنة بفضلِهِ وكرمه سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بِهِ إِنَّ اللَّهَ يُبَيِّعُكُمْ لَأَذَى مَا يَبْغُونَ بِأَنْفُسِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].
- ٢ - ينال المجاهد خيراً. إما أن يستشهد فيدخل الجنة، وإما أن يرجع بأجر وغنيمة.
- ٣ - إن جرح المجاهد لا يزول عنه أثر الدم بغسل ولا غيره.
- ٤ - يرى الشهيد درجاته فيتمنى أن يحيا ويرجع ليقاتل لما له من الكرامة، فقد شهد عند

(١) الترغيب والترهيب، ٣١٧/٢ - ٣١٨. (٢) م.ن.، ٢/٣٢٠.

(٣) م.ن.، ٢/٣٢٩.

خروج روحه ما أعدّه الله له من الثواب والكرامة فهو حيّ.

٥ - ثواب الغدوة والروحة في سبيل الله خير من نعيم الدنيا كلها لو ملكها إنسان، وتصور تنعمه بها كلها لأنه زائل ونعيم الله باقي.

٦ - يجعل الله روح المؤمن كالطائر المتنقل ليتنعم بأزاهير الجنة. فعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله (ﷺ): لما أصيب إخوانكم جعل الله أرواحهم في جوف طير خُضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم. قالوا: من يُبلغ إخواننا عنا أننا أحياء في الجنة نرزق لئلا يزهّدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب؟ فقال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم. قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَحْزَبَنَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١).

٧ - رضي الله عن الشهداء بطاعتهم لله ورضوا عنه بما أكرمهم به، وأعطاهم إياه من الخيرات من الله تعالى، وإفاضة البر والإحسان والرحمة.

وهذا نموذج في الحث على الجهاد، خطبة قالها الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه):

«أما بعد: فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة وجُنته (وقايته) الوثيقة. فمن تركه رغبة منه ألبسه الله ثوب الذل، وشمله البلاء، وديث (ذللّه) بالصُّغار والقماء (التحقير). وضرب على قلبه بالأسداد، وأدبل الحق منه بتضييع الجهاد، ومنع النصف (العدل) ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، ورسراً وإعلاناً، وقلت لكم اغزّوهم قبل أن يغزّوكم. فوالله ما غزى قوم قط في عقر (وسط) دارهم إلا ذلّوا، فتواكلتم وتخاذلتم حتى شنّت الغارات عليكم، وملكت عليكم الأوطان، وهذا أخو غامد (سفيان بن عوف من بني غامد بعثه معاوية لشن الغارة على أطراف العراق) قد وردت خيله الأنبار (بلدة على الشاطئ الشرقي للفرات)، وقد قتل حسان بن حسان البكري وأزال خيلها عن مسالحها (الثغور حيث يخشى طروق الأعداء)، ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة فينتزع حجلها (خلخالها) وقلبها وقلاندها ورعائها (قرطها) ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع (ترديد الصوت بالبكاء) والاسترحام ثم انصرفوا داخرين، ما نال رجلاً منهم كلم (جرح) ولا أريق لهم دم. فلو أن امرأ مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً بل كان به عندي جديراً. فيا عجباً والله يميم القلب، ويجلب الهم من

(١) الترغيب والترهيب، ٣٢٣/٢.

اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم فقبحاً لكم. وترحاً (هماً وحزناً أو فقراً) حين صرتم عرضاً يُرمى: يُغار عليكم ولا تغفرون، وتُغزَوْنَ ولا تغزون، ويُعصى الله وترضون. فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر قلتم هذه حمارة القيظ (شدته) أمهلنا ينسلخ عنا الحر. وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء، قلتم هذه صبارة القر (شدة البرد) أمهلنا ينسلخ عنا البرد. كل هذا فراراً من الحر والقر، فأنتم والله من السيف أفرّ، يا أشباه الرجال. ولا رجال، حلوم الأطفال، وعقول ربات الحجال (النساء) لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم، معرفة والله جرت ندماً وأعقبت سداً (هماً وغيظاً) قاتلكم الله لقد ملأتم قلبي قبحاً، وشحنتم صدري غيظاً، وجرعتموني نخب التهام (جرعة الهم) أنفاساً، وأفسدتم على رأيي بالعصيان والخذلان حتى قالت قريش إن ابن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب. لله أبوهم وهل أحد منهم أشد لها مراساً، وأقدم فيها مقاماً مني. لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وها أنا قد ذرفت على الستين، ولكنه لا رأي لمن لا يُطاع»^(١).

فالأعمال إنما تكون خالصة لله تعالى، فالفرائض والنوافل، وأنواع التطوعات جميعاً، إنما يبتغي المرء بها طريق التقرب إلى الله عز وجل فسبيل الله عام يقع على عمل خالص. وقد خصص الإسلام لفظ الشهيد للمجاهد الذي يتوفى في ساحة الشرف، ولم يعرف تاريخ الأديان مقاماً أعلى وأسمى من المقام الذي يتبوّاه الشهيد في الآخرة، وخصوصاً في الدين الإسلامي، قال تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠] صدق الله العظيم.

(١) نهج البلاغة، ٣٧/١.

الباب الثاني

الفصل الأول: فضل الصبر

الفصل الثاني: فضل التسبيح

الفصل الثالث: فضل المغفرة وطلبها

الفصل الرابع: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الفصل الخامس: فضل التقوى

الفصل السادس: حب العدل

الفصل السابع: الإنفاق في وجوه الخير

الفصل الثامن: حب الزهد

الفصل التاسع: فضل شكر النعم

الباب الثاني

الفصل الأول

فضل الصبر

الصبر لغة في قول ابن فارس: «الصاد والباء والراء أصول ثلاثة: الأول الحبس، والثاني أعالي الشيء، والثالث جنس من الحجارة.

فالأول: الصبر، والحبس. يقال: صبرْتُ نفسي على ذلك الأمر، أي حبستها.

قال عنترة:

فَصَبْرْتُ عَارِفَةً لَذَلِكَ حُرَّةً ترسو إذا نفسُ الجبانِ تطلَّعُ

والمصبورة، المحبوسة على الموت. ونهى رسول الله (ﷺ) عن قتل شيء من الدواب صبراً. وعن الباب: الصبير، وهو الكفيل؛ وإنما سمي بذلك لأنه يُصبر على الغرم. يقال: صبرت نفسي به أصبر صبراً، إذا كفلت به، فأنا به صبير، وصبرْتُ الإنسان، إذا حلفت بالله جهد القسم.

وإما الثاني فقالوا: صبر كل شيء أعلاه. قالوا: وأصبار الإناء: نواحيه، والواحد صبر.

وقال:

فَمَلَأْتُهَا عَلَقاً إِلَى أَضْبَارِهَا

وأما الأصل الثالث فالصبرة من الحجارة: ما اشتد وغلظ، والجمع صِبَارٌ. وفي كتاب ابن دريد: الصبارة، قطعة من حديد أو حجر في قول الأعشى:

مَنْ مُبْلَغٌ عَمراً بَأْنِ المرءِ لم يَخْلُقْ صَبَارَهُ

قال ابن دريد: وروى البغداديون: صباره. والذي أراده البغداديون ما روي أن الصبار ما اشتد وغلظ وهو في قول الأعشى:

كَأَنَّ تَرْتُمِ الْهَاجَاتِ فِيهَا قَبِيلَ الصُّبْحِ أَصَوَاتُ الصُّبَّارِ
قال أبو عبيد: الصُّبْر: الأرض التي فيها حصباء وليست بغليظة ومنه قيل للحرّة: أمُّ
صُبَّار. ومما حُمِلَ على هذا قول العرب: وقع القوم في أمِّ صُبُور، إذا وقعوا في أمر
عظيم^(١).

الصبر خلق فاضل جميل من أخلاق النفس يمنع الإنسان عما لا يحسن ولا يجمل،
وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح أمرها وقوامها، وقد ذكر الله عز وجل الصبر في
القرآن الكريم في نحو من تسعين موضعاً مضيفاً إليه أكثر الخيرات. والدرجات إذ جعلها
ثمرة له.

والصبر ضربان: بدني، نفسي، فالبدني تحمل المشاق بالبدن، كالقيام بأعمال العبادات
الشاقة أو من غيرها. والنفسي، صبر النفس عن مشتبهات الطبع ومقتضيات الهوى. فالصبر
عن شهوة البطن والفرج عفة، والصبر على القتال شجاعة، والصبر وكظم الغيظ حلمًا،
والصبر على قدر يسير من الخطوط قناعة.

والصبر ثلاثة حروف، فصاده صون وصراع وصمود وصفاء وصدق، وبأؤه برّ وبلاء،
ورأؤه رحمة ورضا ورجاء.

فالمسلم يصون نفسه عن الشهوات مهما صغرت أو عظمت، ويصون نفسه عن الوقوع
فيها. ويعمد بعد أن يتنازعه صراع حول تلك الشهوات، ويكون صادقاً مع نفسه مطمئناً لما
سينال من أجر عظيم وثواب كريم من رب العزة. فيصفو ذهنه ويطمئن قلبه، وتصفو نفسه،
ويتوجه إلى أداء العبادات، ويوفي عهد الله ويصل ما أمره الله به أن يوصل، ويخشى الخالق
تبارك وتعالى ويقرن ذلك بالصبر على أداء تلك العبادات والطاعات. فنرى المسلم يصبر على
قيامه بالطاعات وتركه للمحرمات.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا لَمَّا قَاغُورٌ لَنَا ذُنُوبٌ قَدَّامَا وَعِنَّا عَذَابُ النَّارِ ۖ﴾
الصَّابِرِينَ وَالْمُكْسِرِينَ وَالْمُفْسِدِينَ وَالْمُنْفِقِينَ ۖ وَالْمُسْتَفْهِيرَ ۖ وَالْأَسْحَارَ ۖ ﴿١٧﴾ [آل عمران: ١٦ - ١٧].

إن الذين صبروا عن المحارم والمآثم فعصموا أنفسهم منها الله عز وجل إبتغاء مرضاته
وجزيل ثوابه وأقاموا الصلاة بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها، والذين أنفقوا
سراً وعلانية، والذين يدفعون العمل القبيح بالحسن. فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبراً
واحتشاماً وصفحاً وعفواً، فهؤلاء لهم عقبى الدار إقامة خلود دائم في جنات النعيم، وتدخل

(١) مقاييس اللغة، ٣/ ٣٢٩ - ٣٣٠.

عليهم الملائكة من كل باب ﴿سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ ﴿٢٤﴾.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ عَهْدَ اللَّهِ لَا يَفْضَحُونَ أَلَيْسَ الْبَيْتَ﴾ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُؤُونَ بِالْحَسَنَةِ أُولَئِكَ لَمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٧﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٨﴾ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٩﴾ [الرعد: ٢٠ - ٢٤].

وانظر أخي المسلم إلى فضل الصبر فقد أقسم رب العزة سبحانه وتعالى وأكد أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم ويتجاوز عن سيئها.

قال تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ [النحل: ٩٦].

والله عز وجل لا يحسب للصابرين ثواب عملهم فقط بل يزدادون على ذلك، وأن ثوابهم الجنة. قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُولُوا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿١٠﴾ [الزمر: ١٠].

وانظر أخي المسلم إلى الصدق والصبر في أداء العبادات، فمن اتقى المحارم وفعل الطاعات فإنما هو من الصادقين المتقين الصابرين.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجْهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآلَتَيْنِ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ ﴿١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧].

وفي الصبر برّ وبلاء، ففيه إحسان إلى النفس البشرية حين تصمد وتصبر وتقاوم ما أصيبت به من مصائب وشدائد، فالمؤمن إذا صبر واحتسب مصيبة لوجه الله تعالى نال ثوابه، وإذا جزع ولم يصبر أثم وأتعب نفسه، فهو في بلاء عظيم. فصبر المؤمن رجاء منه أن يخلفه الله تعالى خيراً منها ويعوضه عن مصابه فإن الله لا يخيب رجاءه بل يعوضه خيراً منها.

عن أنس (رضي الله عنه) قال: مرّ النبي (ﷺ) بامرأة تبكي عند قبر فقال: اتقي الله واصبري، فقالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمصيبتي! ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي (ﷺ)، فأتت باب النبي (ﷺ)، فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى.

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: يقول الله تعالى: «ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفته من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة»^(١).

وفي الصبر رحمة ورضا ورجاء: رحمة بهذه النفس ألا تقع في المعاصي فتبتعد ولا تعذب في الدنيا والآخرة، في الدنيا من هم وحزن وغم وضيق لمن ارتكب المعصية، وعذاب مقيم مهين في الآخرة، فالله عز وجل قد رحم النفس الطائفة ورزقها الرضا والقناعة بما قسم الله، رجاء من صاحبها أن ينال رضا الله عز وجل والفوز بالجنة النعيم الدائم.

قال الشاعر:

والصبر في كل موطنٍ حَسَنٌ حَسْبَكَ مِنْ حَسَنِهِ عَوَاقِبُهُ^(٢)

والله عز وجل يمتحن عبده المؤمن دائماً مرة بالسراء وتارة بالضراء من خوف وجوع، وذهاب بعض الأموال، أو موت الأصحاب والأقارب والأحبة، وأعلمنا سبحانه وتعالى أنه مهما عظمت المصيبة وعظم البلاء فعلى المؤمن أن يصبر عند المصائب والشدائد وليسترجع قائلاً اللهم أجرنى في مصيبتى وأخلف لي خيراً منها. فإن الله تعالى يؤجره في مصيبتة ويخلف له خيراً منها. فعن الضحاك بن عبد الرحمن بن عازب عن أبي موسى قال: قال رسول الله (ﷺ): «قال الله: يا ملك الموت قبضت ولد عبدي، قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده؟ قال: نعم. قال: فما قال؟ قال: حمدك واسترجع. قال: ابنوا له بيتاً في الجنة وسّموه بيت الحمد»^(٣).

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالشَّرَارِ وَبَشِيرٍ الْبَصِيرَةِ﴾^(١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

وقد قرن الله عز وجل الصبر بالتقوى والتوكل عليه، فهو محيط بأعدائه فلا حول ولا قوة لهم إلا به. وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا يقع شيء في الوجود إلا بتقديره ومشيتته، ومن توكل عليه كفاه.

فشرور الأعداء كثيرة، وعداوتهم شديدة، فلا يسر الكفار والمنافقون ما يُصيب المؤمنين من خصب ونصر وتأيد، ويفرحون إذا أصابت المؤمنين مصيبة أو لحق بهم أذى.

قال تعالى: ﴿إِنْ تَسْكَبْتُمْ حَسَنَةً سَوْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمُ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا

(٢) التمثيل والمحاضرة، ٤١٥.

(١) رياض الصالحين، ٢٨.

(٣) تفسير ابن كثير، ١٨٨/١.

لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٢٠﴾ [آل عمران: ١٢٠].

ولا يزال المؤمن في بلاء عظيم. فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة»^(١).

والصبر مفتاح الفرج، وإزالة الكرب، وراحة النفس، وقوة البدن فهو يزيد إصراراً وعفة وثبات. فبالصبر تقوى خشية الله. وتوكل عليه، وهو خير للمؤمن لما فيه من الأجر والثواب العظيم.

وفي الصبر قال سويد السدوسي:

فأوصيكما يا ابني سدوس كلاكما بتقوى الله الذي أعطاكمما ويراكما
بشكر إذا ما أحدث الله نعمَةً وصبرٍ لأمرٍ الله فيما ابتلاكما
وقال:

أيا صاحبي إن رُميت أن تكسب العـ لا وترقى إلى العلياء غير مُزاحمٍ
عَلَيْكَ بحسن الصُّبر في كل حالةٍ فما صابرٌ فيما يرومُ بِناذِمٍ
وقال آخر:

هو الدهرُ قد جَرَّبْنُهُ وبلوئُهُ فَصَبْرًا على مكروهه وتَجَلَّدًا
وقيل: «ولما مات ذر الهمذاني جاء أبوه، فوجده ميتاً وكان موته فجأة، وعياله يكون عليه فقال: ما لكم، والله ما ظلمناه ولا قهرناه ولا ذهب لنا بحق ولا أصابنا فيه، ما أخطأ من كان قبلنا في مثله، ولما وضعه في حفرته قال: رحمك الله يا بني وجعل أجري فيك لك، والله ما بكيت عليك وإنما بكيت لك، فوالله لقد كنت بي باراً ولي نافعاً وكنت لي محباً، وما بي إليك من وحشة وما بي إلى أحد غير الله من فاقة، وما ذهبت لنا بعزة وما أبقيت لنا من ذل، ولقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك، يا ذر لولا هول المطلع لتمنيت ما صرت إليه، فليت شعري ماذا قلت، وماذا قيل لك، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إنك وعدت الصابرين على المصيبة ثوابك ورحمتك، اللهم وقد وهبت ما جعلت لي من الأجر إلى ذر صلة مني فلا تحرمني ولا تعرضه قبيحاً وتجاوز عنه، فإنك رحيم بي وبه: اللهم قد وهبت لك إساءته لي فهب لي إساءته إليك، فإنك أجود مني وأكرم، اللهم إنك قد

جعلت لك عليه حقاً وجعلت لي عليه حقاً قرنته بحقك، فقلت أشكر لي ولوالديك إليّ المصير. اللهم إني قد غفرت له ما قصّر فيه من حقي. فاغفر له ما قصر فيه من حقك، فإنك أولى بالجدود والكرم. فلما أراد الانصراف قال: يا ذر قد انصرفنا وتركناك، ولو أقمنا عندك ما نفعناك»^(١).

(١) المستطرف، ٥٨١/٢ - ٥٨٢.

فضل التسبيح

التسبيح لغة: قال ابن فارس: «سَبَحَ: السين والباء والحاء أصلان: أحدهما جنس من العبادة، والآخر جنس من السعي. فالأول: السُّبُحَة، وهي الصلاة، ويختصُّ بذلك ما كان نفلاً غير فرض. يقول الفقهاء: يجمع المسافر بين الصلاتين ولا يسبِّح بينهما؛ أي لا يتنفل بينهما بصلاة. ومن الباب التسبيح، وهو تنزيه الله جل ثناؤه من كل سوء، والتنزيه: التباعد. والعرب تقول: سبحان فيه كذا. أي ما أبعد. قال الأعشى:

أقول لما جاءني فخره سُبحان من علقمة الفاخر
وقال قوم: تأويله عجباً له إذا يفخر. وهذا قريب من ذاك لأنه تبعيدٌ له من الفخر. وفي صفات الله عز وجل: سُبُوح، واشتقاقه من الذي ذكرناه أنه تنزه من كل شيء لا ينبغي له. والسُّبُحات الذي جاء في الحديث^(١): جلال الله جل ثناؤه وعظمته^(٢)!

التسبيح طاعة قوية عظيمة، وعبادة جليلة، والله جل ثناؤه يحبُّ من يسبِّح له. والواجب على عبد الله المؤمن أن يكون في تسبيحه لله على هدي مستقيم، فيسبِّحه وينزِّهه عن كل ما لا يليق بجلال قدره من النقائص والعيوب ويثبت له مع ذلك نعوت جلاله وصفات كماله، ولا يتجاوز في ذلك كله كتاب الله عز وجل وستة نبيه (ﷺ).

والتسبيح إنَّما يكون بثمرته الله وتنزيهه عن كل سوء وعيب، مع إثبات المحامد وصفات الكمال له سبحانه، على وجه يليق به، والتسبيح يجب أن يكون وفق الضوابط الشرعية، وعلى ضوء الأدلة النقلية، وليس على الأهواء المجردة، أو الظنون الفاسدة، أو المقاييس العقلية الكاسدة.

عن أبي هريرة (رضي الله عنه)، قال: قال رسول الله (ﷺ): «أحبُّ الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. لا يضرك بأيهن بدأت»^(٣).

(١) «إن الله دون العرش سبعين حجاباً لو دنونا من أحدهما لأحرقتنا سبحات وجه ربنا».

(٢) مقاييس اللغة، ٣/١٢٥. (٣) الترغيب والترهيب، ٢/٤٢٤.

وعن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) قال: إذا حدثتكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك في كتاب الله: إن العبد إذا قال سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وتبارك الله قبض عليهن ملك فضمنهن تحت جناحه، وصعد بهن لا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يُحيّا بهنَّ وجهُ الرَّحمن ثم تلا عبد الله: إليه يصعد الكلمُ الطيب والعملُ الصالح يرفعه»^(١).

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْيِدُ الْغَزَا فَلَهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ النَّجَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠].

فكلمة سبحان الله لها شأن عظيم فهي من أجل الأذكار المقربة إلى الله تعالى، ومن أفضل العبادات الموصلة إليه، وقد ورد فضلها وشرفها وعظم قدرها نصوص كثيرة في كتاب الله وسنة نبيه، فقد وردت في القرآن الكريم بصيغ مختلفة (ماضي، مضارع، أمر، ومصدر)، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَبِيراً﴾ [١] وَسَيِّئُهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً [٢] [الأحزاب: ٤١ - ٤٢].

وقال: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١].

وقال: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجمعة: ١].

وقال: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [٣] وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ [٤] وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [٥] [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢].

فالله سبحانه ينزه نفسه ويقدها ويبرئها عما يقول الظالمون المكدبون المعتدون تعالى وتنزه وتقدس عن قولهم علواً كبيراً ولهذا قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ أي ذي العزة التي لا ترام ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي عن قول هؤلاء المعتدين المفتريين، ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ [٦] أي سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة لسلامة ما قالوه في ربهم وصحته وحقيقته. ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٧] أي له الحمد في الأولى والآخرة في كل حال، ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة ويستلزم إثبات الكمال كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة ويستلزم التنزيه من النقص قرن بينهما في هذا الموضع وفي مواضع كثيرة من القرآن ولهذا قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [٨] وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ [٩] وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [١٠] ^(٢).

(٢) تفسير ابن كثير، ٢٦/٤.

(١) الترغيب والترهيب، ٤٣٣/٢.

وقد ذكر الله - سبحانه وتعالى - التسبيح في مفتح ثمان سور من القرآن الكريم (سورة الإسراء، النحل، الحديد، الحشر، الصف، الجمعة، التغابن، الأعلى).

قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِزَيَارَتِهِ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١].

وقال بعض أهل العلم: والتسبيح ورد في القرآن على نحو أربعة وثلاثين وجهاً، تسعة منها للملائكة، وتسعة لنبيينا محمد (ﷺ)، وأربعة لغيره من الأنبياء، وثلاثة للحيوانات والجمادات، وثلاثة للمؤمنين خاصة، وستة لجميع الموجودات.

أما التي للملائكة فمنها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَمْجُلُونَ الْأَرْضَ مِنَ حَوْلِهِمْ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ [غافر: ٧].

وقال: ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾

[فصلت: ٣٨].

وقال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأنبياء: ١٩ - ٢٠].

وقال: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الصافات: ١٦٥ - ١٦٦].

وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠].

وقال: ﴿وَيَسْبِغُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ﴿١٣﴾﴾ [الرعد: ١٣].

وقال: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيَاتٍ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر: ٧٥].

وقال: ﴿كَأَنَّ السَّمَوَاتِ يَنْقَطَرْنَ مِنْ قَدَرِهَا وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الشورى: ٥].

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

قال (ﷺ): «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت الأرض مسجداً، وتربيتها طهوراً». وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ أي نصطف فنسبح الرب ونحمده ونقدسه وننزهه عن النقائص فنحن عبيد له فقراء إليه خاضعون لديه.

وأما التي لبنينا (ﷻ) فمنها قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (٩٨) وَاَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩) [الحجر: ٩٨ - ٩٩]. وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ (١٠٠) [الإنسان: ٢٦] وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (١٠١) [النصر: ٣].

أما التي للمؤمنين فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ (١٠٢) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (١٠٣) [الأحزاب: ٤١ - ٤٢].

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (١٠٤) [السجدة: ١٥].

وقوله: ﴿فِي يَوْمٍ أَدْنَىٰ أَنَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْقُدُورِ وَالْأَصَالِ﴾ (١٠٥) رَجَالٌ لَا لَّهُمْ فِيهَا بَحْرٌ وَلَا يَبْعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَلَا فَاةُ الصَّلَاةِ [النور: ٣٦ - ٣٧].

وأما التي للأنبياء فقوله تعالى لذكرها (عليه السلام): ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادُّكِرَ رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعُشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ (١٠٦) [آل عمران: ٤١].

وقوله عن سيدنا يونس (عليه السلام): ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ (١٠٧) لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٨) [الصافات: ١٤٣ - ١٤٤].

وأما التي في الحيوانات والجمادات فمنها قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا خَلْقًا عَفُورًا﴾ (١٠٩) [الإسراء: ٤٤].

وقوله: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ (١١٠) وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١١١) [ص: ١٨ - ١٩].

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَفَثٌ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (١١٢) [النور: ٤١].

وأما التي لعموم المخلوقات فمنها قوله: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١١٣) [الحشر: ١]. وقوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١١٤) [التغابن: ١].

وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم لفظة (سبحان) وهي مفعول مطلق، في واحد وأربعين موضعاً، ليدل على فضل التسبيح، فسبحان من أفاض على عباده النعمة، وكتب

على نفسه الرحمة، سبحانه وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته. وقد جاء لفظ التسبيح هنا على أشكال ثلاثة (سبحان، سبحانك، سبحانه) قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْإِسْرَاءِ﴾ [١].

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [١١٦].

وقال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

وورد في الحديث النبوي الشريف ذكر فضل التسبيح والتحميد. فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم».

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: «ومن قال سبحان الله وبحمده، في يوم مائة مرة غُفرت له ذنوبه، وإن كانت مثل زبد البحر»^(١).

وللتسبيح صلاة رغب فيها رسول الله (ﷺ) فمن أداها فقد خصه الله تعالى بفائدة جليلة وهبة جزيلة الثواب كثيرة الأجر. فعن عكرمة عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله (ﷺ) للعباس بن عبد المطلب: «يا عباس يا عماء ألا أعطيك. ألا أمنحك، ألا أحبك. ألا أفعل بك عشر خصال إذا أنت فعلت ذلك غفر الله لك ذنبك أوله وآخره، قديمه وحديثه، وخطأه وعمده، وصغيره وكبيره، وسره وعلايته، عشر خصال: أن تصلي أربع ركعات تقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب وسورة، فإذا فرغت من القراءة في أول ركعة فقل وأنت قائم: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر خمس عشر مرة، ثم تركع فتقول وأنت رافع عشرًا، ثم ترفع رأسك من الركوع فتقولها عشرًا، ثم تهوي ساجدًا فتقول وأنت ساجد عشرًا، ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشرًا، ثم تسجد فتقولها عشرًا، ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشرًا، فذلك خمس وسبعون في كل ركعة تفعل ذلك في أربع ركعات. وإن استطعت أن تصلها في كل يوم مرة فافعل، فإن لم تستطع ففي كل جمعة مرة، فإن لم تفعل ففي كل شهر مرة، فإن لم تفعل ففي كل سنة مرة، فإن لم تفعل ففي عمرك مرة»^(٢).

(١) الترغيب والترهيب، ٢/٤٢١ - ٤٢٢. (٢) م.ن.، ١/٤٦٧ - ٤٦٨.

فضل المغفرة وطلبها

يقول ابن فارس في معنى غفر: «الغين والفاء والراء عظم بابيه السَّتر، فالغُفر: السَّتر. والغُفران والغُفر بمعنى. يقال: غفر الله ذنبه غفراً ومغفرةً وغفراناً، قال في الغُفر»:

فِي ظِلِّ مَنْ عَنَتِ الْوُجُوهُ لَهُ مَلِكُ الْمُلُوكِ وَمَالِكُ الْغُفَرِ^(١)

وعن المغفرة والاستغفار قال أبو عبد الله الوراق: لو كان عليك من الذنوب مثل عدد القطر وزيد البحر محيت عنك إذا استغفرت بهذا الاستغفار، وهو هذا: اللهم إني أسألك واستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه عدت فيه، واستغفرك من كل ما وعدتك من نفسي ثم لم أوف لك به، واستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطه غيرك، واستغفرك من كل نعمة أنعمت بها علي فاستعنت بها على معصيتك، يقول الله عز وجل لملائكته: ويح ابن آدم يذنب الذنب ثم يستغفرني فأغفر له، ثم يذنب الذنب فيستغفر لي فأغفر له لا هو يترك الذنب من مخالفتي ولا ييأس من مغفرتي، أشهدكم يا ملائكتي إني قد غفرت له^(٢).

وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله (ﷺ): «مَنْ لَزِمَ الْاسْتِغْفَارَ، جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجاً، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرْجاً، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ»^(٣).

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ فَرَحٌ وَإِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُبْصِرُوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُكُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيَعْمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥ - ١٣٦].

فهؤلاء الذين إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار، فتابوا من ذنوبهم ورجعوا إلى الله عن قريب ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مقلعين عنها، ولو تكرّر منهم الذنب تابوا منه.

(٢) المستطرف، ٥٥٨/٢.

(١) مقاييس اللغة، ٣٨٥/٤.

(٣) رياض الصالحين، ٦٥٢.

فعن أبي سعيد (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: «قال إبليس: يا رب وعزتك لا أزال أغوي بني آدم ما دامت أرواحهم في أجسادهم فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني»^(١).

عن أنس (رضي الله عنه) في قوله عز وجل: ﴿فَلَقَّءَادَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ قال: قال: «سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوءاً، وظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً، وظلمت نفسي فارحمني إنك أنت أرحم الراحمين، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً، وظلمت نفسي فتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم»، وذكر أنه عن النبي (ﷺ) ولكن شك فيه. رواه البيهقي، وفي إسناده من لا يحضرني حاله^(٢).

إن فضل الله واسع وخزائنه لا تنفد، وعطاءه جزيل لا ينقصه أي عطاء وإن جلّ، وإن إرادته نافذة وأمره صارم، فلا يحصل خير إلا بأمره. فأمره بين الكاف والنون إذا أراد لشيء أن يقول له كن فيكون. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

والاستغفار هو البلمس الشافي لإزالة الآثام، وهادم لغوايات إبليس ومحطم إضلاله، كما يزيل الكروب ويوسع الأرزاق ويقضي الله به الحاجات، قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كَانَتْ غَفَّارًا﴾ ١٠ ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ ١١ ﴿وَيُمَدِّدُ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِي وَجَعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [توح: ١٠ - ١٢].

فتوبوا إلى الله واعبدوه واتقوه ليجلب لكم المنح، يرسل لكم المطر كثير الدرور والهطول فيشرب منه جميع المخلوقات، ويبارك لكم في أولادكم وأرزاقكم، وتتمتعون برغد العيش والبساتين النضرة، والمياه العذبة.

والاستغفار يطهر صحيفة العبد من الأخطاء، فمن يكثر منه تسره صحيفته، وطوبى له، عن الزبير (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: «من أحب أن تسره صحيفته فليكثر فيها من الاستغفار».

والاستغفار ينظف القلب عن الغفلة ويجلوه من صدأ النسيان ويبعد الران الذي يحجب أنوار الله. فعن أنس (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: «إن للقلوب صدأ كصدأ النحاس وجلالوها الاستغفار»^(٣).

(٢) الترغيب والترهيب، ٢/ ٤٧١ - ٤٧٢.

(١) تفسير ابن كثير، ١/ ٣٨٥.

(٣) م.س. ٢، ٤٦٩.

والإكثار من الاستغفار يمجّد الله ويدعوه باسمائه العظمى، وبدا يغفر الله للمستغفر وإن كان فرّ من الزحف، فعن بلال بن يسار بن زيد (رضي الله عنه) قال: حدثني أبي عن جدي أنه سمع النبي (ﷺ) يقول: «من قال: استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، وأتوب إليه غفر له، وإن كان فرّ من الزحف» (١).

كما يطلب الله عز وجل منا أن نتوب إليه ونستغفره، فإن في التوبة والاستغفار أمن وأمان في العيش وسعة ودعة، ويعطي الله عز وجل كل ذي فضل في دينه وجزاء فضله في الدنيا والآخرة. هو وعد للموحد التائب بخير الدارين.

قال تعالى: ﴿الرَّ كُنْتُ أَهَكَّتْ مَا بَيْنَهُمْ ثُمَّ فُتِلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنِّي لَكُرْ مِّنْهُ نَذِيرٌ ۚ وَيَسِيرٌ ۝ وَإِنْ أَسْتَفْغَرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ يَجْعَلْ لَهُمْ مَخْرَجًا ۚ وَسَبَّحْتَ عَلَى كُلِّ ذِي فَضْلٍ فَضْلُهُ ۚ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ [هود: ١ - ٤].

فالعذاب وسوء العاقبة والهلاك لمن لا يقوم بالاستغفار، فتركه مصيبة وكارثة على الغافل عن الله، فهي تهلكة قاصمة للظهر، مسببة للويل.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ۝ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ۝﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٧].

وانظر أخي المسلم إلى قوم عيسى (عليه السلام) حين ارتكبوا ذنباً عظيماً بإدعائهم أن المسيح هو ابن الله ورغم هذا الذنب العظيم وهذا الافتراء والكذب والإفك فإن الله عز وجل يدعوهم إلى التوبة والاستغفار فكل من تاب إليه تاب الله عليه.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثُلُثٍ وَمِنْ إِلَهِ إِلَهِ ۚ وَإِلَهِ إِلَهِ ۚ وَإِنْ لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾ [المائدة: ٧٣ - ٧٤].

وانظر إلى المؤمنين الذين يستغفرون ربهم، والصابرين في قيامهم بالطاعات وتركهم المحرمات، والصادقين فيما أخبروا به من إيمانهم بما يلتزمون من العمل الشاق. والقانتين الطائعين، والمنفقين في سبيل الله، وصلة الرحم ومواساة ذوي الحاجات، والمستغفرين

(١) الترغيب والترهيب، ٢/ ٤٧٠.

بالأسحار، فقد دلّ عز وجل على فضل الاستغفار وقت السحر. فقد ثبت عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: «ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فاستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له».

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامِنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝۱۶﴾ [آل عمران: ١٦ - ١٧].

والذين آمنوا وصدّقوا بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء، الصادقون الراشدون المهديون الهادون إلى سبيل الخير، الذين يسمعون القول فيتبعون أحسنه، والذين امثلوا للعمل بما جاء به الله ورسوله، يسألون الله المغفرة والرحمة واللطف، على ما ارتكبوا من ذنب سواء من جهة النسيان أو الخطأ أو فعلوا حراماً جهلاً منهم بالوجه الشرعي، فاعف عنا فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا، واغفر لنا فيما بيننا وبين عبادك فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة، وأرحمنا فيما يستقبل فلا توقعنا بتوفيئك في ذنب آخر، فالمذنب يحتاج إلى ثلاثة أشياء: أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه، وأن يستره عن عباده فلا يفضح به بينهم، وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره. فإن الله مولى وناصر من توكل عليه واستعان به.

قال تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَمَلٰٓئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يَفْرِقُونَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝۱۸۵﴾ لَا يَكْلِفُ اللّٰهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا إِنَّكَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝۱۸۶﴾ [البقرة: ٢٨٥ - ٢٨٦].

وانظر أخي المسلم إلى العاصي الذي يأتي طالباً الرحمة والغفران، فقد روي عن العتبي أنه قال: كنت جالساً عند قبر النبي (ﷺ) فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: «ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً». وقد جئتكَ مستغفراً لذنبي مستشفعاً بك إلى ربي ثم أنشأ يقول:

يا خيرَ مَنْ دُفِنَتْ بِالْقَاعِ أعْظَمُهُ فطابَ مِنْ طَيِّبِهِنَّ الْقَاعُ والأَكْمُ
نَفْسِي الفداء لِقَبْرِ أَنْتَ سَاكِئُهُ فِيهِ العَفَاُ فِيهِ الجُودُ وَالْكَرْمُ
ثم انصرف الإعرابي فغلبتني عيني فرأيت رسول الله (ﷺ) في النوم فقال: يا عتبي

الحق الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له^(١).

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

فالله عز وجل يخبرنا عن عفوه وكرمه، وحلمه وسعة رحمته ومغفرته، فمن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيراً، أو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُمْ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها وإن كانت مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر إلا من مات كافراً بالله ولم يتب. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [محمد: ٣٤].

ويقول الله عز وجل: ﴿وَلِيَّ لَفْقَارٍ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [آل عمران: ٨٢].

أي أن الله سبحانه وتعالى غفار لمن تاب إليه، ورجع عن ذنبه - حتى أن الله تعالى تاب على من عبد العجل من بني إسرائيل - فكل من تاب ورجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو معصية أو نفاق، وآمن بقلبه. وعمل صالحاً بجوارحه، ثم اهتدى؛ أي استقام على السنة والجماعة، ولزم الإسلام حتى مات. تاب الله عليه وغفر له ذنوبه، وجزاه خيراً.

وهذه دعوة من الله سبحانه وتعالى بالإكثار من الاستغفار والذكر في أمورنا كلها؛ لأنه جل وعلا غفور رحيم لمن تاب إليه واستغفره.

قال تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

(١) تفسير ابن كثير، ٤٩٢/١.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

يقول ابن فارس في معنى لفظة الأمر: «الأمر الذي هو نقيض النهي قولك إفعل كذا. قال الأصمعي: يقال: لي عليك أمرة مطاعة، أي لي عليك أن آمرك مرة واحدة فتطيعني. قال الكسائي: فلان يؤامر نفسه: أي نفس تأمره بشيء ونفس تأمره بآخر. وقال: إنه لأمر بالمعروف ونهي عن المنكر»^(١).

وقال في موضوع العرف: «العرف: المعروف، وسمي بذلك لأن النفوس تسكن إليه: قال النابغة:

«أبى الله إلا عدله وفاءه فلا النكر معروف ولا العرف ضائع»^(٢)
وقال في مادة نكر: «نكر الشيء أنكره: لم يقبله قلبه ولم يعترف به لسانه»^(٣).

قال الله عز وجل: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلَ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

والمعنى أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس، قال رجل إلى النبي (ﷺ) وهو على المنبر: «يا رسول الله أي الناس خير؟ قال: خير الناس أقراهم لله وأتقاهم وأمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم». وقال رسول الله (ﷺ) أيضاً: «أعطيت ما لم يُعط أحدًا من الأنبياء. فقلنا يا رسول الله ما هو؟ قال: نصرت بالرعب، وأعطيت مفاتيح الأرض، وسميت أحمد وجعل التراب لي طهوراً، وجعلت أمتي خير الأمم»^(٤).

وقال أيضاً: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»^(٥).

(٢) م.ن.، ٢٨١/٤.

(٤) تفسير ابن كثير، ٣٦٩/١.

(١) مقاييس اللغة، ١٣٧/١.

(٣) م.ن.، ٤٧٦/٥.

(٥) الترغيب والترهيب، ٢٢٣/٣.

والمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، وأنهم متراحمون متعاضدون متناصرون مثلهم كما قال رسول الله (ﷺ): «في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». وأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويطيعون الله عز وجل ويحسنون إلى خلقه، يطيعون فيما أمر ويتركون ما عنه زجر.

قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وانظر أخي المسلم إلى صفات المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم، التائبون من الذنوب كلها التاركون للفواحش، القائمون بعبادة ربهم المحافظون عليها قولاً وعملاً، النافعون خلق الله عز وجل المرشدون إياهم إلى طاعته، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركه. المحافظون لحدود الله في تحليله وتحريمه علماً وعملاً فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَئِكَ أَكْرَمُوا وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدِّينَ مِنَ الدُّنْيَا أُولَئِكَ أَكْرَمُوا وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدِّينَ مِنَ الدُّنْيَا أُولَئِكَ أَكْرَمُوا وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدِّينَ مِنَ الدُّنْيَا أُولَئِكَ أَكْرَمُوا﴾ [التوبة: ١١٢].

وانظر أخي المسلم لحال المؤمنين بعد أن أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن قالوا ربنا الله ثم مكنهم الله في الأرض فأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَئِكَ أَكْرَمُوا وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدِّينَ مِنَ الدُّنْيَا أُولَئِكَ أَكْرَمُوا وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدِّينَ مِنَ الدُّنْيَا أُولَئِكَ أَكْرَمُوا﴾ [الحج: ٤١].

وانظر أخي المسلم إلى قول الله عز وجل مخبراً عن وصية لقمان لولده وهو لقمان بن عنقاء بن سدود واسم أبيه تاران وقد ذكره الله تعالى بأحسن الذكر وأنه أتاه الحكمة وهو يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً وأن الشرك بالله أعظم الظلم. وأوصاه بوالديه خيراً وأن يطيعهما، ولا يطيعهما في معصية للخالق، وأن يصاحبهما بالمعروف، وأمره بإقامة الصلاة بحدودها وفروضها وأوقاتها. وأمر أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حسب طاقته وجهده، وأمره بالصبر، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيه مشقة وأذى من قبل الناس.

قال تعالى: ﴿وَلَا قَالُ لَقَمْنُ لِآتِيهِ وَهُوَ يَعْطُهُ يَبْنَى لَا شَرِكَ بِاللَّهِ إِنَّكَ الشَّرِكُ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَلَّةً أُمُّهُ وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ١٤ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ١٥ يَبْنَى إِنَّهَا إِنْ نَكَ مِنْقَالًا حَبْرًا مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَكِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ١٦ يَبْنَى أَفَرِ الصَّلَاةَ وَأَمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبَرَ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ١٧﴾ [لقمان: ١٣ - ١٧].

وانظر أخي المسلم إلى قوله تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل فيما أنزله على داود نبيه (عليه السلام) وعلى لسان عيسى بن مريم (عليه السلام) بسبب عصيانهم لله واعتدائهم على خلقه، لعنوا في التوراة والإنجيل والزبور وفي الفرقان، ثم بين حالهم فيما كانوا يعتمدونه في زمانهم فقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ٧٩﴾ [المائدة: ٧٩].

قال الإمام أحمد (رحمه الله) حدثنا يزيد حدثنا شريك بن عبد الله عن علي بن بزيمة عن أبي عبيدة عن عبد الله قال: قال رسول الله (ﷺ): «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماءهم فلم ينتهوا ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم «ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون» وكان رسول الله (ﷺ) متكئاً فجلس فقال: «لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً»^(١).

وإن أخوف ما يخافه رسولنا الكريم (ﷺ) منافقاً عالم اللسان يقول ما يعرفه الناس ويعمل ما ينكرونه. فعن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «إني لا أتخوف على أمتي مؤمناً، ولا مشركاً، أما المؤمن فيحجزه إيمانه، وأما المشرك، فيقيمعه كفره، ولكن أتخوف عليكم منافقاً عالم اللسان يقول ما تعرفون، ويعمل ما تنكرون»^(٢).

وعن أبي زيد أسامة بن زيد بن حارثة (رضي الله عنهما) قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «يؤتى بالرجل يوم القيامة يُلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار في الرحا، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان مالك؟ ألم تك تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت آمر بالمعروف ولا آتبه، وأنهى عن المنكر وآتبه»^(٣).

(٢) الترغيب والترهيب، ٣/٢٣٦.

(١) تفسير ابن كثير ٧٩/٢.

(٣) رياض الصالحين، ٩٧.

وهذا ما ورد من قبل نبي الله شعيب (عليه السلام) في رده على قومه قائلاً: يا قوم إن كنت على بصيرة فيما أدعو إليه ورزقني الله النبوة أو الرزق الحلال، فلا أنهاكم عن الشيء وأخالف أنا في السر فأفعله خفية عنكم، أي لم أكن أنهاكم عن أمر وأرتكبه، فإنني فيما أمركم وأنهاكم إنما أريد إصلاحكم جهدي وطاقتي.

قال تعالى: ﴿قَالَ يَتَوَلَّى آدَمُ عَلَى يَدَيْهِ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنْهَكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

ومن سير العلماء وعاداتهم في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وقلة مبالاتهم بسطوات السلاطين إيثاراً لإقامة حق الله تعالى على تقائهم، إلا أن السلاطين كانوا يعرفون حق العلم وفضله فيصبرون على مضض مواعظ هؤلاء.

قال قتادة: خرج عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) من المسجد ومعه الجارود، فإذا امرأة برزت على الطريق، فسلم عليها، فردت عليه، أو سلمت عليه، فرد عليها. فقال: هيه يا عمر... عهدتك وأنت تسمى عميراً في سوق عكاظ تصارع الصبيان، فلم تذهب الأيام حتى سميت عمر، ثم لم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين، فأنتق الله في الرعية، واعلم أنه من خاف الموت خشى القوت، فبكى عمر (رضي الله عنه)، فقال الجارود: هيه.. لقد تجرأت على أمير المؤمنين وأبكتيه. فقال عمر: دعها، أما تعرف هذه؟ هي خولة بنت حكيم التي سمع الله قولها من فوق سماواته، فعمر والله أخرى أن يسمع كلامها.

وقال محمد بن كعب لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، إنما الدنيا سوق من الأسواق، منها خرج الناس بما يضرهم وما ينفعهم، وكم من قوم غرهم منها مثل الذي أصبحنا فيه، حتى أتاهم الموت فاستوعبهم فخرجوا منها ملومين لم يأخذوا منها لما أحبوا من الآخرة عذة، ولا لما كرهوا منها جنة، واقتسموا ما جمعوا من لم يحمدهم، وصاروا إلى من لا يعذرهم فنحن محقوقون يا أمير المؤمنين أن ننظر إلى تلك الأعمال التي نغبطهم بها فنخلفهم فيها، وإلى الأعمال التي تتخوف عليهم فيها فنكف عنها، فأنتق الله، وافتح الأبواب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم، ورد الظالم، ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله عز وجل: إذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب لم يخرج غضبه من الحق، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له^(١).

(١) مختصر منهاج القاصدين، ١١٦ - ١١٨.

فضل التقوى

يقول ابن فارس في مادة وقي: «الواو والقاف والياء كلمة واحدة تدل على دفع شيء عن شيء بغيره، ووقيته أقيه وقياً. والوقاية: ما يقي الشيء، واتق الله: توقه، أي اجعل بينك وبينه كالوقاية، قال النبي (ﷺ): «اتقوا النار ولو بشق تمرّة». وكأنه أراد: اجعلوها وقاية بينكم وبينها»^(١).

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

قال (ﷺ): «اتقوا الله حق تقاته» أن يطاع فلا يُعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى». وروي عن أنس قال: «لا يتقي الله العبد حق تقاته حتى يخزن لسانه».

ويقول الله تعالى أمراً عباده المؤمنين بتقواه وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه وأن يقولوا قولاً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك أثابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم أي يوفقهم للأعمال الصالحة وأن يغفر لهم الذنوب الماضية، وما قد يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ وذلك بأن يُجار من نار الجحيم ويصير إلى النعيم المقيم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [٧١] ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [٧٢]. [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

وعلى المؤمن أن يخشى ربه ويعبده حق عبادته ويطيعه بما أمر، ويطيع رسوله ويجتنب ما نهى عنه وزجر. فعليه أن يخشى الله فيما مضى من ذنوبه ويتقه فيما يستقبل، فالمؤمن يكون آمناً من كل شر في الدنيا والآخرة، ويفوز برضا الله والجنة.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

(١) مقاييس اللغة، ١٣١/٦.

وانظر أخي المسلم لما أعدّه الله للمتقين، جنات تجري من تحتها الأنهار، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (١٥) [آل عمران: ١٥].

وقال أيضاً: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٣) (١).

وقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾ (٢٤) [القلم: ٣٤].

فإن من اتقى الله عز وجل وأطاعه في الدار الآخرة جنات النعيم التي لا تبيد ولا تفرغ ولا ينقضي نعيمها.

وكانت جنة الخلد قد وعد الله بها المتقين الذين أطاعوه في الدنيا وجعل مآلهم إليها لهم فيها ما يشاءون من مأكّل ومشرب وملبس ومسكن ومنظر، ولا ييغون عنها حولاً وهذا من وعد الله الذي تفضل به عليهم وأحسن به إليهم، وكان وعده واجباً.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَذَلِكْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾ (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا (١٦) [الفرقان: ١٥ - ١٦].

وانظر إلى حال السعداء المؤمنين المتقين حين يساقون على النجائب وفدأ إلى الجنة جماعة بعد جماعة، المقربون ثم الأبرار ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء والصديقون مع أشكالهم، والشهداء مع أضرابهم، والعلماء مع أقرانهم، كل صنف مع صنف كل زمرة تناسب بعضها بعضاً، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون ولا يمتخطون فيها ولا يتغوطون فيها، آتيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ومجامرهم الألوة ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مسخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد يستحون الله تعالى بكرة وعشيّاً» (٢).

قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا

(٢) تفسير ابن كثير، ٦٧/٤.

(١) م. ن. ١٣٢.

وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طُبِّئَتْ فَأَدْخَلُوهَا خِلْدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ [الزمر: ٧٣ - ٧٤].

وقال أيضاً: ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُمْ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴿١١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا ﴿١٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾﴾ [مريم: ٦١ - ٦٣].

والإنسان في حاجة دائمة للملبس والمأكل والمشرب، فعليه أن يتزود حتى يقوى جسمه ويتقوى على الطاعات، هذا في الدنيا، وخير الزاد هو زاد الآخرة، فيه يتزود في الدنيا فينفعه في الآخرة.

قال رسول الله (ﷺ): «من يتزود في الدنيا ينفعه في الآخرة»، وقال: «تزود ما تكف به وجهك من الناس وخير ما تزودتم التقوى»^(١). وكذلك فإن اللباس الحسي في الدنيا تنبيه لنا أما اللباس المعنوي في الآخرة وهو الخشوع والطاعة والتقوى فهو خير وأنفع.

قال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ فَمَنْ رَزَقَ فِيهِكَ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَكَزَّوْدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقال: ﴿يَبْنَیْءَ آدَمَ قَدْ أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ لِيَاسًا يُؤْرَىٰ سَوَاءَ تَكُمُ وَرِيثًا وَلِيَاسَ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ مَّائِنَةِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٦].

اعلم أخي المسلم أن الله تعالى لا ينظر إلى الأحساب والأنساب، وهذا فقير وهذا غني، فالناس جميعاً شعوباً وقبائل إنما هم في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء عليهما السلام سواء وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية وهي طاعة الله تعالى ومتابعة رسوله (ﷺ)، فالناس يتفاضلون بالتقوى لا بالأحساب. فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: سئل رسول الله (ﷺ) أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله اتقاهم». وقال: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». وقال رسول الله (ﷺ): «انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى الله». وقال: «المسلمون إخوة لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى»^(٢).

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ

(١) تفسير ابن كثير، ١/٢٢٧.

(٢) م.س. ٤، ٢١٨ - ٢١٩.

أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَيْرٌ ﴿١٣﴾ [الحجرات: ١٣].

وكان رسولنا الكريم (ﷺ) كثيراً ما يرفع كفيه متضرعاً إلى الله سبحانه يسأله الهدى والعفاف والتقوى والغنى، فعن ابن مسعود (رضي الله عنه) أن النبي (ﷺ) كان يقول: «اللهم إني أسألك الهدى والتقوى والعفاف والغنى». رواه مسلم^(١).

(١) رياض الصالحين، ٤٤.

حب العدل

يقول ابن فارس في مادة عَدَل: «العَدْل نقيض الجَوْر، تقول: عدل في رعيته. ويوم معتدل، إذا تساوى حالاً حرّه وبرده، وكذلك في الشيء المأكول. ويقال: عدلته حتى اعتدل؛ أي أقمته حتى استقام واستوى. قال:

صَبَحْتَ بِهَا الْقَوْمَ حَتَّى أَمْتَسَكَ بِتِ بِالْأَرْضِ تَغْدِلُهَا أَنْ تَمِيلَا^(١)

وقال في مادة قسط: «القاف والسين والطاء أصل صحيح يدل على معنيين متضادين والبناء واحد فالقسط: العدل. ويقال منه أقسط يُقسط. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، والقسط بفتح القاف: الجور، والقُسط: العُدول عن الحق. يقال: قسط، إذا جازَ يقسطُ قُسْطاً^(٢).

اعلم أرشدك الله إن الله تعالى أمر بالعدل، ثم علم سبحانه وتعالى أنه ليست كل النفوس تصلح على العدل بل تطلب الاحسان وهو فوق العدل فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ إِنِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ عَلِيمٌ﴾. [النحل: ٩٠].

فلو وسع الخلائق العدل ما قرن الله به الإحسان، والعدل ميزان الله تعالى في الأرض الذي يؤخذ به للضعيف من القوي والمحق من المبطل، واعلم أن عدل الملك يوجب محبته، وجوره يوجب الافتراق عنه، وأفضل الأزمنة ثواباً أيام العدل. قال (عليه السلام): «عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة».

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله تعالى، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه، وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة، فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه،

(١) مقاييس اللغة، ٢٤٧/٤.

(٢) م.ن.، ٨٥/٤ - ٨٦.

ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»^(١).

وعن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنه قال لكعب الأحبار: «أخبرني عن جنة عدن، قال: يا أمير المؤمنين لا يسكنها إلا نبي أو صديق أو شهيد أو إمام عادل، فقال عمر: والله ما أنا نبي، وقد صدقت رسول الله (ﷺ)، وأما الإمام العادل، فإني أرجو أن لا أجور، وأما الشهادة فأني لي بها. قال الحسن: فجعله الله صديقاً شهيداً حكماً عادلاً»^(٢).

وأخبرنا ربُّ العزة سبحانه وتعالى في محكم آياته أنه أمر رسوله الكريم محمد (ﷺ) بالحكم بالعدل بين الناس.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَكَ فَادَعٌ وَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَلْجِ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

وطلب الله من رسوله الكريم أن يحكم بالحق والعدل وإن كانوا ظلمة خارجين عن طريق العدل. قال تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ لِلْكَذِبِ أَكْثَلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

وأمرنا الله سبحانه وتعالى بالعدل والاستقامة في عبادته، فلا بد أن يكون العدل والاستقامة موافقين للشريعة وأن يكون خالصاً من الشرك.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وقد كرر الله تعالى طلبه إلينا بالعدل بين الناس في كثير من الآيات القرآنية، وخصوصاً العدل عند الحكام.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نَبِئًا نَعِيمًا يَعْظُمُ بِهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

وطلب إلينا العدل وحببه إلينا وجعله أقرب للتقوى، وأمرنا باستعمال العدل في كل أحد صديقاً كان أو عدواً، وأن عدلنا أقرب للتقوى من تركه.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ

(١) رياض الصالحين، ٢٦١. (٢) المستطرف في كل فن مستطرف، ٢٢٧/١.

قَوْمٍ عَلَىٰ إِلَّا نَقَدِلُوا أُعْذِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾
[المائدة: ٨].

وانظر إلى عدل الخالق عز وجل في جزائه لمن آمن وعمل صالحاً، فيجزيه جزاء عادلاً وافياً.

قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١﴾﴾
[يونس: ٤].

وانظر أخي المسلم إلى من لم يحكم بما أنزل الله تعالى، فقد عذبه الله عز وجل في زمرة الكافرين، الظالدين، الفاسقين. فهم جحدوا حكم الله قصداً منهم وعناداً وعمداً، وأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم في الأمر الذي أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه فخالفوا وظلموا وتعدوا على بعضهم بعضاً.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبِّيُّونَ وَالْأَخْيَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوُا اللَّهَ إِنَّمَا يُرِيتُمْ بُطَانًا قَلِيلًا وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ وَكَلَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ مَائِدِهِمْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٦﴾ وَلَيَحْكُمَنَّ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة: ٤٤ - ٤٧].

وانظر عدل الله عز وجل ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه وآمن به وأيقن وعلم أن الله أحكم الحاكمين وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها فإنه تعالى هو العالم بكل شيء القادر على كل شيء العادل في كل شيء.

قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠].

فالله عز وجل أحكم الحاكمين لا يجور ولا يظلم أحداً ومن عدله أن يقيم القيامة فينتصف للمظلوم في الدنيا ممن ظلمه. قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعَزَّ الْهَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ [التين: ٨].

وقد ورد عن أبي هريرة (رضي الله عنه): فإذا قرأ أحدكم التين والزيتون فأتى آخرها «أليس الله بأحكم الحاكمين» فليقل: وأنا على ذلك من الشاهدين.

وعن العدل والالتزام بالعدل شريعةً ومنهجاً قيل:

روي أن رجلاً من العقلاء غصبه بعض الولاة ضيعة له، فأتى إلى المنصور، فقال له أصلحك الله يا أمير المؤمنين أذكر لك حاجتي أم أضرب لك قبلها مثلاً؟ فقال بل أضرب المثل. فقال: إن الطفل الصغير إذا نابه أمر يكرهه فإنما يفزع إلى أمه إذ لا يعرف غيرها وظناً منه أن لا ناصر له غيرها، فإذا ترعرع واشتد كان فراره إلى أبيه، فإذا بلغ وصار رجلاً وحدث به أمر شكاه إلى الوالي لعلمه أنه أقوى من أبيه. فإذا زاد عقله شكاه إلى السلطان لعلمه أنه أقوى ممن سواه، فإن لم ينصفه السلطان شكاه إلى الله تعالى لعلمه أنه أقوى من السلطان، وقد نزلت بي نازلة، وليس أحد فوقك أقوى منك إلا الله تعالى. فإن أنصفتني وإلا رفعت أمري إلى الله تعالى في الموسم، فأني متوجه إلى بيته وحرمه، فقال المنصور: بل ننصفك، وأمر أن يكتب إلى واليه برد ضيعته إليه.

وكان الإسكندر يقول: «يا عباد الله إنما إلهكم الله الذي في السماء الذي نصر نوحاً بعد حين، الذي يسقيكم الغيث عند الحاجة، وإليه مفزعكم عن الكرب، والله لا يبلغني أن الله تعالى أحب شيئاً إلا أحببته واستعملته إلى يوم أجلي، ولا أبغض شيئاً إلا أبغضته وهجرته إلى يوم أجلي. وقد أثبت أن الله تعالى يحب العدل في عباده ويبغض الجور من بعضهم على بعض، فويل للظالم من سيفي وسوطي، ومن ظهر منه العدل من عمالي، فليتكىء في مجلسي كيف شاء، وليتمن عليّ ما شاء فلن تخطئه أمنيته، والله تعالى المجازي كلّ بعمله. ويقال: إذا لم يعمر الملك ملكه بالإنصاف خرب ملكه بالعصيان.

وقال وهب بن منبه: «إذا همّ الوالي بالجور أو عمل به أدخل الله النقص في أهل مملكته في الأسواق والزروع والضروع وكل شيء، وإذا همّ بالخير والعدل أو عمل به أدخل الله البركة في أهل مملكته كذلك»^(١).

(١) المستطرف، ٢٢٩ - ٢٣١.

الإنفاق في وجوه الخير

يقول ابن فارس: «السخاء: الجود: يقال سخا يسخو سخاوة وسخاء، يمد ويقتصر. والسخي: الجواد»^(١).

وقال في معنى الصدقة: «ما يتصدق به المرء عن نفسه وماله»^(٢).

الإنفاق خصلة الأبرار، ولقد أجمع العقلاء على حقارة الدنيا، ورغب عنها المتقون الذين استبدلوا بحبها طاعة الله سبحانه وتعالى وآتقوا فنالوا الجنة، وفازوا بالتمتع بالأزواج المطهرة الحسان، وأحاطتهم رحمة الله - سبحانه وتعالى - وعمتهم رضوانه مع الأبرار الصالحين. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمَّا كُنَّا فَآغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَفِيْنَا عَذَابَ النَّارِ ۝ الْكَافِرِينَ وَالْمُكَذِّبِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَفِيزِينَ وَالْأَسْخَارِ ۝﴾ [آل عمران: ١٦ - ١٧].

والله عز وجل عدّ الإنفاق في وجوه الخير من صفات المؤمنين الذين سيرحمهم الله تعالى، ووعدهم جنات العلى. قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُرِيسُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَرْضَوْنَ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝﴾ [التوبة: ٧١ - ٧٢].

فرضوان الله للمنفقين أكبر وأحل وأعلم مما هم فيه من النعيم، فعن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة. فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلق، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط

(٢) م.ن.، ٣/٣٣٩.

(١) مقاييس اللغة، ٣/١٤٧.

عليكم بعده أبداً^(١).

ويقارن الله تعالى بين حالين، حال المؤمنين الصالحين، وحال الفاسقين الكافرين العصاة المذنبين. قال عز من قائل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْفَ بِبَيْعِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ مِثْلُ بَيْعِهِ ۖ إِنِّي طَلَتْتُ أَنفِيَ مِثْلِي حِسَابُهُ ۖ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۖ ﴿١٦﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۖ ﴿١٧﴾ قُلُوبُهُا دَائِمَةٌ ۖ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَصْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِغَةِ ۖ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْفَ بِبَيْعِهِ فَيَقُولُ يَلَيِّنُنِي لَرَأْتِ كَيْفَ بَيْعِهِ ۖ وَلَرَأَىٰ مَا أَصْرُهُ ۖ مَا جَاءَهُ مِنَ الْقَاضِيَةِ ۖ ﴿٢٠﴾ يَلَيِّنُهَا كَآتِبُ الْقَاضِيَةِ ۖ ﴿٢١﴾ مَا أَصْفَىٰ عَنِّي مَالِي ۖ ﴿٢٢﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ۖ ﴿٢٣﴾ خَذُوهُ فَعُوقُوهُ ۖ ﴿٢٤﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۖ ﴿٢٥﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ الْغَيْبِ ۖ ﴿٢٦﴾ وَلَا يَحْصُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۖ ﴿٢٧﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حِسْمٌ ۖ ﴿٢٨﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَشِيلٍ ۖ ﴿٢٩﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ۖ ﴿٣٠﴾﴾ [الحاقة: ١٩ - ٣٧].

يخبرنا الله عز وجل عن مدى سعادة وغبطة من يؤتى كتابه يوم القيامة بيمينه وفرحه بذلك وأنه من شدة فرحه يقول لكل من لقيه: خذوا اقراءوا كتابيه لأنه يعلم أن الذي فيه خير وحسنات محضة لأنه ممن بدل الله سيئاته حسنات. أما الكافر والبخيل فلا ينفعه ماله ولا يدفع عنه سوء العذاب، بل يخلد في نار جهنم؛ لأنه لم يحم بحق الله عليه من طاعته وعبادته ولا ينفع خلقه ويؤدي حقهم، فإن الله على عبادته أن يوحده ولا يشركوا به شيئاً، وللعباد بعضهم على بعض حق الإحسان والعون على البر والتقوى. وكان البخيل يأمر الناس بالبخل ويتخلق بأخلاق الكفار فيعذبه الله تعالى انتقاماً منه على تقصيره في حق الله وفي الانفاق لله، وبإلته يسكت بل يدعو إلى التشبه به ليكون قدوة سيئة في الإجرام والإعسار وأداة منع، وباب شر وطريق ضرر، وبوق حرمان.

فتعود أخي المسلم السخاء فيزيد الله في رزقك، ويقيك المكاره، ويعينك على طاعته، ويهيئ لك طرق السداد والرشاد، ويذل لك سبل السعادة.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۖ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۖ ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْمُسرَىٰ ۖ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ يَخِلْ وَاسْتَفْتَىٰ ۖ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۖ ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْمُسرَىٰ ۖ ﴿١٠﴾ وَمَا يَنْفِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۖ ﴿١١﴾﴾ [الليل: ٥ - ١١].

كثير من الناس جُبِلَ على حب المال، ومنهم من كسبه بطرق مشروعة فحلت له بركته ونماؤه، وآخرون قد زاد مالهم بتعاملهم الربوي، وقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى بأنه يمحى الربا أي يذهب إلهه إما بأن يذهب كله من يد صاحبه أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به بل يعدمه به في الدنيا ويعاقبه عليه يوم القيامة، وضد هؤلاء الذين يتعاملون بالربا، المتصدقون الذين يربو

(١) تفسير ابن كثير، ٣٥٤/٢.

﴿يَمَحُوْهُ اللهُ اِلَيْنَا اِلْزِيْنَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ اَئِيْم﴾
 ﴿٣٧﴾ [البقرة: ٢٧٦].

والله تعالى يضاعف ثواب من أنفق في سبيله وابتغى مرضاته، وإن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. فالله تعالى ينمي العمل الصالح لصاحبه كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة. كما يمدح الله عز وجل من أنفق في سبيله ولم يتبع ذلك متاً على من أعطى قولاً أو فعلاً. ولا يفعل مع من أحسن إليه مكروهاً يحيط به ما سلف من الإحسان.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبٌّ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٦﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَذَكَّرُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنَّا وَلَا أَدَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٧﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَىٰ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقًا وَنَسَاءً وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّنَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٩﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ اتِّبَاعًا مَّرَصَاتٍ لِلَّهِ وَتَلْبِيسًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَمٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفَاتَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُؤْمِنْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ ۖ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٧٠﴾﴾ [البقرة: ٢٦٦ - ٢٦٥].

والمصدق لا بد أن يخرج ما هو حلال من كسبه، ويخرج الطيب مما عنده، فلا يقصد إلى الخبيث أو الرديء. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَرْزَقْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْزَاقِ وَلَا تَمَيَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِكَافِرِينَ بِهِ إِلَّا أَنْ تُحْضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

ولن يدخل الجنة ولن ينالها إلا من تصدق من أحب أمواله عليه، فقد روي عن أنس بن مالك أنه قال: «كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي (ﷺ) يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب قال أنس: فلما نزلت ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ﴾ قال أبو طلحة: يا رسول الله إن الله يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ﴾ وإن أحب أموالي إلي بيرحاء وإنها صدقة لله أرجو بها برها وذخراها عند الله تعالى فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال النبي (ﷺ): بخ بخ ذاك مال رابح ذاك مال رابح، وقد سمعت، وأنا أرى: أن تجعلها في الأقربين. فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه.

قال تعالى: ﴿لَنْ نَأْتِيَ الْقَبْرَ حَتَّى نُنْفِقُوا مِمَّا جُعِلَ لَنَا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ ﴿٩٢﴾ [آل عمران: ٩٢].

والإنفاق يكون في السر والعلن. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ تَبُورَ ۖ ﴿٣٠﴾ لِيُؤْفِقَهُمُ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ إِنَّهُمْ غَفُورٌ شَكُورٌ ۖ ﴿٣١﴾﴾ [فاطر: ٢٩ - ٣٠].

وقال: ﴿قُلْ لِمَعَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَتَّ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ۖ ﴿٣٢﴾﴾ [إبراهيم: ٣١].

وقال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِيَنَّ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۖ ﴿٧٥﴾﴾ [النحل: ٧٥].

ويكون الإنفاق أيضاً في السراء والضراء، أي في الشدة والرخاء، والمنشط والمكروه، والصحة والمرض، وفي جميع الأحوال.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُوفِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُغْنِينَ ۖ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٤].

ووضح الله تعالى وجوه صرف الصدقة ولمن تجب وهي لأصناف ثمانية: الفقراء المتعففون الذي لا يسألون الناس شيئاً، والمساكين الذي يسألون الناس ويطوفون يتبعونهم، والعاملين على الصدقة وهم الجباة السعاة المحصلون لها، والمؤلفة قلوبهم وهم من دخلوا الإسلام حديثاً يعطوا حتى يثبتوا على دينهم الجديد، ومنهم من يعطى حتى يسلم كما أعطى رسول الله (ﷺ) صفوان بن أمية من غنائم حنين وقد كان شهدا مشركاً حيث قال: فلم يزل يعطيني حتى صار أحب الناس إليّ بعد أن كان أبغض الناس إليّ. وفي الرقاب أي يعطوا حتى تعتق رقابهم ويصبحوا أحراراً، والغارمين الذي أثقلوا بالديون.

والأصل في ذلك حديث قبيصة بن مخارق الهلالي قال: تحملت حمالة فأتيت رسول الله (ﷺ) أسأله فيها فقال: «أقم حتى تأتين الصدقة فأمر لك بها» قال ثم قال يا قبيصة: «إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش أو قال سداداً من عيش ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قرابة قومه فيقولون لقد أصابت فلاناً فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش أو قال سداداً من عيش فما سواهن من المسألة يأكلها صاحبها سحتاً».

وفي سبيل الله وهم الغزاة، وابن السبيل المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال. قال رسول الله (ﷺ):

«لا تحل الصدقة لغنى إلا لخمسة: العامل عليها أو رجل اشتراها بماله أو غارم أو غاز في سبيل الله أو مسكين تصدق عليه منها فأهدى لغنى»^(١).

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَنَمِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

وانظر أخي المسلم إلى من يكتز المال أو الذهب أو الفضة ولا يؤدي زكاته ولا يتصدق فهؤلاء لهم عذاب أليم يوم القيامة. فمن أحب شيئاً وقدمه على طاعة الله عذب به وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال أثر عندهم من رضا الله عنهم عذبوا بها كما كان أبو لهب لعنه الله جاهدأ في عداوة رسول الله (ﷺ) وامرأته تعينه في ذلك كانت يوم القيامة عوناً على عذابه، ولما كانت هذه الأموال أعز على أصحابها كانت أضّر الأشياء عليهم في الدار الآخرة فيحمرى عليها في نار جهنم وناهيك بحرّها فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم.

قال رسول الله (ﷺ): «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم وإنما فرض الموارث من أموال تبقي بعدكم» قال فكبر عمر ثم قال له النبي (ﷺ): «ألا أخبرك بخير ما يكتز المرء المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته».

وقال في أمر من يكتز المال: «إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا هؤلاء الكلمات اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة في الرشد، وأسألك بشكر نعمتك، وأسألك حسن عبادتك وأسألك قلباً سليماً، وأسألك لساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم إنك أنت علام الغيوب»^(٢).

وقد أخبرنا الله عز وجل عن عذاب من يكتز الذهب والفضة وأن عذابه أليم في نار جهنم وبئس المصير. قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ كَثُرَ مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرَّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقِدُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣٤) يَوْمَ يُخْمَلُ عَلَيْهِمَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكَوَّنُ بِهَا جِاهَهُمْ وَجَنُوبُهُمْ وظهورهم هكذا مَا كَتَرْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٥) [التوبة: ٣٤ - ٣٥].

(١) تفسير ابن كثير، ٣٤٨/٢.

(٢) م.س. ٣٣٦/٢، ٤٠.

حب الزُّهد

يقول ابن فارس: «زهد الزاي والهاء والدال أصل يدل على قلة الشيء. والزَّهيد الشيء القليل. وهو مزهد: قليل المال. وقال رسول الله (ﷺ): «أفضل الناس مؤمن مزهد» هو المقل، ويقال فيه أزهد إزهاداً. قال الأعشى:

فَلَنْ يَطْلُبُوا سِرَّهَا لِإِلْغَنِ وَلَنْ يَسْلُمُوهَا لِإِزْهَادِهَا

قال الخليل: الزهادة في الدنيا، والزهد في الدين خاصة. قال اللحياني: يقال رجل زهيد، قليل المطعم، وهو ضيق الخلق أيضاً. وقال بعضهم الزهيد: الوادي القليل الأخذ للماء. والزهاد: الأرض التي تسيل من أدنى مطر. ومما يقرب من الباب قولهم: «خذ زهد ما يكفيك» أي قدر ما يكفيك^(١).

والزهد بالمعنى الإسلامي: الانصراف عن الدنيا ومفاتنها، والتمسك بالتقوى والعمل الصالح مع الكسب والعمل، كأن الإنسان يعيش أبداً. وقد كانت هذه النزعة رد فعل لانصراف الناس بالعراق في عصر الفتوح إلى المادة ومتاع الدنيا، فعمت هناك موجة واسعة من الزهد في الدنيا ونعيمها الفاني. ومن أوائل شعراء الزهد عروة بن أذينة فقيه المدينة. وربما تضمن شعر الزهد دعوة إلى مكارم الأخلاق على نحو ما نرى في شعر مسكين الدارمي. وقد ترك الوعاظ في العصور المختلفة مادة غزيرة لمعاصريهم من الشعراء، فصاغوا قصائد في الوعظ دفعت الناس إلى نبذ الحياة الدنيا والعيش للآخرة^(٢).

والزهد تقشف، نهج خلقي يقضي بالعزم على فعل الخير بقطع النظر عن اللذة والألم، وتحقيق الغرائز الطبيعية، وبهذا المعنى يمكن اعتبار الرواقين من أهل الزهد. وقد يفهم بالزهد أيضاً اعتناق نهج ديني يقضي بتقبل الألم، والسعي إليه في سبيل التكفير عن الذنوب، أو قهر الغرائز. والزهد فنٌّ من الشعر راج على ألسنة الحكماء في كثير من الآداب، وبرز

(١) مقاييس اللغة، ٣/ ٣٠.

(٢) معجم المصطلحات العربية، ١٩٢ - ١٩٣.

لدى العرب في قصائد أبي العتاهية، وأبي العلاء المعري، كما تجلّى في إنتاج رجال التصوف^(١).

قال أبو العتاهية:

لِدَوِّ لِمَوْتٍ وَأَبْنَوْا لِلْخَرَابِ فَكُلُّكُمْ يَصِيرُ إِلَى تَبَابٍ
ويقول:

كُلُّ حَيٍّ عِنْدَ مِيتَتِهِ حِظُّهُ مِنْ مَالِهِ الْكَفَنُ^(٢)

فالزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين، وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه، وشرط المرغوب عنه أن يكون مرغوباً فيه بوجه من الوجوه، فمن رغب عن شيء ليس مرغوباً فيه ولا مطلوباً في نفسه، لم يندرج تحت الزهد.

والزاهد من ترك الدنيا، وزهد في كل شيء سوى الله عز وجل فهو الزاهد الكامل، ومن زهد في الدنيا مع رغبته في الجنة ونعيمها، فهو زاهد، ولكنه دون الأول.

والزهد هو ترك الدنيا لعلم تاركها بحقارتها نسبة إلى نفاسة الآخرة، وأعلم أخي المسلم أن الدنيا فانية كالثلج تذوب، والآخرة كالدر يبقى. فقل: رحم الله عبداً صحب الدنيا على حسب ذلك وما الدنيا كلها أولها وآخرها كالدر يبقى، فقل: رحم الله عبداً صحب الدنيا على حسب ذلك وما الدنيا كلها أولها وآخرها إلا كرجل نام نومة فرأى في منامه ما يجب ثم انتبه. وقال ابن معين كان أبو مصهر يشد:

وَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ اللَّهِ فِي دَارِ الْمَقَامِ نَصِيبٌ
فإنه تُعَجَّبُ الدُّنْيَا رَجَالاً فَلِئْهَا مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَالزُّوَالُ قَرِيبٌ^(٣)

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْإِنْفَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْإِنْفَالَ لَوْلَا أَخْرُنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء: ٧٧].

وقال النبي (ﷺ): «من أصبح وهمه الدنيا، شتت الله عليه أمره، وفرق عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له، ومن أصبح وهمه الآخرة، جمع الله له همه، وحفظ عليه ضيعته، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»^(٤)

(٢) العصر العباسي الأول، ٢٤٩.

(٤) مختصر منهاج القاصدين، ٢٨٢.

(١) المعجم الأدبي، ١٣٧.

(٣) تفسير ابن كثير، ٤٩٨/٢.

ومن ضروريات الحياة سبعة أشياء: المطعم والمسكن والملبس والمنكح والمال والجاه، فاعلم أن همة الزاهد في مطعمه ما يدفع به الجوع مما يوافق بدنه من غير قصد التلذذ. فعباد الله ليسوا بالمتنعمين.

عن عروة عن عائشة (رضي الله عنها) أنها كانت تقول: «والله يا ابن أخي إننا كنا ننظر إلى الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال ثلاثة أهلت في شهرين، وما أوقد في أبيات رسول الله (ﷺ) نار، قلت يا خالة، فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء»^(١).

أما الملبس فالزاهد يقتصر منه على ما يدفع الحر والقر ويستبر به عورته ولا بأس أن يكون فيه نوع تجمل لا تكبر، لئلا يخرجه التقشف إلى الشهرة، وكان أكثر الناس لباس السلف خشناً.

عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) قال: أخرجت لنا عائشة (رضي الله عنها) كساءً ملبداً وإزاراً غليظاً قالت: قبض رسول الله (ﷺ) في هذين»^(٢).

وأما المسكن، فللزاهد فيه ثلاث درجات، أعلاها: أن لا يطلب موضعاً خاصاً لنفسه، وأوسطها أن يطلب موضعاً خاصاً لنفسه، مثل كوخ أو خصر، وأدناها أن يطلب حجرة مبنية، ومتى طلب السعة وعلو السقف، فقد جاوز حد الزهد في السكن، وقد توفي رسول الله (ﷺ) ولم يضع لبنة فوق لبنة.

روي عن ثوبان (رضي الله عنه) قال: قلت: يا رسول الله ما يكفيني من الدنيا؟ قال: ما سدّ جوعتك، وواري عورتك، وإن كان لك بيت يظلك فذاك وإن كانت لك دابة فبخ.

وعن عثمان بن عفان (رضي الله عنه) أن النبي (ﷺ) قال: ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال، بيت يكتئه، وثوب يوارى عورته، وجلف الخبز والماء»^(٣).

أما المنكح فلا معنى للزهد في أصل النكاح، ولا في كثرته، وقد كان بعض السلف يختار المرأة الدون على الجميلة، وذلك محمول على أن تلك تكون إلى الدين أميل، والنفقة عليها أقل، والاهتمام بأمرها يسير، بخلاف المتسحسنة، فإنها تشتت القلب وتشغله وتزيد في النفقة، وربما لم يكن أما المال فهو ضروري لمعيشة الإنسان فالزاهد يقتصر منه على ما يدفع به الوقت، وكان في الصالحين من يعمل بالتجارة قصد العفاف. وكان سعيد بن المسيب يتجر في الزيت، وخلف أربعمئة دينار، وقال: إنما تركتها لأصون بها عرضي وديني.

(٢) الترغيب والترهيب، ٤/٢٠٣.

(١) الترغيب والترهيب، ٤/١٩٤.

(٣) م.ن.، ٤/١٦٣ - ١٦٤.

والشيطان يسعى خلف ابن آدم صباح مساء ويجعل همه في ثلاثة، السعي لأخذ الإنسان المال الحرام: وصرف هذا المال في المعاصي، وجعل الإنسان يشغف بجمعه ويخل ويشح في إخراج زكاته. فعن عبد الرحمن بن عوف (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): قال الشيطان لعنه الله: لن يسلم مني صاحب المال من إحدى ثلاث: أغدو عليه بهن وأروح: أخذه من غير حله، وإنفاقه في غير حقه، وأحببه إليه فيمنعه من حقه^(١).
وأما الجاه فلا بد للإنسان من جاه في قلب خادمه، وأن يستوي عنده مادحه وذامه.

والزاهد لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٣٣) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٣٤) الَّذِينَ يَبْتَخُلُونَ بِأَمْوَالِهِمْ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٣٥) [الحديد: ٢٢ - ٢٤].

يقول تعالى: لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم فإن ذلك ليس بضيعتكم ولا كذكم وإنما هو من قدر الله ورزقه لكم فلا تتخذوا نعم الله أشراً وبطراً تفخرون بها على الناس، وأنه ما أصابكم لم يكن يخطئكم وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم فلا تأسوا على ما فاتكم، لأنه لو قدر الله شيئاً لكان، وقيل: على المسلم أن يجعل فرحه شكراً، وحزنه صبراً.

وعلى الزاهد أن يكون أنسه بالله تعالى، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة، فمحبة الدنيا ومحبة الله تعالى كالماء والهواء في قلب الإنسان، إذا دخل الماء خرج الهواء فلا يجتمعان. قال يحيى بن معاذ: الدنيا كالعروس، ومن يطلبها ما شطتها، والزاهد يسخم وجهها، وينتف شعرها، ويخرق ثوبها، والعارف مشتغل بالله تعالى عنها^(٢).

فالإقبال على الدنيا دمار وخراب، فالعاقل من تجنب زخارفها، فمن تمتع بها وبزينتها حُرِمَ من نعيم الآخرة، فعلى الإنسان أن يأخذ منها حقه، فيأخذ منها كفايته وينبذ ما لا ينفعه، فينظر إلى الدنيا نظرة احتقار وكراهة كما ينظر الله إليها وكأنها جناح بعوضة، فالزاهد يتجنب هذه الدنيا لأنها ملعونة، فقد لعنها الله تعالى، فالزاهد تملأ الكراهية قلبه للدنيا ويبقى فيه حب الآخرة، فطالب الدنيا لا يساعده الله فهو محروم من معاونته، والزاهد فيها منصور موفق مساعد، والله في عونته. وأهل الدنيا في شقاق ونزاع وتنافس وعداوة. فعن عمرو بن عوف الأنصاري (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) بعث أبا عبيدة بن الجراح (رضي الله عنه) إلى البحرين يأتي بجزيتهما فقدم بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدم أبي عبيدة،

(٢) مختصر منهج القاصدين، ٢٨٧.

(١) م.س.، ٤/١٨٢.

فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله (ﷺ)، فلما صلى رسول الله (ﷺ) انصرف، فتعرضوا له، فتبسم رسول الله (ﷺ) حين رآهم ثم قال: أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين؟ قالوا: أجل يا رسول الله، قال: أبشروا وأتلوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تُبسط الدنيا عليكم كما بُسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم».

فكل ما جمعه طالب الدنيا يتمثل له يوم القيامة عدواً ألد. قال رسول الله (ﷺ): «ليس عدوك الذي إن قتلته كان لك نوراً، وإن قتلك دخلت الجنة، ولكن أعدى عدو لك ولدك الذي خرج من صلبك، ثم أعدى عدو لك مالك الذي ملكك يمينك»^(١).

ولتنظر أخي المسلم إلى قدوة المسلمين سيدنا محمد (ﷺ) كيف كان عيشه وأهل وأصحابه، فإنه لم يشيع من طعام، فقد اختار أن يجوع يوماً ويشبع يوماً آخر، وكان إذا أكل اختار طعام الخبز والحنطة، وأدمه الزيت، وكان يتواضع في أكله ويتقشف وليس له خوان، وكان خبزه خشن غير مرقق، أما الضوء فكان يكتفي بضوء الله في بيته، وكان يجلس على حصير تؤثر في جنبه، أما أثاث بيته فمخدة ليف من آدم، وكان يرقع ثوبه ويخصف نعله، وكان إذا احتاج شيئاً استلف من جاره، وقد توفي (ﷺ) ودرعه مرهونة، وقد كان عرس فاطمة (رضي الله عنها) على تمر وزيت، ومخدتها ليف من جلد ونبات وقربة وخميل. وكان سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يرقع ثوبه، كما ترى سيدنا علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) نفسه. أما أبو هريرة (رضي الله عنه) فكان يستقرئ الناس في الطريق ليطعموه من شدة الجوع.

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: والذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحاجر على بطني من الجوع ولقد قصدت يوماً على طريقهم الذي يخرجون منه، فمرّ بي أبو بكر فسألته عن آية في كتاب الله ما سألته إلا ليستبيني (ليشبعني) فمرّ فلم يفعل، ثم مرّ عمر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليستبيني، ثم مرّ أبو القاسم (ﷺ) فتبسم حين رأيته، وعرف ما في وجهي وما في نفسي، فاستأذن فأذن له فدخل، فوجد لبناً في قدح فقال: من أين هذا اللبن؟ قالوا: أهدها لك فلان أو فلانة قال: يا أبا هريرة قلت: لبيك يا رسول الله قال: ألحق إلى أهل الضفة فادعهم لي، قال: وأهل الضفة أضياف الإسلام لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هدية أرسل إليهم، وأصاب منها، وأشركهم

(١) الترغيب والترهيب، ٤/ ١٨٠ - ١٨٢.

فساءني ذلك فقلت: وما هذا اللبن في أهل الضفة؟ كنت أحق أن أصيب من اللبن شربة أتقوى بها، فإذا جاءوا أمرني، فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسول الله (ﷺ) بد، فأتيتهم فدعوتهم، فأقبلوا واستأذنوا فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت قال: يا أبا هرّ قلت: لبيك يا رسول الله. قال: خذ فأعطهم، فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يردّ على القدح حتى انتهيت إلى النبي (ﷺ) وقد روي القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده فتبستم فقال: يا أبا هريرة! فقلت: لبيك يا رسول الله. قال: بقيت أنا وأنت؟ قلت: صدقت يا رسول الله. قال: أقعد فاشرب فشربت، فقال: اشرب فشربت، فما زال يقول: اشرب حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق لا أجد له مسلماً، قال: فأرني فأعطيته القدح: فحمد الله تعالى وسمى وشرب الفضلة»^(١).

وأختم حديثي عن الزهد بأبيات للشاعر صالح بن عبد القدوس يقول فيها:

وَعُرُورُ دُنْيَاكَ الَّتِي تَسْعَى لَهَا دَارٌ حَقِيقَتُهَا مَتَاعٌ يَذْهَبُ
تَبّاً لِدَارٍ لَا يَدُومُ نَعِيمُهَا وَمُشِيدُهَا عَمَّا قَلِيلٍ وَيَخْرُبُ
فَاقْنَعْ فِي بَعْضِ الْقِنَاعَةِ رَاحَةً وَلَقَدْ كُسِيَ ثَوْبُ الْمَذَلَةِ أَشْعَبُ
فَعَلَيْكَ تَقْوَى اللَّهِ فَالْزِمْهَا تَفْزَ إِنَّ الثُّقَى هُوَ الْبَهِيُّ الْأَهْيَبُ
وَأَعْمَلْ بِطَاعَتِهِ تَنْزِلْ مِنْهُ الرِّضَا إِنَّ الْمُطِيعَ لِرَبِّهِ لَمُقَرَّبٌ^(٢)

والشاعر أبو الفتح البستي يبين هوان الدنيا على الصالحين:

يَا عَامِراً لَخَرَابِ الدَّهْرِ مَجْتَهِداً بِاللَّهِ هَلْ لِخَرَابِ الْعَمْرِ عَمْرَانُ
وَيَا حَرِيصاً عَلَى الْأَمْوَالِ يَجْمَعُهَا أَنْسَيْتَ أَنْ سُرُورَ الْمَالِ أَحْزَانُ
دَعِ الْفَوَادَ مِنَ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا فَصَفُوهَا كَدْرٌ وَالْوَصْلُ هَجْرَانُ
مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُحْمَدُ فِي عَوَاقِبِهِ وَيَكْفِهِ شَرٌّ مَنْ عَزَّوَا وَمَنْ هَانُوا
لَا تَحْسِبَنَّ سُرُوراً دَائِماً أَبَداً مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَزْمَانُ^(٣)

(١) الترغيب والترهيب، ٢١٣/٤ - ٢١٤. (٢) م.ن.، ١٩٠/٢ الحاشية.

(٣) م.ن.، ١٥٨/٤ الحاشية.

فضل شكر النعم

قال ابن فارس في باب شكر: الشُّكر، الثناء على الإنسان بمعروف يُؤليكه. ويقال: إن حقيقة الشكر الرضا باليسير. يقولون: فرس شكور، إذا كفاه لسمنه العلف القليل. وينشدون قول الأعشى:

وَلَا بَدَّ مِنْ غَزْوَةٍ فِي الْمَصِيرِ — فِ رَهْبٍ تُكَلِّ الْوَقَاحَ الشُّكُورًا^(١)
ويقول أيضاً في باب نعم: «أصل يدل على ترفُّه وطيب عيش وصلاح: منه النُّعمة، ما يُنعم الله تعالى على عبده به من مالٍ وعيش. يقال: لله تعالى عليه نعمة، والنعمة، المنة، وكذا النعماء، والنعمة: التنعم وطيب العيش. قال الله تعالى: ﴿وَنَعَمُوا كَانُوا فِيهَا فَكِهِينَ﴾^(٢)»

أنعم الله سبحانه وتعالى على الإنسان بنعمة الإسلام وأتمها عليه، والمسلم لا يستطيع أن يحصي نِعَمَ الله عز وجل وما على المسلم إلا عبادة الله تعالى وشكره على نعمه الوافرة. وعلى المسلم أن يستخدم نعمة الله تعالى فيما يحبه الله.

روي عن رسول الله (ﷺ): أنه قام حتى تفتطرت قدماه، فقالت له عائشة (رضي الله عنها): أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شاكرًا. وعن معاذ بن جبل (رضي الله عنه) قال: قال لي رسول الله (ﷺ): «إني أحبك فقل: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»^(٣).

قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾^(٤) [إبراهيم: ٣٤].

يخبرنا الله تعالى عن عجز عباده عن تعداد النعم فضلاً عن القيام بشكرها، وقد روي

(٢) م.ن.، ٤٤٦/٥.

(١) مقاييس اللغة، ٢٠٨/٣.

(٣) مختصر منهج القاصدين، ٢٤٢.

في الأثر أن داود (عليه السلام) قال: يا رب كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك علي؟ فقال الله تعالى: الآن شكرتني يا داود، أي حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر النعم. وقال الإمام الشافعي (رحمه الله): الحمد لله الذي لا تؤدى شكر نعمه من نعمه إلا بنعمة حادثة توجب على مؤديها شكره بها، وقال القائل في ذلك:

لَوْ كُلَّ جَارِحَةٍ مِنِّي لَهَا لُغَةٌ تَشْنِي عَلَيْكَ مِمَّا أُولِيَتْ مِنْ حُسْنٍ
لَكَانَ مَا زَادَ شُكْرِي إِذْ شُكِرْتُ بِهِ إِلَيْكَ أَبْلَغُ فِي الْإِحْسَانِ وَالْمِنَّةِ^(١)
والله سبحانه يعلم علم اليقين أنه لو طالبهم بشكر جميع نعمه لعجزوا عن القيام بذلك ولو أمرهم به لضعفوا وتركوا.

والله عز وجل أمر عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب وبشكره على ذلك فإنه المنعم المتفضل به ابتداء الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له.

قال تعالى: ﴿فَكُلُوا وَمِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنَّ كُفْرَ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤].

وقال أيضاً: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَلَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْعُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [٧] وَإِذْ تَأَذَّتْ رُءُوسُكُمْ وَلَنْ يُؤْمِنَ كُفَرُكُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ [إبراهيم: ٦ - ٧].

فالله عز وجل يقول مخبراً عن موسى (عليه السلام) حين ذكر قومه بأيام الله عندهم ونعمه عليهم إذ أنجاهم من آل فرعون وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال، حيث كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم ويتركون إناثهم فأنقذهم الله من ذلك وهذه نعمة عظيمة أنتم عاجزون عن القيام بشكرها. ويقول عز وجل أنه لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها وأن كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها فإن عذابي شديد بسلبها عنكم وعقابي إياكم على كفرها.

وعن النعمان بن بشير (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله (ﷺ): «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب»^(٢).

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

(٢) الترغيب والترهيب، ٧٨/٢.

(١) تفسير ابن كثير، ٥٢٠/٢.

حدث بنعمة الله عليك، جاء في الدعاء المأثور النبوي: «واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك قابليها وأتمها علينا». فقد كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يحدث بها. وكان رسول الله (ﷺ) يذكر ويحدث بنعمة النبوة وكرامتها ويدعو إليها سرّاً إلى من يطمئن إليه من أهله وافترضت عليه الصلاة فضلى.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَآئِنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلِمَاءً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَىٰئَهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ١٦﴾ وَخِشِرَ إِسْلِيمَانُ جُودُهُ مِنَ الْإِنِّ وَالْإِنِّسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمَلَةٌ يَتَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٨﴾ فَتَبَسَّرَ صَاحِبُكَ مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي رَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ١٩﴾ [النمل: ١٥ - ١٩].

أخبرنا رب العزة سبحانه وتعالى - عما أنعم به على عبديه ونبيه داود وابنه سليمان (عليهما السلام) من النعم الجزيلة والمواهب الجليلة والصفات الجميلة وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة والملك والتمكين التام في الدنيا والنبوة والرسالة في الدين، قال داود (عليه السلام) رب الهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها علي من تعليمي منطق الطير والحيوان وعلى والدي بالإسلام لك، والإيمان بك، وأن أعمل عملاً تُحبّه وترضاه، وإذا توفيتني فالحقني بالصالحين من عبادك، والرفيق الأعلى من أوليائك.

ويذكر الإنسان أن الله عز وجل أنعم عليه بالسمع والأبصار والأفئدة وهي العقول والافهام التي يذكرون بها الأشياء ويعتبرون بما في الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله وأنه الفاعل المختار لما يشاء. وما أقل شكر الإنسان لله على ما أنعم به عليه.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ٧٨﴾ [المؤمنون: ٧٨].

والله سبحانه وتعالى يقول منبهاً خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة بأنه سخر لهم ما في السموات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم وما خلق فيها من سحب وأمطار وتلج وبرد وجعله إياها لهم سقفاً محفوظاً وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزرع وثمار وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب وإزاحة الشبه والعلل^(١).

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ

(١) تفسير ابن كثير، ٣/ ٤٣٤.

ظَهَرَةً وَبَاطِنَةً وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٢٠﴾ [لقمان: ٢٠].

والله تعالى يذكر عباده المؤمنين نعمته عليهم في شرعه لهم هذا الدين العظيم، وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم (ﷺ) وما أخذ عليهم من العهد والميثاق في مبايعته على متابعتة ومناصرته ومؤازرته، والقيام بدينه وإبلاغه عنه وقبوله منه.

قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ نِعْمَةً أَلَلَّهُ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ [المائدة: ٧].

ويذكرهم بالبيعة التي كانوا يبايعون عليها الرسول (ﷺ) عند إسلامهم كما قالوا بايعنا رسول الله (ﷺ) على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وأثره علينا وأن لا ننزع الأمر أهله.

وأخبرنا الله تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو إلا عن عصمة الله تعالى في حالتي السراء والضراء، فإنه إذا أُنعم الله عليه بمال ورزق وعافيه ونصر ونال ما يريد أعرض عن طاعة الله وعبادته ونأى بجانبه.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا أُنْعِمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ آغْرَضَ وَتَنَّى إِجَابَتَهُ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾﴾ [الإسراء: ٨٣].

فالله عز وجل يخبرنا أن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة إلا من رحم الله من عباده المؤمنين أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة حصل له يأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل، وكفر وجحود لماضي الحال كأنه لم ير خيراً ولم يرج بعد ذلك فرجاً، وهكذا إن أصابته نعمة بعد نقمة، يقول: ما ينالني بعد هذا ضيم ولا سوء وفرح بما في يده بطر فخور على غيره.

قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنَّا كَفُورًا ﴿٩﴾ وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾ [هود: ٩ - ١٠].

عن أبي يحيى صهيب بن سنان (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»^(١).

والله عز وجل خلق الإنسان ويعلم ما في نفسه، إنه عالم بالسرائر، وهو أعلم بمن يشكر، وبمن يصبر، وبمن يعرض عنه، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]. وسيعطي الله سبحانه وتعالى من فضله ورحمته في الدنيا والآخرة بحسب شكر الناس له وعملهم. وسيجزى الشاكرين خير جزاء. قال تعالى: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

الباب الثالث

الكراهية

تمهيد: معنى الكراهية لغوياً

الفصل الأول: كراهية الغش والاحتكار

الفصل الثاني: كراهية النميمة

الفصل الثالث: كراهية الحسد

الفصل الرابع: كراهية البخل

الفصل الخامس: كراهية النفاق

الفصل السادس: كراهية الإسراف والتبذير

الفصل السابع: كراهية الغدر والخيانة

الفصل الثامن: كراهية التكبر والاختيال والعجب

الفصل التاسع: كراهية الكذب

الباب الثالث

الكراهية

تمهيد

معنى الكراهية لغوياً

أجمع كثير من أهل اللغة أن الكَرْه والكُره لغتان، فبأي لغة وقع فجائز، إلا أن الفراء زعم أن الكُره ما أكرهت نفسك عليه، والكره ما أكرهك غيرك عليه.

تقول: جئتكَ: كُزْهاً وأدخلتني كُزْهاً. وقال الزجاج في قوله تعالى: وهو كُزْة لكم؛ يقال: كرهتُ الشيء كُزْهاً وكُزْهاً وكُزْهاً وكُزْهاً. قال: وكل ما في كتاب الله عز وجل من الكره فالفتح فيه جائز؛ إلا في هذا الحرف الذي في هذه الآية، فإن أبا عبيد ذكر أن القراء مجمعون على ضمّه. قال: ومعنى كراهيتهم للقتال أنهم إنما كرهوه على جنس غلظة عليهم ومشقته، لا أن المؤمنين يكرهون فرض الله: لأن الله تعالى لا يفعل إلا ما فيه الحكمة والصلاح.

قال الفراء: الكُزه، بالضم، المشقة، يقال: قمت على كُزه أي على مشقة قال: ويقال أقامني فلان على كُزه، بالفتح، إذا أكرهك عليه. قال ابن بري: يدل على صحة قول الفراء قوله سبحانه: وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً، ولم يقرأ أحدٌ بضم الكاف، وقال سبحانه وتعالى: كتب عليكم القتال وهو كُزه لكم؛ ولم يقرأ أحدٌ بفتح الكاف فيصير الكره بالفتح، فعل المضطر، والكره، بالضم، فعل المختار.

وحكى يعقوب: أقامني على كُزه وكُزه، وقد كرهه كُزْها وكُزْها وكرهه وكرهية ومكرهاً ومكرهته، قال:

لَيْلَةُ غُمَى طَامِسَ هَلَالُهَا أَوْغَلَتْهَا وَمَكْرَةُ إِيْغَالِهَا
وَأَنشَدَ ثَعْلَبُ:

تَصَيَّدُ بِالْحَلْوِ الْحَلَالِ، وَلَا تُرَى عَلَى مَكْرِهِ يَبْدُو بِهَا فَيَعِيبُ
وفي الحديث: أسباغ الوضوء على المكاره، ابن الأثير: جمع مَكْرَهٍ وهو ما يكرهه
الإنسان ويشقُّ عليه. والكَرْهُ بالضم والفتح المشقة، والمعنى أن يتوضأ مع البرد الشديد
والعلل التي يتأذى معها بمسِّ الماء، ومع عازته والحاجة إلى طلبه والسعي في تحصيله أو
إبتاعه بالثمن الغالي وما أشبه ذلك من الأسباب الشاقة، وفي حديث عبادة: بايعت رسول
الله (ﷺ)، على المنشط والمَكْرَه، يعني المحبوب والمكروه. وفي حديث الأضحية: هذا
يوم اللحم فله مكروه، يعني أن طلبه في هذا اليوم شاق. وفي الحديث: خلق المكروه يوم
الثلاثاء: وخلق النور يوم الأربعاء، أراد بالمكروه ههنا الشر لقوله: وخلق النور يوم الأربعاء،
والنور خير، وإنما سمي الشر مكروهاً لأنه ضد المحبوب. قال ابن سيدة: واستكرهه
ككرهه. وفي المثل: أساء كاره ما عمل؛ وذلك أن رجلاً أكرهه آخر على عمل فأساء عمله،
يضرب هذا للرجل يطلب الحاجة فلا يبالغ بها، وقول الخنعمية:

رَأَيْتَ لَهُمْ سِمْاءَ قَوْمٍ كَرِهَتْهُمْ وَأَهْلَ الْغَضَى قَوْمٍ عَلَيَّ كَرَامُ
إنما أراد كرهتهم لها أو من أجلها. وشيء كره مكروه؛ قال:

وَحَمَلْتُ حَوْلِي حَتَّى أَخُولَا فَأَقْلَهُ كَرْهَانِ لَهَا وَأَقْبَلَا
وكذلك شيء كريه ومكروه، وأكرهه عليه فكارهه، وتكره الأمر: كرهه وأكرهته؛
حملته على أمرٍ هو له كاره، وجمع المكروه مكاره وامرأة مستكرهه، غصبت نفسها فأكرهت
على ذلك. وكره الله الأمر تكريهاً: صيره كريهاً إليه، نقيض حبه إليه، وما كان كريهاً ولقد
كره كراهية، قال ثعلب في قول شاعر:

حَتَّى اكْتَسَى الرَّأْسُ قَنَاعاً أَشْهَبَا أَمْلَحَ لَا لَذّاً وَلَا مُحِبُّبَا
أَكْرَهَ جَلْبَابٍ لِمَنْ تَجَلْبَبَا

قال الأصمعي: من أسماء السيوف ذو الكريهة، وهو الذي يمضي في الضرائب. قال
الأزهري: ويقال للأرض الصلبة الغليظة مثل القف وما قاربه كرهة. ورجل ذو مكروهية أي
شدة، قال:

وَفَارِسٍ فِي غِمَارِ الْمَوْتِ مُنْغَمَسٍ إِذَا تَأَلَّى عَلَى مَكْرُوهِةٍ صَدَقَا
ورجل كرهة: متكره، وحمل كرهة: شديد الرأس؛ وأنشد:

كَرَهُ الْحَاجَّاجِينَ شَدِيدُ الْأَزَادِ^(١)

(١) اللسان، مادة كره.

ويقول ابن فارس: «كره الكاف والراء والهاء أصل صحيح واحد، يدلُّ على خلاف الرضا والمحبة. يقال: كرهت الشيء أكرهه كرهاً. والكُزّه الإسم. ويقال: بل الكُزّه: المشقة. والكُزّه: أن تكلف الشيء فتحمله كارهاً. ويقال من الكُزّه: الكراهية والكراهية»^(١).

(١) مقاييس اللغة، ١٧٢/٥ - ١٧٣.

كراهية الغش والاحتكار

يقول ابن فارس في مقاييسه: «غَشَّ: الغين والشين أصول تدلُّ على ضعف في الشيء واستعجال فيه. من ذلك الغش، وشربُ غشاش: قليل. وما نام إلا غشاشاً، أي قليلاً»^(١).

ويقول في (حَكَرَ): «حَكَرَ: الحاء والكاف والراء أصل واحد، وهو الحبس، والحُكْرَة: حبس الطعام منتظراً لغلاته، وهو الحُكْر. وأصله في كلام العرب الحُكْر، وهو الماء المجتمع، كأنه أحتكر لقلته»^(٢).

الدين النصيحة، والدين المعاملة، ولا بد للمسلم أن يفي بالكيل والميزان ولا يبخس الناس أشياءهم، ويعاملهم معاملة يرضى عنها الله تعالى ورسوله الكريم (ﷺ)، فقد ورد في الحديث النبوي الشريف قول رسول الله (ﷺ): «الدين النصيحة. قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(٣).

وكانت الرسل (عليهم السلام) يأمرهم بإتمام المكيال والميزان، وعدم الغش كما قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفِقُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنَ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنْفُسُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيدُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُونَ ﴿٨٤﴾ وَيَنْفِقُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ يَفِيَّتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [هود: ٨٤ - ٨٦].

يقول الله عز وجل ولقد أرسلنا إلى مدين وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريباً من معان، بلاداً تُعرف بهم يقال لها مدين، فأرسل الله إليهم شعيباً وكان من أشرفهم نسباً، ولهذا قال (أخاهم شعيباً) يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له وينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان، في معيشتهم ورزقهم، وألا يفعلوا ذلك إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والميزان بالعدل آخذين ومعطين، ونهاهم عن العثو في

(٢) م.ن.، ٩٢/٢.

(١) مقاييس اللغة، ٣٨٣/٢.

(٣) رياض الصالحين، ٩١.

الأرض بالفساد، وقد كانوا يقطعون الطريق. وأن ما يفضل لهم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لهم من أخذ أموال الناس، وألا يفعلوا ذلك رثاء الناس بل الله عز وجل خالصاً له^(١).

قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ ﴿٣٥﴾ [الإسراء: ٣٤ - ٣٥].

أمرنا الله تعالى بالمحافظة على العهود، وإيفاء المكيال والوزن بالعدل أي بلا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا اضطراب في حياتنا ومعاشنا، وهذا خير لنا في حياتنا ومآلنا أي منقلبنا أو رجوعنا إلى الله عز وجل يوم القيامة. فيكون ذلك خير ثواباً وأحسن عاقبة. قال (ﷺ): «لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه ليس به إلا مخافة الله إلا أبدله الله به في عاجل الدنيا قيل الآخرة ما هو خير له من ذلك»^(٢).

وقال تعالى من سورة الرحمن: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ ﴿٧﴾ ﴿أَلَّا تَقِفُوا فِي الْمِيزَانِ﴾ ﴿٨﴾ ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ ﴿٩﴾ [الرحمن: ٥ - ٩].

وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكِلْ فَنَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿١٥٢﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقال: ﴿وَالِئِنَّ مَدِينَتِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوَّمُ عِبَادُوا اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨٥﴾ [الأعراف: ٨٥].

فالله عز وجل نهانا بل حرّم علينا التطفيف في الميزان فقال عز من قائل: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ [المطففين: ١ - ٦].

والمراد بالتطفيف هنا البخس في المكيال والميزان إما بالازدياد إن اقتضى من الناس، وإما بالنقصان إن قضاهم ولهذا فسر تعالى المطففين الذي وعدهم بالخسار والهلاك وهو الويل. أليس هؤلاء مبعوثين يوم القيامة؟ يقفون أمام الله للحساب؟ ألا يخاف أولئك من البعث والقيام بين يدي من يعلم السرائر والضمائر في يوم عظيم الهول كثير الفزع، جليل

(١) تفسير ابن كثير، ٢/٤٣٧.

(٢) تفسير ابن كثير، ٣/٣٩.

الخطب، من خسر فيه أدخل ناراً حامية؟ فقد كان رسول الله (ﷺ) يفتح قيام الليل يكبر عشراً ويحمد عشراً ويسبح عشراً، ويستغفر عشراً ويقول: «اللهم اغفر لي واهدني وأرزقني وعافني ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة»^(١).

ويروى أن أعرابياً قال لعبد الملك بن مروان: «سمعت ما قال الله في المطففين» أراد بذلك أن قد حق الوعيد على المطفف على النحو الذي سمعت من التهويل والتعظيم فما ظنك بنفسك، وأنت تسلب وتتهب وتنتزع الأموال من أيدي أربابها بالقوة والقهر لا بالحيلة والخدعة استعظماً لقوتك وغفلة عن جبروت الله وتكبراً على الناس؟ ولا تكتفي من ذلك بالقليل كما هو شأن المطفف ولا ترضى بما دون استئصال الأموال، ومسح ما يبقى من غبارها بأيدي أهلها فالويل كل الويل لك يوم يقوم الناس لرب العالمين»^(٢).

الوفاء بالكيل والميزان وإقامة العدل يعمران ويجلبان السعادة والرخاء كما قال (ﷺ): فكانت النضارة وتمام الإيمان لأهل المدينة المنورة بعد أن أتموا الكيل والوزن، عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: لما قدم النبي (ﷺ) المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله عز وجل «ويل للمطففين، فأحسنوا الكيل بعد ذلك»^(٣).

وإتمام الوزن والكيل يفرج الأزمة ويزيل الضيق ويضع البركة في الربح، ويجعل الوالي عادلاً رؤوفاً رحيماً عاملاً بأداب الشرع. فعن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: أقبل علينا رسول الله (ﷺ)، فقال: يا معشر المهاجرين: خمس خصال إذا ابتليتم بهنّ، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قطّ حتى يعلنوا بها إلاّ فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين، وشدة المثونة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا. ولم ينقصوا عهد الله وعهد رسوله إلاّ سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله تعالى، ويتخيروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم»^(٤).

والنقص في الكيل والميزان يجلب الآفات في الزرع، ويمنع الرحمة من السماء، فينتشر العسر، ويعم الكرب. عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن رسول الله (ﷺ) قال: «ما ظهر الغلول في قوم إلا ألقى الله في قلوبهم الرعب، ولا فشا الزنا في قوم إلا كثر فيهم الموت، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قطع الله عنهم الرزق، ولا حكم قوم بغير حق

(٢) الترغيب والترهيب، ٥٨٢/٢ الحشاية.

(٤) م.ن.، ٥٦٩/٢.

(١) م.س.، ٤٨٧/٤.

(٣) م.ن.، ٥٦٧/٢.

إلا فشا فيهم الدم ولا ختر قوم بالعهد إلا سلط الله عليهم العدو»^(١).

المؤمن قوي الإيمان من يبيع سلعته وينصح الناس في بيعها ويبين عيوبها، ويجعل الخيار للمشتري، فإن أعجبه اشترى وإن لم تعجبه امتنع، وبهذا يكون البائع قد أظهر عيب سلعته ولم يغش وترك الحرية لشاريها خوفاً من الله جل وعلا، ورجاء البركة والريح الوفير في ثمنها، ولو لم تُبع، عن أبي سباع (رضي الله عنه) قال: اشتريت ناقة من دار وائلة بن الأسقع، فلما خرجت بها أدركني يجر إزاره، فقال: اشتريت؟ قلت: نعم. قال: أبيت لك ما فيها؟ قلت: وما فيها؟ قال: إنها لسمنية ظاهرة الصحة. قال أردت بها سفراً، أو أردت بها لحماً؟ قلت: أردت بها الحج. قال: فارتجعها، فقال صاحبها: ما أردت إلى هذا، أصلحك الله تفسد علي؟ قال: إني سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: لا يحل لأحد يبيع شيئاً إلا يبين ما فيه، ولا يحل لمن علم ذلك إلا يبينه».

أما الذي ينفق سلعته بالغش والمكر والخديعة، فإن الله عز وجل ينزل عليه سخطه وغضبه وتدعو عليه ملائكة الرحمة بالطرد والإبعاد من رحمة الله تعالى.

وعن ابن الأسقع قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: من باع عيياً لم يبينه لم يزل في مقت الله، ولم تزل الملائكة تلعه».

ومن خصال المؤمنين صفاء المودة والإخلاص وحب الخير لإخوانهم، على نقيض خصال الفسقة الفجرة الكفرة من غش وخداع ولؤم. روي عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «المؤمنون لبعض نصحة وادون، وإن بعدت منازلهم وأبدانهم. والفجرة بعضهم لبعض غششة متخاونون وإن اقتربت منازلهم وأبدانهم»^(٢).

إن الإسلام بعيد عن الغاش الكذاب المنافق الماكر اللئيم، محب الخير لنفسه فقط، فإن العبد لا يبلغ حقيقة الإيمان حتى يحب للناس ما يحب لنفسه، ويكره ما يكره لها، عن قيس بن أبي غرزة (رضي الله عنه) قال: مرّ النبي (ﷺ) برجل يبيع طعاماً فقال: يا صاحب الطعام أسفل هذا مثل أعلاه؟ فقال: نعم يا رسول الله: فقال رسول الله (ﷺ): «من غش المسلمين فليس منهم»^(٣).

رغب ديننا الحنيف في الصدق في المعاملة، واجتناب الغش أو الاحتكار المؤدي إلى إيذاء المسلمين وحبس المواد الغذائية عنهم، فإن التاجر الصادق مجلوب الرزق منعم واسع، وأما المحتكر فهو ملعون. فعن عمر (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «الجالب مرزوق، والمحتكر ملعون».

(٢) م.ن.، ٥٧٤/٢، ٥٧٥.

(١) الترغيب والترهيب، ٥٦٩/٢ - ٥٧٠.

(٣) م.ن.، ٥٧٣/٢.

فالذي يأتي بأصناف الأشياء لبيعها للناس رابح لا محالة، أما الخازن لها المانع فهو بعيد من رحمة الله ورضاه، وأن المحتكر يحشر وقتلة الأنفس في درجة، وكان حقاً على الله أن يفديه يوم القيامة. عن أبي هريرة، ومقل بن يسار (رضي الله عنهما) أن رسول الله (ﷺ) قال: «يحشر المحاكرون، وقتلة الأنفس في درجة، ومن دخل في شيء من سعر المسلمين يغليه عليهم كان حقاً على الله أن يعذبه في معظم النار يوم القيامة».

أمرنا بالصدق في قولنا وفعلنا، ورغبنا في الصدق في التجارة، فالتاجر المتصف بكثرة الصدق (الصدوق): وقول الحق، واتباع العدل، الأمين، حافظ الوديعة، درجته بجوار الأنبياء والأبرار والمجاهدين. عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء».

فالمحتكر مذنب متعمد (خاطيء)، بعيد من رحمة الله تعالى وإحسانه وبره، فيصاب بالأمراض القتالة القذرة التي تنفر الناس من رؤيته، كما أنه استحق الذم والسخط من الخالق عز وجل كما أنه يدخل على ماله الغش والسحت والحرام فلا تنفع صدقته، ولا يقبل عمله. والمحتكر واهن الدين، يصيبه زيف في عقيدته، ومروق في إسلامه ونفاق.

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «من احتكر حكرة يريد أن يغالي بها على المسلمين فهو خاطيء، وقد برئت منه ذمة الله»^(١).

(١) الترغيب والترهيب، ٥٨٣/٢ - ٥٨٥.

كراهية النيمة

يقول ابن فارس في مقاييسه: «نم، النون والميم أصل صحيح له معنيان: أحدهما إظهار شيء وإبرازه، والآخر لون من الألوان. فالأول ما حكاه الفراء، يقال: إبل نمة: لم يبق في أجوافها الماء، والنمام منه، لأنه لا يبقى الكلام في جوفه. ورجل نمام.

ويقولون: أسكت الله ناقته: ما ينم عليه من حركته، والنيمة: الصوت والهمس؛ لأنهما ينمان على الإنسان. ومنه النمام: ريحان يدلُّ عليه رائحته. ومنه قولهم: ما بها نميّ»، أي أحد، كأنهم يريدون ذو حركة تدلُّ عليه^(١).

إعلم أخي المسلم أن النيمة إنما تطلق في الأكثر على من ينم قول الغير إلى المقول فيه كما تقولون فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا، وليست النيمة مختصة به، بل حدّها كشف ما يكره كشفه سواء كره المنقول عنه أو المنقول إليه أو كره ثالث، وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال وسواء كان ذلك عيباً ونقصاً في المنقول عنه أو لم يكن، بل حقيقة النيمة إفشاء السر، وهتك السر عما يكره كشفه، بل كل ما رآه الإنسان من أحوال الناس ما يكره فينبغي أن يسكت عنه إلا ما في حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية كما إذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له فأما إذا رآه يخفي مالا لنفسه فذكره فهو نيمة، وإفشاء السر فإن كان ما ينم به نقصاً أو عيباً في المحكى عنه كان قد جمع بين الغيبة والنيمة، فالباعث على النيمة إما إرادة السوء للمحكى عنه أو إظهار الحب للمحكى له أو التفرج بالحديث والخوض في الفضول والباطل، وكل من حملت إليه النيمة، وقيل له إن فلاناً قال فيك كذا وكذا، أو فعل في حقك كذا، أو هو يدبر في إفساد أمرك أو في مملالة عدوك، أو تقبيح حالك أو ما يجري مجراه فعليه ستة أمور:

الأول: ألا يصدقه، لأن النمام فاسق وهو مردود الشهادة. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

(١) مقاييس اللغة، ٣٥٨/٥ - ٣٥٩.

ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَهْلِكِهِمْ فَنُصْحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾
[الحجرات: ٦].

الثاني: أن ينهأ عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعله. قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [لقمان: ١٧].

الثالث: أن يبغضه في الله تعالى فإنه يبغض عند الله تعالى: ويجب بغض من يبغضه الله تعالى.

الرابع: ألا تظن: بأخيك الغائب السوء لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

الخامس: أن لا يحملك ما حكى لك على التجسس والبحث للتحقق إتباعاً لقوله تعالى ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾.

السادس: ألا ترضى لنفسك ما نهيت النمام عنه ولا تحكي نميمته فتقول فلان قد حكى لي كذا وكذا، فتكون به نماماً مغتاباً، وتكون قد أتيت ما عنه نهيت، وقد روى عن عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) أنه دخل عليه رجل فذكر له عن رجل شيئاً فقال له عمر: إن شئت نظرنا في أمرك فإن كنت كاذباً فانت من أهل هذه الآية ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾. وإن كنت صادقاً فانت من أهل هذه الآية ﴿هَٰذَا مَثَلٌ مِّمَّا يَبْسُو بِهِ﴾. وإن شئت عفونا عنك فقال: العفو يا أمير المؤمنين لا أعود إليه أبداً.

وقال الحسن: من نَمَّ إليك فقد نَمَّ عليك، ومنه إشارة إلى أن النمام ينبغي أن يبغض ولا يوثق بقوله ولا بصداقته وكيف لا يبغض؟ وهو لا ينفك عن الغيبة والكذب والغدر والخيانة والغل والحسد والنفاق والإفساد بين الناس والخديعة، وهو ممن يسعى في قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٤٢].

وقال لقمان لابنه: يا بُنَيَّ أوصيك بخلاف إن تمسكت بهن لم تزل سيذاً، أبسط خلقك للقريب والبعيد، وأمسك وجهك عن الكريم والليليم واحفظ إخوانك وصل أقاربك وآمنهم من قبول ساع أو سماع باغ يريد فسادك ويروم خداعك وليكن إخوانك من إذا فارقتهم وفارقوك لم تعبه ولم يعيبوك وقال بعضهم: النميمة مبنية على الكذب والحسد والنفاق، وهي من أثاث الدُّل^(١).

(١) الترغيب والترهيب، ٣/ ٤٩٩ - ٥٠١، الحاشية.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُطْعَمُ كُلُّ سَلَافٍ مَّهِينٍ﴾ ١٥ هَازِرٌ مَسْلَامٌ يَنْبِيزُ ١٦ مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَنِيزَ ١٧ عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ ١٨ [القلم: ١٠ - ١٣].

وذلك أن الكاذب لضعفه ومهانتة إنما يتقي بأيمانه الكاذبة التي يجترئ بها على أسماء الله تعالى واستعمالها في كل وقت في غير محلها. قال ابن عباس المهين هو الكاذب، وقال مجاهد: هو الضعيف القلب. وقال الحسن: كل حلاف مكابر مهين ضعيف. وهماز، مغتاب، ومشاء بنميم، لسعي بين الناس ويحرش بينهم وينقل الحديث لفساد ذات البين وهي الحالقة. عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن رسول الله (ﷺ) مرّ بقبرين يعذبان فقال: إنهما يعذبان، وما يعذبان في كبير، بلى إنه كبير: أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله^(١).

وعن حذيفة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «لا يدخل الجنة نمام»^(٢). وقال (ﷺ): «ألا أخبركم بخياركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: الذين إذا رأوا ذكر الله عز وجل، ثم قال: ألا أخبركم بشراركم المشاءون بالنميمة المفسدون بين الأحبة الباغون للبراء العنت». وقوله تعالى ﴿مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَنِيزَ﴾ ١٦ أي يمنع ما عليه وما لديه من الخير، ومعتد في تناول ما أحل الله له يتجاوز فيها الحد المشروع. وأثيم إذ يتناول المحرمات. وقوله ﴿عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾ ١٨ فالعتل اللفظ الغليظ الصحيح الجموع المنوع. قال (ﷺ): «ألا أنبئكم بأهل الجنة كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبزه. ألا أنبئكم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر». وقال (ﷺ): «لا يدخل الجنة الجواظ الجعظري والعتل الزنيم». وقال: «تبكي السماء من عبد أصح الله جسمه، وأرحب جوفه وأعطاء من الدنيا مقضماً فكان للناس ظلوماً، قال فذلك العتل الزنيم». والزنيم في لغة العرب هو الدعي في القول.

قال حسان بن ثابت يذم بعض كفار قريش:

وَأَنْتَ زَنِيمٌ نَيْطٌ فِي آلِ هَاشِمٍ كَمَا نَيْطٌ خَلْفَا الرَّاكِبِ الْقَدْحُ الْفَرْدُ

وقيل الزنيم: الفاحش اللثيم. قال ابن عباس:

زَنِيمٌ تَدَاعَاهُ الرَّجَالُ زِيَادَةً كَمَا زِيدَ فِي عَرْضِ الْأَدِيمِ الْأَكَارُغُ

وقيل الزنيم: هو ولد الزنا.

قال تعالى: ﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُّمَزَةً﴾ ١٩. قال ابن فارس: «همز: الهاء والميم والزاي كلمة تدل على ضغط وعصر. وهمزت الشيء في كفي. ومنه الهمز في الكلام، كأنه

(١) الترغيب والترهيب، ٤٩٦/٣. (٢) رياض الصالحين، ٥٣٣.

يضغط الحرف، ويقولون همزيه الأرض. وقوس همزي: شديدة الدفع للسهم. والهمّاز: العَيَاب وكذا الهمزة. قال:

تُذْلِي بُودِي إِذْ لَأَقِيَنَّي كَذِباً وَإِنْ أَعْيَبَ وَأَنْتَ الْهَامِزُ اللَّمَزَةُ
وهمزُ الشيطان كالموته تغلب على قلب الإنسان تذهب به^(١).

الهمّاز بالقول واللمّاز بالفعل والمعنى يزدرى الناس وينتقص بهم. قال ابن عباس: همزة لمزة طعان معياب. وقال الربيع بن أنس: الهمزة يهمزه في وجهه واللمزة من خلفه. وقال مجاهد: هي عامة^(٢).

وقال تعالى: ﴿سَيَصِلَ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۖ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۖ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ
مِّن مَّسَدٍ ۝﴾ [المسد: ٣ - ٥].

إن أبا لهب سيصلى ناراً ذات شرر ولهب وإحراق شديد. وزوجته أم جميل من سادات قريش واسمها أروى بنت حرب بن أمية وهي أخت أبي سفيان، وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده فلهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم. فتحمل الحطب فتلقى على زوجها ليزداد على ما هو فيه وهي مهيأة لذلك مستعدة له. وقيل (حمالة الحطب) أي أنها تمشي بالنميمة. وكانت تضع الشوك في طريق رسول الله (ﷺ)، وكانت تعيره بالفقر، وكانت تحتطب وعبّرت بذلك. وقيل كانت لها قلادة فاخرة فقالت: لأنفقنها في عداوة محمد، فأعقبها الله تعالى منها حبلاً من مسد النار في جيدها، والمسد: الليف. وقيل: المسد، سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً. والمسد: حبل من ليف أو خوص وقد يكون من جلود الإبل أو أوبارها، ومسدت الحبل أمسده مسداً إذا أجدت قتله^(٣).

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ ۚ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ
مِّنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ۝﴾ [التحریم: ١٠].

ففي قوله تعالى ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾، فخيانة امرأة نوح أنها كانت تخبر أنه مجنون. وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومه على أضيافه، وقيل: كانت خيانتهم أنها كانتا على غير دينهما فكانت امرأة نوح تطلع على سر نوح فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابة من قوم نوح به. وأما امرأة لوط فكانت إذا أضاف لوط أحد أخبرت به أهل المدينة ممن يعمل السوء. وقال الضحاك عن ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط إنما كانت خيانتهم في الدين.

(٢) تفسير ابن كثير، ٥٥١/٤.

(١) مقاييس اللغة، ٦٦/٦.

(٣) تفسير ابن كثير، ٥٦٩/٤.

ونلاحظ أن النمام يُحرم من نعيم الجنة، ويعذب في قبره ويشابه الذي يتساهل في نمام الاستبراء من البول ولم يستكملته فقد يخرج منه ما ينقض وضوءه فيصلي بغير وضوء أبداً وبذا يصلي فلا تقبل صلاته فكأنه تاركها، وترك الصلاة كبيرة. والنميمة تجلب العداوة فيحامي وطيسها بين المتكافئين، وتفتر وتؤلم وتجلب الخصام والنفور والثبور. كما أنها تحمل النمام ذنباً جمة، وتدلل النميمة على أن صاحبها لقيط ابن فاحشة زانية، كما تدل على سوء الخاتمة وتمسخ حسن الصورة وتجعلها مثل وجوه الكلاب، والنميمة عنوان الدناءة والجبن والضعف والدس والكيد والملق والنفاق. فمن العلاء بن الحارث (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: «الهمازون واللامزون والمشاءون بالنميمة الباغون للبراء العنت يحشرهم الله في وجوه الكلاب»^(١).

والنميمة محبطة للحسنات ومضيعة ثواب الأعمال الصالحات. وهي تزيل كل محبة، وتبعد كل مودة وتآلف وتآخ وتصاف وتعاون واتحاد. وحسبك بالنامم خسة ورذيلة، سقوطه وضعته والهماز المغتاب الذي يأكل لحوم الناس، الطاعن فيهم.

وروي عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي (ﷺ) قال: «ملعون ذو الوجهين، ملعون ذو اللسانين، ملعون كل شفاز، ملعون كل قتات، ملعون كل نمام، ملعون كل منان» والشفاز: المحرش بين الناس يلقي بينهم العداوة، والقتات: النمام. والمنان: الذي يعمل الخير ويمن به، وأما السعاية إلى السلطان وإلى كل ذي قدرة فهي المهلكة والحالقة التي تجمع الخصال الذميمة، من الغيبة وشؤم النميمة والتفريز بالنفوس والأموال في النوازل والأحوال، وتسلب العزيز عزه، وتحط المسكين عن مكانته، والسيد عن مرتبته، فكم دم أراقه سعي ساع، وكم حريم استبيح بنميمة نمام، وكم من ضيفين تباعدا، وكم من متواصلين تقاطعا، وكم من محبين افترقا، وكم من إلفين تهاجرا، وكم من زوجين تطلقا، فليتنق الله ربه عز وجل رجل ساعدته الأيام، وتراخت عنه الأقدار، وأن يصغي لساع أو يستمع لنمام. ووجد في حكم القدماء: أبغض الناس إلى الله المثلث. قال الأصمعي: هو الرجل يسعى بأخيه إلى الأمام فيهلك نفسه وأخاه وأمامه». وقال بعض الحكماء: «احذروا أعداء العقول ولصوص المودات وهم السعاة والناممون، إذا سرق للصوص المتاع سرقوا هم المودات.

وقيل: دفع إنسان رقعة إلى صاحب بن عباد يحثه فيها على أخذ مال يتييم وكان مالا كثيراً، فكتب إليه على ظهرها: والنميمة كبيرة وإن كانت صحيحة.، والميت رحمه الله، واليتيم جبره الله، والساعي لعنه الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

(١) الترغيب والترهيب، ٣/ ٥٠٠.

وكَلَّمَ معاوية الأحنف في شيء بلغه عنه، فأنكره الأحنف، فقال له معاوية: بلغني عنه الثقة، فقال له الأحنف: إن الثقة لا يبلغ مكروهاً.

وكان الفضل بن سهل يبغض السعاية (الوشاية)، وإذا أتاه ساع يقول له، إن صدقتنا أبغضناك، وإن كذبتنا عاقبتك، وإن استقلتنا أفلناك^(١).

وكتب في جواب كتاب ساع: «نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية، لأن السعاية دلالة والقبول إجازة، وليس من دلّ على شيء وأخبر به كمن قبله وأجازه، فاتقوا الساعي فإنه لو كان في سعائته صادقاً لكان في صدقه لثيماً إذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة. وقيل: من سعى بالنميمة حذره الغريب، ومقته القريب.

وقال المأمون: النميمة لا تقرب مؤدة إلا أفسدتها، ولا عداوة إلا جدتها، ولا جماعة إلا بددتها، ثم لا بد لمن عرف بها ونسب إليها. أن يجتنب ويخاف من معرفته ولا يوثق بمكانه وأنشد بعضهم:

مَنْ نَمَّ فِي النَّاسِ لَمْ تُؤْمَنْ عَقَارِبُهُ عَلَى الصَّدِيقِ وَلَمْ تُؤْمَنْ أَفَاعِيهِ
كَالسَّيْلِ بِاللَّيْلِ لَا يَذْرِي بِهِ أَحَدٌ مِنْ أَيْنَ جَاءَ وَلَا مِنْ أَيْنَ يَأْتِيهِ
الْوَيْلُ لِلْعَهْدِ مِنْهُ كَيْفَ يَنْقُضُهُ وَالْوَيْلُ لِلْوَدِّ مِنْهُ كَيْفَ يُفْنِيهِ
وقال آخر:

يَسْعَى عَلَيْكَ كَمَا يَسْعَى إِلَيْكَ فَلَا تَأْمَنُ مِنْ غَوَائِلِ ذِي وَجْهَيْنِ كِيَادٍ
وقال صالح بن عبد القدوس:

مَنْ يُخْبِرُكَ بِشَيْءٍ عَنْ أَخٍ فَهُوَ الشَّائِمُ لَا مَنْ شَتَمَكَ
ذَلِكَ شَيْءٌ لَمْ يُوَاكِهْكَ بِهِ إِنَّمَا اللَّؤْمُ عَلَى مَنْ أَعْلَمَكَ
وقال آخر:

إِنْ يَسْمَعُوا دِيْبَةً طَارُوا بِهَا فَرَحاً مِنِّي وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا
صُمٌّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِّرَتْ بِهِ وَإِنْ ذُكِّرَتْ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذْنُوا
أي: أعلنوا وأشاعوا.

وقال عبد الرحمن بن عوف (رضي الله عنه): «من سمع بفاحشة فأفشأها فهو كالذي أتأها»^(١).

(١) المستطرف، ١/ ١٩٤ - ١٩٥.

كراهية الحسد

إن الحسد من الأمراض العظيمة التي تُصيب القلوب، ولا تداوي أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل. والعلم النافع لمرض الحسد هو تبيان حقيقة أن الحسد يعود عليك بالضرر في الدين والدنيا، وأنه لا يضر بالمحسود في الدين ولا في الدنيا، بل ينتفع به، والنعمة لا تزول عن المحسود بحسدك، فإن ما قدره الله لك من نعمة لا بد أن تدوم إلى أجله الذي قدره، والمنفعة في الدنيا هي من أهم أغراض الخلق، والمقصود غم الأعداء الذين يكون لك الحقد والحسد.

إن الله عز وجل ورسوله الكريم (ﷺ) نهيا عن الحسد. فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ): قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم. المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ههنا، التقوى ههنا، التقوى ههنا، وأشار إلى صدره، يحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله».

والحاسد ضعيف الإيمان، فإذا دخل الحسد قلبه خرج الإيمان منه. قال رسول الله (ﷺ): «لا يجتمع في جوف عبد مؤمن غبار في سبيل الله، وفسيح جهنم، ولا يجتمع في جوف عبد الإيمان والحسد». والحاسد مسلم ناقص الإيمان، وأنه لا صحبة له، ولا فائدة منه تُرتجى. والحاسد تُمحي حسناته من صحيفته كما تأكل النار الحطب. قال رسول الله (ﷺ): «إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»^(١).

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَصُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٣٩﴾﴾ [البقرة: ١٠٩].

يحذرنا الله عز وجل من سلوك الكفار من أهل الكتاب ويخبرنا بعداوتهم لنا في الباطن

(١) الترغيب والترهيب، ٣/ ٥٤٦ - ٥٤٧.

والظاهر، وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم، ويأمر الله عز وجل عباده المؤمنين بالصفح والعفو أو الاحتمال حتى يأتي الله بأمره من النصر والفتح. وقد تبين للكفار الحق ولم يجهلوا منه شيئاً ولكن الحسد حملهم على الجحود فغيرهم الله ووبخهم ولامهم أشد الملامة وشرع لنبيه (ﷺ) وللمؤمنين ما هم عليه من التصديق والإيمان والإقرار بما أنزل الله عليهم وما أنزل من قبلهم بكرامته وثوابه الجزيل ومعوته لهم.

قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النساء: ٥٤ - ٥٥].

إن النبي (ﷺ) محسود على ما رزقه الله تعالى من النبوة العظيمة، ومنع الكفار من تصديقه حسداً له لكونه من العرب وليس من بني إسرائيل. مع العلم أننا جعلنا في أسباط بني إسرائيل الذين هم من ذرية إبراهيم (عليه السلام) النبوة وأنزلنا عليهم الكتاب وحكموا فيه بالسنن وهي الحكمة وجعلنا منهم الملوك ومع هذا فمنهم من آمن به بهذا الإتياء ومنهم من صد عنه وكفر به. وأعرض عنه وسعى في صد الناس عنه، وهو منهم ومن جنسهم (أي من بني إسرائيل) فقد اختلفوا عليهم فكيف بك يا محمد ولست من بني إسرائيل؟ فمنهم من آمن به (أي محمد) (ﷺ) ومنهم من صد عنه فالكفرة منهم أشد تكديباً لك، وأبعد عما جئتم به من الهدى. والحق المبين ولهذا قال متوعداً لهم ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ أي وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم وتكذيبهم ومخالفتهم كتب الله ورسوله (١).

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْكَبْنَ يَغْيِرُ الْخَوَّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

لقد عد العلماء الحسد من الفواحش الباطنة. قال ابن فارس في مقاييسه: «فحش كلمة تدل على قبح في شيء وشناعة. من ذلك الفحش والفحشاء والفاحشة. يقولون: كل شيء جاوز قدره فهو فاحش؛ ولا يكون ذلك إلا فيما ينكره» (٢) وما أقطع من الحسد فقد أدى بأخوين إلى أن يقتلا وهما (قاييل وهابيل) شقيقان أوحى الله سبحانه وتعالى إلى آدم أن يزوج كل واحد منهما توأمة الآخر فسخط منه قاييل وحسده؛ لأن توأمة كانت أجمل فقال لهما آدم: قربا قرباناً فمن أيكما قبل من تزوجها فقبل قربان هابيل، بأن نزلت نار فأكلته فازداد قاييل سخطاً وحسداً وضغناً.

(٢) مقاييس اللغة، ٤/٤٧٨.

(١) تفسير ابن كثير، ١/٤٨٦ - ٤٨٧.

قال تعالى: ﴿وَآتَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ لَئِن لَّمْ يَکُنْ بَدَلُكَ لِقَابِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٩﴾ فَطَوَعَتْ لَمْ تَقْسُمْ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْمُنْجَرِينَ ﴿١٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِثُ سَوْءَهُ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلْتُمَا أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِثَ سَوْءَهُ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [المائدة: ٢٧ - ٣١].

أمر الله عز وجل نبيه ليستعيز أمته ويطلب الحصن المنيع من أذى الحاسد إذا أظهر حسده، وعمل بمقتضاه وانبعث الشر من الحاسد كما ينبعث من الخلق ومن ظلام الليل الحالك ومن السواحر النفوس والنساء اللاتي يعقدن عقلاً في خيوط وينفثن عليها للضرر.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ [الفلق: ١ - ٥].

وقد أورد الغزالي في تفسير الحسد بکراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه وبتفسير الغيبة: أن لا تحب زوالها، ولا تكره وجودها ودوامها، ولكن تشتهي لنفسك مثلها، وقد تختص باسم المنافسة، وقد قال (عليه السلام): «إن المؤمن يغيط والمنافق يحسد» فأما الأول فهو حلال، وأما الثاني فهو حرام بكل حال إلا نعمة أصابها فاجر أو كافر وهو يستعين بها على تهيج الفتنة أو الفساد أو إيذاء الخلق فلا يضرك كراحتك لها ومحبتك لزوالها، فإنك لا تحب زوالها من حيث هي نعمة بل من حيث هي آلة الفساد، ولو أمنت فسادها لم يعمك بنعمته، ثم أورد قوله تعالى: ﴿إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً سَوْفَ تَمْسُكُوهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾.

وهذا الفرح شماتة، والحسد والشماتة يتلازمان، ثم قال: إن هذه الكراهة تسخط لقضاء الله تعالى في تفضيل عباده على بعض، وذلك لا عذر فيه ولا رخصة. وأي معصية تزيد على كراحتك لراحة مسلم من غير أن يكون لك منه مفرة. ثم أورد الغزالي قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُكْفِرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾.

وذكر الله تعالى حسد إخوة يوسف (عليه السلام)، وعبر عما في قلوبهم ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨﴾ أَفَتُلْقِيَانَا فِي الْأَرْضِ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيْكُمُ ﴿٩﴾ فَلَمَّا كَرِهُوا حُبَّ إِيْهِمْ لَهُ وَسَاءَ لَهُمْ ذَلِكَ وَأَحْبَبُوا زَوَالَهُ عَنْهُ فغيبوه عنه ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾. أي لا تضيق صدورهم به ولا يغمتمون، فأثنى عليهم بعدم الحسد وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آوَوْا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ﴾ قيل في التفسير

حسداً. وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ فأنزل الله تعالى العلم ليجمعهم ويؤلف بينهم على طاعته، وأمرهم أن يتألفوا بالعلم فتحاسدوا، واختلفوا إذ أراد كل واحد منهم أن ينفرد بالرياسة وقبول القول فرد بعضهم على بعض. قال ابن عباس: كانت اليهود - لعنهم الله - قبل أن يبعث النبي (ﷺ) إذا قاتلوا نساءك بالنبي الذي وعدتنا أن ترسله وبالكتاب الذي تنزله إلا ما نصرتنا فكانوا ينصرون، فلما جاء النبي (ﷺ) من ولد إسماعيل (عليه السلام) عرفوه وكفروا به بعد معرفتهم إياه فقال تعالى: ﴿وَكَاذِبُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْهِمُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَأَنَّمَا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَشْكُمَا أَشْرَقُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَيِّنَاتٍ أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ أي حسداً، والذي يدل على إباحة المنافسة قوله تعالى: ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَفْعَرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾. وإنما المسابقة عند خوف الفوت، وهو كالعبد ينسابقان إلى خدمة مولاهما إذ يجزئ كل واحد أن يسبقه صاحبه فيحظى عند مولاه بمنزلة لا يحظى الآخر بها. ثم عدّد أسباب الحسد والمنافسة:

(١) العداوة والبغضاء. (٢) الكبر. (٣) التغرر وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره. (٤) التعجب. (٥) الخوف من فوت المقاصد. (٦) حب الرياسة وطلب الجاه لنفسه. (٧) خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى. ثم أشار الغزالي إلى الدواء الذي ينفيه، وهو العلم والعمل أي ضرر الحسد عليك في الدنيا والدين، وأنت لك في أعدائك ثلاثة:

الأول: أن تحب مساءتهم بطبعك وتكره حبك لذلك، وميل قلبك إليه بعملك وتمقت نفسك عليه، وتود لو كانت لك حيلة في إزالة ذلك الميل منك، وهذا معفو عنه قطعاً؛ لأنه لا يدخل تحت الاختبار أكثر منه.

الثاني: أن تحب ذلك وتظهر الفرح بمساءته إما بلسانك أو بجوارحك فهذا الحسد المحظوظ قطعاً.

الثالث: وهو بين الطرفين أن تحسد بالقلب من غير مقت لنفسك على حسدك، ومن غير إنكار منك على قلبك، ولكن تحفظ جوارحك عن طاعة الحسد في مقتضاه. وهذا في محل الخلاف، والظاهر أنه لا يخلو عن إثم بقدر قوة الحب وضعفه والله تعالى أعلم.

وقد أورد الجاحظ في ذم الحسد من نبع الستة النبوية قوله: الحسد أبغاك الله داء ينهك الجسد، علاجه عسير وصاحبه ضجر. وهو باب غامض. وما ظهر منه فلا يداوى، وما بطن منه فمداويه في عناء. ولذلك قال (ﷺ): «دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء».

الحسد عقيد (محالفه ومعاهده) الكفر، وحليف الباطل وضد الحق. منه تتولد العداوة وهو سبب كل قطيعة، ومفرق كل جماعة، وقاطع كل رحم من الأقرباء، ومحدث التفرق بين القرناء، وملقح الشر بين الحلفاء.

ولابن سيد المغربي:

ولا تجادل أبداً حاسداً فإنَّه أدعى إلى هيبتك
وأَمْشِ الهوينى مظهراً عفةً وابغِ رضا الأعين عن هيبتك
أَفْشِ التَّحِيَّاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَنَبِّهِ النَّاسَ إِلَى رُتْبَتِكَ
ولأبي الحسن التهامي:

إِنِّي لِأَرْحَمُ حَاسِدِي مَنْ حُرِّمَ ضَمَنْتُ صُدْرَهُمْ مِنَ الْأَوْغَارِ
نَظَرُوا صَنِيعَ اللَّهِ بِي فَعَيُونَهُمْ فِي جَنَّةٍ وَقُلُوبُهُمْ فِي النَّارِ^(١)
وقال آخر:

يَا حَاسِداً لِي عَلَى نَعْمَتِي أَتَدْرِي عَلَى مَنْ أَسَأْتَ الْأَدَبَ
أَسَأْتَ عَلَى اللَّهِ فِي حُكْمِهِ لِأَنَّكَ لَمْ تَرْضَ لِي مَا وَهَبَ
فَأَخْزَاكَ رَبِّي بِأَنْ زَادَنِي وَسَدَّ عَلَيْنِكَ وُجُوهَ الطُّلُبَا
وقال آخر:

أَصْبِرْ عَلَى كَيْدِ الْحَسُودِ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهُ
كَالنَّارِ تَأْكُلُ نَفْسَهَا إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ
قال الفقيه أبو الليث السمرقندي: «يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده إلى المحسود، أولها: غم لا ينقطع. الثانية: مصيبة لا يؤثر عليها. الثالثة: مذمة لا يحمد عليها. الرابعة: سخط الرب. الخامسة: يغلق باب التوفيق.

ومما ورد عن الحسد أن رجلاً من العرب دخل على المعتصم فقرَّبه وأدناه وجعله نديمه، وصار يدخل على صريحه من غير استئذان. وكان له وزير حاسد فغار من البدوي وحسده، وقال في نفسه: إن لم احتل على هذا البدوي في قتله أخذ بقلب أمير المؤمنين، وأبعدني منه، فصار يتلطف بالبدوي حتى أتى به إلى منزله، فطبخ له طعاماً، وأكثر فيه من الثوم، فلما أكل البدوي منه قال له: احذر أن تقترب من أمير المؤمنين، فيشم منك رائحة

(١) الترغيب والترهيب، ٣/ ٥٥٥ - ٥٥٦، الحاشية.

الثوم، فيتأذى من ذلك فإنه يكره رائحته، ثم ذهب الوزير إلى أمير المؤمنين، فخلا به وقال: يا أمير المؤمنين إن البدوي يقول عنك للناس إن أمير المؤمنين أبخر وهلك من رائحة فمه، فلما دخل البدوي على أمير المؤمنين جعل كفه على فمه مخافة أن يشم منه رائحة الثوم، فلما رآه أمير المؤمنين وهو يستر فمه بكفه، قال: إن الذي قاله الوزير عن هذا البدوي صحيح، فكتب أمير المؤمنين كتاباً إلى بعض عماله يقول فيه: إذا وصل كتابي هذا، فاضرب رقبة حامله، ثم دعا البدوي ودفع إليه الكتاب، وقال له: امض به إلى فلان وائتني بالجواب. فامثل البدوي ما رسم به أمير المؤمنين وأخذ الكتاب وخرج به من عنده، فبينما هو بالباب إذ لقيه الوزير، فقال: أين تريد؟ قال: أتوجه بكتاب أمير المؤمنين إلى عامله فلان، فقال الوزير في نفسه: إن هذا البدوي يحصل له من هذا التقليد مال جزيل. فقال له: يا بدوي ما تقول فيمن يريحك من هذا التعب الذي يلحقك في سفرك، ويعطيك ألفي دينار؟ فقال: أنت الكبير، وأنت الحاكم، ومهما رأيته من الرأي أفعل، قال: أعطني الكتاب، فدفعه إليه، فأعطاه الوزير ألفي دينار، وسار بالكتاب إلى المكان الذي هو قاصده، فلما قرأ العامل الكتاب أمر بضرب رقبة الوزير. فبعد أيام تذكر الخليفة في أمر البدوي، وسأل عن الوزير، فأخبر بأن له أياماً ما ظهر، وأن البدوي بالمدينة مقيم، فتعجب من ذلك وأمر باحضار البدوي، فحضر، فسأله عن حاله، فأخبر بالقصة التي اتفقت له مع الوزير من أولها إلى آخرها، فقال له: أنت قلت عني للناس أنني أبخر؟ فقال: معاذ الله يا أمير المؤمنين أن أتخذت بما ليس لي به علم، وإنما كان ذلك مكرأً منه وحسداً، وأعلمه كيف دخل به إلى بيته وأطعمه الثوم وما جرى له معه. فقال أمير المؤمنين: قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله. ثم خلع على البدوي واتخذ وزيراً وراح الوزير بحسده^(١).

كراهية البخل

قال ابن فارس في مقاييسه: «بخل: الباء والخاء واللام كلمة واحدة، وهي البُخلُ والبَخْلُ. ورجل بخيلٌ وباخلٌ. فإذا كان ذلك من شأنه فهو بَخَالٌ: قال رؤبة:

كَرَمٍ مِنْ عَيْنِيهِ تَقْوِيمُ الْفُوقِ فَلَذَاكَ بَخَالٌ أُرُوْزُ الْأَزْرِ^(١)

أما الشح فيقول عن: (الشين والحاء، الأصل فيه المنع. ثم يكون منعاً مع حرص. من ذلك الشح، وهو البخل مع حرص. ويقال: تشاح الرجلان على الأمر، إذا أراد كل واحد منهما الفوز به ومنعه من صاحبه. قال جل ثناؤه: ﴿وَمَنْ يُوقِ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢). عن جابر (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: «اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملكم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»^(٣).

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ يَخِلْ وَاسْتَغْنَىٰ ۖ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ ۖ فَيُتْرِكُهُ لِّلْعَصَىٰ ۖ فَيُتْرِكُهُ لِّلْعَصَىٰ ۖ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ [الليل: ٨ - ١١].

قال الشاعر:

وَهَبْنِي جَمَعْتُ الْمَالَ ثُمَّ خَزَنْتُهُ وَحَانَتْ وَفَاتِي هَلْ أَزَادَ بِهِ عُمرَاً
إِذَا خَزَنْتُ الْمَالَ الْبَخِيلُ فَإِنَّهُ سَيُورِثُهُ غَمّاً وَيَعْقِبُهُ وَرْثاً^(٤)

قال الواقدي:

البخل بالموجود من سوء الظن بالمعبود. وقال الجاحظ: الجبن والبخل غريزة واحدة، يجمعهما سوء الظن بالله. وقال ابن المعتز: بشر مال البخيل بحادثٍ أو وارثٍ^(٥).

(٢) م.ن.، ١٧٨/٣ - ١٧٩.

(٤) المستطرف، ٣٧٣/١.

(١) مقاييس اللغة، ٢٠٧/١.

(٣) رياض الصالحين، ٢٣٠.

(٥) التمثيل والمحاضرة، ٤٤٠.

قال رسول الله (ﷺ): «خصلتان لا يجتمعان في مؤمن: «البخل وسوء الخلق». وقال: ألا إن كل جواد في الجنة حتم على الله، وأنا به كفيل. ألا وإن كل بخيل في النار حتم على الله، وأنا به كفيل. قالوا: يا رسول الله من الجواد ومن البخيل؟ قال: الجواد من جاء بحقوق الله عز وجل في ماله، والبخيل من منع حقوق الله، وبخل على ربه، وليس الجواد من أخذ حراماً وأنفق إسرافاً»^(١).

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْصَيْنَ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ سَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (آل عمران: ١٨٠).

لا يحسبن البخيل إن جمعه للمال ينفعه، بل هو مضرّة عليه في دينه، وربما كان في دنياه، ثم أخبر الله عز وجل بمآل أمر ماله يوم القيامة ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، يأخذ بلهزمتيه - يعني بشدقيه - يقول: أنا مالك أنا كنزك».

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَكَفَرُوا بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (٢٧) ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ (٢٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ (النساء: ٣٧ - ٣٩).

يقول الله تعالى ذاماً للذين يبخلون بأموالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله به من برّ الوالدين والإحسان إلى الأقارب واليتامى والمساكين والجار وذو القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانهم من الأرقاء، ولا يدفعون حق الله فيها ويأمرون الناس بالبخل أيضاً، وقد قال رسول الله (ﷺ): «وأي داء أدوأ من البخل».

والبخلاء يكتمون نعمة الله عز وجل ويجحدوها ولا تظهر عليهم ولا تبين لا في مآكلهم ولا في ملبسهم، ولا في إعطائهم وبذلهم، وفي قوله عز وجل ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ فالكفر هو الستر والتغطية والبخيل يستر نعمة الله عليه ويكتمها ويجحدوها فهو كافر لنعمة الله عليه. قال رسول الله (ﷺ): «إن الله إذا أنعم نعمة على عبد أحب أن يظهر أثرها عليه». وفي الدعاء النبوي: «واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك قابليها وأتممها علينا».

(١) الترغيب والترهيب، ٣/ ٣٨١ - ٣٨٢.

قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ۚ ﴿١﴾ إِنَّ رَأَاهُ اسْتَقْبَحَ ۖ ﴿٢﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ ۖ ﴿٣﴾﴾ [العلق: ١-٣].

٨ - ٦.

أخبرنا الله عز وجل: إن الإنسان ذو فرح وأشر وبطر وطغيان إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله ثم تهدده وتوعده ووعظه (كلا) ردع لمن كفر بنعمة الله تعالى بطغيانه وبخله. وأوضح أن إلى الله المصير والمرجع وسيحاسب المرء على ماله من أين جمعه وفيه صرفه. قال عبد الله: منهومان لا يشبعان صاحب العلم، وصاحب الدنيا، ولا يستويان فأما صاحب العلم فيزداد رضى الرحمن، وأما صاحب الدنيا فيتمادى في الطغيان. وقد روى هذا مرفوعاً إلى رسول الله (ﷺ). وخطاب الله عز وجل تهديد وتحذير للإنسان من عاقبة الطغيان والشح. والإنسان مغمور بنعم الله تعالى فيجب عليه إنفاقها في مرضاة الله عز وجل فإذا بخل أساء استعمالها فأضر نفسه بشحه وكثرت سيئاته ببخله وقبحت سيرته، وسخط الله والناس عليه.

قال أبو محمد اسحاق الموصلي المتوفى سنة (٢٣٥هـ) في ذم البخل:

وَأَمِيرَةٌ بِالْبُخْلِ قُلْتُ لَهَا أَقْصَرِي فَلَيْسَ إِلَى مَا تَأْمُرِينَ سَبِيلُ
أَرَى النَّاسَ خِلَافَ الْجُودِ وَلَا أَرَى بَخِيلًا لَهُ فِي الْعَالَمِينَ خَلِيلُ
وَإِنِّي رَأَيْتُ الْبُخْلَ يُزْرِي بِأَهْلِهِ فَأَكْرَمْتُ نَفْسِي أَنْ يُقَالَ بَخِيلُ
وَمِنْ خَيْرِ حَالَاتِ الْفَتَى لَوْ عَلِمْتَهُ إِذَا نَالَ شَيْئًا أَنْ يَكُونَ يُنِيلُ
عَطَائِي عَطَاءَ الْمَكْثَرِينَ تَجْمَلًا وَمَالِي كَمَا قَدْ تَعَلَّمِينَ قَلِيلُ
وَكَيْفَ أَخَافُ الْفَقْرَ أَوْ أَحْرَمَ الْغِنَى وَرَأَيْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ جَمِيلُ^(١)

وقيل إن أقبح صفة للإنسان هي الشح. قال أبو هريرة (رضي الله عنه) قال رسول الله (ﷺ): «شر ما في الرجل شح هالع (محزن)، وحين خالع (يخلع القلب من شدة الخوف وعدم الإقدام)»^(٢).

قال تعالى: ﴿هَآئِنْتَ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَخْشَى نَفْسَهُ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ۖ﴾ [محمد: ٣٨].

يقول الله تعالى أنكم تدعون للانفاق في سبيل الله تعالى، فمنكم من لا يجيب إلى

(١) الترغيب والترهيب، ٣/ ٣٨٧ الحاشية.

(٢) م.ن.، ٣/ ٣٧٩.

ذلك، ومن يفعل ذلك إنما نقص نفسه من الأجر وكان ذلك وبالاً عليه، والله عز وجل غني عن كل ما سواه وكل شيء فقير إليه دائماً، ونحن الفقراء إليه المحتاجون إليه، فغناه وصف لازم له، وفقرنا وصف لازم لنا.

قال (عليه السلام): «البخل جامع لمساوىء القلوب وهو زمام يقاد به إلى كل سوء». وقالت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنهما): إن البخل لو كان قميصاً ما لبسته أو كان طريقاً ما سلكته. وقيل: بخلاء العرب أربعة: الحطيئة وحميد الأرقط وأبو الأسود الدؤلي وخالد بن صفوان. فأما الحطيئة فمر به إنسان وهو على باب داره ويده عصا، فقال: أنا ضيف فأشار إلى العصا وقال: لكعاب الضيفان أعددتها. وأما حميد الأرقط، فكان هجاء للضيفان فحاشاً عليهم. نزل به أضياف، فأطعمهم تمرأ، وهجاهم وذكر أنهم أكلوه بنواه. وهو القائل في ضيف له يصف أكله:

مَا بَيْنَ لُقْمَتِهِ الْأُولَى إِذَا أَنْحَدَرَتْ وَبَيْنَ أُخْرَى تَلِيهَا قَيْدُ أَظْفُورٍ
وقال أيضاً:

تُجْهَرُ كَفَّاهُ وَيَحْدَرُ خَلْقُهُ إِلَى الزُّورِ مَا ضَمَّتْ عَلَيْهِ الْأَنَامِلُ
وأما أبو الأسود الدؤلي، فتصدق على سائل بتمرة، فقال له: جعل الله نصيبك من الجنة مثلها. وكان يقول: لو أطعنا المساكين في أموالنا كنا أسوأ حالاً منهم..

أما خالد بن صفوان، فكان يقول للدرهم إذا دخل عليه: يا عياركم تعيروكم تطير وتطوف، لأطيلن حبسك، ثم يطرحه في الصندوق ويقفل عليه. وقيل له: لِمَ لا تنفق، ومالك عريض؟ فقال: الدهر أعرض منه.

ومن الموصوفين بالبخل أهل مرو، يقال إن عاداتهم إذا تراقبوا في سفر أن يشتري كل واحد منهم قطعة لحم ويشكها في خيط ويجمعون اللحم كله في قدر، ويمسك كل واحد منهم طرف خيطه، فإذا استوى جَزَّ كل منهم خيطه وأكل لحمه وتقاسما المرق.

وقيل البخيل: من أشجع الناس؟ قال: من سمع وقع أضراس الناس على طعامه ولم تنشق مرارته.

ومن رؤساء أهل البخل (محمد بن الجهم) وهو الذي قال: وددت لو أن عشرة من الفقهاء وعشرة من الخطباء، وعشرة من الشعراء، وعشرة من الأدباء تواطئوا على ذمي، واستسهلوا شتمي حتى ينتشر ذلك في الآفاق، فلا يمتد إلى أمل آمل، ولا يبسط نحوي رجاء راج. وقال له أصحابه يوماً أنا نخشى أن نقعد عندك فوق مقدار شهوتك، فلو جعلت

لنا علامة تعرفت بها وقت استئقالك لمجالستنا، فقال علامة ذلك أن أقول يا غلام هات الغداء.

وقيل: كنت في سفر فضلت عن الطريق فرأيت بيتاً في القلاة فأتيته، فإذا به أعرابية فلما رأنتي قالت: من تكون؟ قلت: ضيف، قالت: أهلاً ومرحباً بالضيف أنزل على الرحب والسعة، قال: فنزلت فقدمت لي طعاماً فأكلت، وماء فشربت، فبينما أنا على ذلك إذ أقبل صاحب البيت فقال: من هذا؟ فقالت: ضيفاً، فقال: لا أهلاً ولا مرحباً ما لنا وللضيف، فلما سمعتُ كلامه ركبْتُ من ساعتِي وسرْتُ فلما كان من الغد رأيت بيتاً في القلاة فقصدته، فإذا فيه أعرابية فلما رأنتي قالت: من تكون؟ قلت: ضيف، قالت: لا أهلاً ولا مرحباً بالضيف ما لنا وللضيف؟ فبينما هي تكلمني إذ أقبل صاحب البيت فلما رأني قال: من هذا؟ قالت: ضيف، قال: مرحباً وأهلاً بالضيف. ثم أتى بطعام حسن فأكلت وماء فشربت فتذكرت ما مرَّ بي بالأمس فتبسّمت، فقال: ممّ تبسّمك؟ فقصصت عليه ما اتفق لي مع تلك الأعرابية وبعّلها وما سمعت منه ومن زوجته، فقال: لا تعجب إن تلك الأعرابية التي رأيتها هي أختي وإن بعّلها أخو امرأتي هذه، فغلب على كل طبع أهله^(١).

قال ذو الأصبع العدواني:

كُلُّ أُمْرٍ صَائِرٌ يَوْمًا لِشَيْمَتِهِ وَإِنْ تَخَلَّقَ أَخْلَاقًا إِلَى حِينِ
إِنِّي لَعَمْرِي مَا بَيْتِي بِذِي غَلَقٍ عَلَى الضِّدِّيقِ وَلَا خَيْرِي بِمَمْنُونٍ^(٢)

(١) المستطرف، ٣٧٥/١ - ٣٨٣.

(٢) الشعر والشعراء، ٤٧٣.

كراهية النفاق

يقول ابن فارس في مقاييسه: «النَّفَق: سَرَبٌ في الأرض له مخلصٌ إلى مكان، والنافقاء: موضع يرققه اليربوع من جحره فإذا أتى من قبل القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فأنفق، أي خرج. وعن اشتقاق النفاق، لأن صاحبه يكتُم خلاف ما يُظهر، فكان الإيمان يخرج منه، أو يخرج هو من الإيمان في خفاء»^(١).

ونافق الرجل إذا أظهر شيئاً خلاف ما يُبطن، وهذا النوع من البشر أشد إيذاءً وإيلاماً على بقية البشر، ويظنون أنهم يخدعون الله تعالى، والله خادعهم، ولا شك، فإنه عالم بالسرائر والضمائر، ولكن المنافقين لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم يعتقدون أن أمرهم كما راج عند الناس وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهراً، فكَذلك يكون حكمهم عند الله يوم القيامة، وأن أمرهم يروج عنده كما أخبر الله تعالى عنهم أنهم يوم القيامة يحلفون له أنهم كانوا على الاستقامة والسداد ويعتقدون أن ذلك نافع لهم عنده، والله تعالى يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم ويخدلهم عن الحق والوصول إليه في الدنيا، وكذلك يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسَبْ مِنْ ثَوْرِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرٌ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُوهُمْ آتِهِمْ تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾﴾ [الحديد: ١٣ - ١٤].

فالكافر والمنافق لا يستضيء بنور المؤمن، فيوم القيامة يبعث الله ظلمة فما من مؤمن ولا كافر يرى كفه حتى يبعث الله بالنور إلى المؤمنين بقدر أعمالهم، فيتبعهم المنافقون فيقولون انظرونا نقتبس من نوركم، فإذا رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه، وكان النور دليلاً لهم من الله إلى الجنة، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا اتباعهم، فأظلم الله على المنافقين فقالوا حينئذ ﴿انظُرُونَا نَقْتِسَبْ مِنْ ثَوْرِكُمْ﴾ فإننا كنا معكم في الدنيا، قال المؤمنون

(١) مقاييس اللغة، ٤٥٥/٥.

﴿أَرْجَمُوا وِرَاءَكُمْ﴾ من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا هنالك النور. وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله (ﷺ): «إن الله تعالى يدعو الناس يوم القيامة بأسمائهم سترأ منه على عباده، وأما عند الصراط فإن الله تعالى يعطي كل مؤمن نوراً، وكل منافق نوراً، فإذا استنوا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات، فقال المنافقون: ﴿أَنْظُرُونَا نَقْتَسِي مِنْ نُورِكُمْ﴾ وقال المؤمنون: ﴿رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورَنَا﴾ فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً»^(١).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ مَذْبَذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ۖ﴾ [النساء: ١٤٢ - ١٤٣].

فالمنافقون حين يقومون إلى الصلاة وهي أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها قاموا إليها وهم كُسالى عنها، لأنهم لا نية لهم فيها، ولا إيمان لهم بها، ولا خشية، ولا يعقلون معناها، فصفة ظواهرهم أنهم يقومون كُسالى، وصفة بواطنهم أنهم «يراءون الناس»، فلا إخلاص لهم ولا معاملة مع الله بل إنما يشهدون الناس تقية لهم ومصانعة. ولهذا نراهم كثيراً ما يتخلفون عن الصلاة التي لا يرون فيها غالباً كصلاة العشاء وقت العتمة، وصلاة الصبح وقت الغلس. قال (ﷺ): «أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ولو يعلمون ما فيها لأتوها ولو حبواً، ولقد هممت أن أمر بالصلاة فتقام ثم أمر رجلاً فيصلي بالناس ثم أنطلق معي برجال ومعهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار». وقال (ﷺ): «من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو فتلك استهانة استهان بها ربه عز وجل». وقوله «ولا يذكرون الله إلا قليلاً» أي في صلاتهم لا يخشعون ولا يدرون ما يقولون بل هم في صلاتهم ساهون لاهون، وعمّا يراد بهم الخير معرضون، عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً». وقول الله تعالى: ﴿مَذْبَذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ فالمنافقون محيرون بين الإيمان والكفر فلا هم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً، ولا مع الكافرين ظاهراً وباطناً، بل ظواهرهم مع المؤمنين وبواطنهم مع الكافرين، ومنهم من يعتريه الشك فتارة يميل إلى هؤلاء وتارة يميل إلى أولئك. فالكافرون والمنافقون مصيرهم في الدرك الأسفل من النار جزاء على كفرهم الغليظ، ولن تجد لهم منقذاً ينقذهم أو يخرجهم من العذاب الأليم.

(١) تفسير ابن كثير، ٣٠٩/٤ - ٣١٠.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ٧٥﴾ [النساء: ١٤٥].

لقد وعد الله تعالى المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها، وطرردوا من رحمة الله عز وجل ولهم عذاب مقيم دائم في نار جهنم. وكلمة وعد تدل على الخير، وكلمة أوعد في اللغة تدل على التهديد والوعيد والشر، وهنا كلمة وعد تعني الخير للنار والفرحة لها بأن حصدت أجساد الكفار والمنافقين.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ٧٦﴾ [التوبة: ٦٨].

ومن المنافقين من يتهم الله في حكمه ويظنون بالرسول (ﷺ) وأصحابه (رضي الله عنهم) أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية، ولهذا أبعدهم الله من رحمته وأعد لهم العذاب مؤكداً لقدرته على الانتقام من أعداء الله والإسلام من الكفرة والمنافقين.

قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَلَمَ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعْنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ٧٦﴾ [الفتح: ٦].

وحين حمل الله عز وجل الإنسان الأمانة وهي التكليف، ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات، وهم الذين يظهرون الإيمان خوفاً من أهله، ويظنون الكافر متابعة لأهله. قال تعالى: ﴿لَيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٧٦﴾ [الأحزاب: ٧٣].

والله عز وجل ذكر أنه جامع المنافقين والكفار معاً في نار جهنم؛ لأنهم كانوا شركاء في الكفر، وكذلك فهو يشارك بينهم في الخلود في نار جهنم. ويجمع بينهم في دار العقوبة والنكال والقيود والأغلال وشراب الحميم والغسلين لا الزلال.

قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ٧٥﴾ [النساء: ١٤٠].

أمر الله عز وجل رسوله محمد (ﷺ) أن يجاهد الكفار والمنافقين ويقسو عليهم، يجاهدكم بالسلاح والقتال، ويحاصرهم في الدنيا، أما في الآخرة فمصيرهم نار جهنم وبش القرار. قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّارُ جَهْدًا أَلْكَفَّارُ الْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَطُ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَنِيسُ الْمَصِيرِ ٧٦﴾ [التوبة: ٧٣].

لقد أخبرنا رب العزة أن العزة - على الدوام - لله تعالى ولرسوله الكريم وللمؤمنين

الذين آمنوا بكتاب الله وسنة نبيه، ونصروا الله فنصرهم وأعزهم، وأدخلهم في رحمته الواسعة، وطرد الكفار والمنافقين من رحمته وأذاهم عذاب الخزي في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

والله عز وجل يتلي الناس ويختبرهم حتى يتميز هؤلاء من هؤلاء، من يطيع الله في السراء والضراء، ومن إنما يطيعه في حظ نفسه، فمن الناس من يدعون الإيمان بالاستتهم، ولم يثبت الإيمان في قلوبهم، فإذا أصابتهم مصيبة أو محنة في الدنيا اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى بهم فارتدوا عن الإسلام، ومنهم من إذا جاء نصر من الله وفتح قريب جاءوا إلى رسول الله والمؤمنين فيقولون إنا معكم، إنا إخوانكم في الدين ونحن قد ساعدنا في ذلك النصر، ولكن الله عز وجل يعلم ما في قلوبهم وما تكنه ضمائرهم.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَكَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ [النكبات: ١٠ - ١١].

فالمنافقون إنما يتفوهون بالإسلام إذا جاءوا النبي (ﷺ)، فأما في باطنهم فليسوا كذلك، فإن جاءوك يا محمد ليخبروك ويشهدوا أنك رسول الله، فهم ليسوا كذلك وإنما يكتمون في أنفسهم وضمائرهم خلاف ما يظهرون - والله يعلم إنك لرسوله - ولا حاجة لقول هؤلاء المنافقين، فإنهم كثيرو الحلف الآثم ليجعلوا غيرهم يصدقونهم، فيغتر بهم من لا يعرف جليلة أمرهم معتقد بأنهم مسلمون فربما اقتدى بهم فيما يفعلون، وصدقهم فيما يقولون، وهم من شأنهم أنهم كانوا في الباطن لا يألون الإسلام وأهله خبالاً. فحصل بذلك ضرر كبير على كثير من الناس، وقد طبع الله على قلوبهم فلا يصل إليها هوى، ولا يخلص إليها خير فلا تعي ولا تهتدي. «وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم» إذ أنهم ذوي أشكال حسنة، وذوي فصاحة وألسنة، وإذا سمعهم السامع يصغي إلى قولهم لبلاغتهم. وهم مع ذلك في غاية الضعف، والخور، والهلع، والجزع، والجبن، فكلما وقع أمر أو خوف يعتقدون لجبنهم أنه نازل بهم. فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي (ﷺ) قال: «إن للمنافقين علامات يعرفون بها، تحيتهم لعنة، وطعامهم نهية، وغينمتهم غلال، ولا يقربون المساجد إلا هجراً. ولا يأتون الصلاة إلا دبراً، مستكبرين لا يألون ولا يؤلفون، خشب بالليل، صخب بالنهار»^(١).

(١) تفسير ابن كثير، ٣٦٩/٤.

قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ فَوَلَّيَهُمُ اللَّهُ أَنَّهُ يُؤَفِّكُوكَ ﴿٤﴾﴾ [المنافقون: ١ - ٤].

وأخبرنا الله عز وجل أن في الأعراب كفاراً ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد وأجدر أي أخرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله الكريم (ﷺ)، عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن الرسول (ﷺ) قال: «من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتن».

قال تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ [التوبة: ٩٧].

ومنهم من «مردوا على النفاق» كما أخبرنا الله عز وجل فيهم: وقوله عز وجل مردوا أي مرثوا واستمروا عليه.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [التوبة: ١٠١].

وقيل: إن المنافقين يعذبون مرتين، (القتل والسبي)، وقيل: (الجوع وعذاب القبر) ثم يردون إلى عذاب عظيم (النار).

كراهية الإسراف والتبذير

جاء في معاجم اللغة أن السرف والإسراف: مجاوزة القصد، وأسرف في ماله: عَجَلَ من غير قصد، وأما السرف الذي نهى عنه الله عز وجل فهو ما أنفق في غير طاعته إن قلَّ أو كثر. والإسراف في النفقة: التبذير. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾. قال سفيان: لم يُسرفوا أي لم يضعوه في غير موضعه، ولم يقتروا لم يقصروا به عن حقه، وقوله ولا تسرفوا، الإسراف أكل ما لا يحل أكله، وقيل: هو مجاوزة القصد في الأكل مما أحله الله. وقيل: الإسراف ما قُصد به عن حق الله. وقيل: أسرف في الكلام وفي القتل: أفرط. قال تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾ ويقال السرف: الخطأ، وأخطأ الشيء، وضعه في غير حقه، قال جرير بن عطية يمدح بني أمية:

أَعْطُوا هُنَيْدَةَ يَخْذُوهَا ثَمَانِيَةً مَا فِي عَطَائِهِمْ مَنْ وَلَا سَرْفَ
أي إغفال، وقيل: ولا خطأ، يريد أنهم لم يخطئوا في عطيتهم ولكنهم وضعوها موضعها أي لا يخطئون موضع العطاء بأن يعطوه من لا يستحق ويحرموه المستحق.

ويقال: سَرَفَ الماء ما ذهب منه في غير سقي ولا نفع، يقال: أروت البئر النخيل وذهب بقية الماء سَرَفًا، قال الهذلي:

فَكَأَنَّ أَوْسَاطَ الْجَدْيَةِ وَسَطُهَا سَرَفَ الدَّلَاءِ مِنَ الْقَلْبِ الْخَضِرِ
وقيل: سرف الفؤاد: مخطيء الفؤاد غافلة؛ قال طرفة:

إِنَّ أَمْرًا سَرَفَ الْفُؤَادِ يَرَى عَسَلًا بِمَاءٍ سَحَابَةٍ شَتْمِي
سَرَفَ الْفُؤَادِ: غافل، وسرف العقل: قليل.

قال ابن الإعرابي: أسرف الرجل إذا جاوز الحد، وأسرف إذا أخطأ، وأسرف إذا غفل، وأسرف إذا جهل. وحكى الأصمعي عن بعض الأعراب وواعده أصحاب له من المسجد مكاناً فأخلفهم فقليل له في فقال: مررت فسرفتكم أي أغفلتكم.

وقيل أن مسرف: اسم، وقيل: هو لقب مسلم بن عقبة المُرِّي صاحب وقعة الحرّة،

لأنه قد أسرف فيها؛ قال علي بن عبد الله بن العباس:

هُم مَنَعُوا ذِمَارِي يَوْمَ جَاءَتْ كَتَائِبُ مُسْرِفٍ وَبُئِيَ اللَّكِيْعَةُ^(١)

وقال ابن فارس في التبذير: «بذر: الباء والذل والراء أصل واحد، وهو نشر الشيء وتفريقه. يقال: بذرت البذر أبذره بذراً، وبذرت المال أبذره وتبذيراً. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾» ^(٢) «إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ». والبذر: القوم لا يكتمون حديثاً ولا يحفظون ألسنتهم. قال علي (عليه السلام): (أولئك مصاييح الذجي، ليسوا بالمصاييح ولا المذاييع البذر) «فالمذاييع الذين يذيعون»^(٣).

أخبرنا الله تعالى أن المسرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة لهم عذاب في الحياة الدنيا أما في الآخرة فعذابهم أشد ألماً وأدوم عليهم فهم مخلدون فيه.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾

[طه: ١٢٧].

وإن الله لا يهدي كل مسرف كذاب، أو مسرف مرتاب، إذ كان في زمن فرعون رجل صالح مؤمن يخفي إيمانه، فجاء بالصدق ولو كان يزعم أن الله تعالى أرسله إليكم كاذباً كما تزعمون لكان أمره بيناً يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله، فكانت تكون في غاية الاختلاف والاضطراب، وهذا نرى أمره سديداً ومنهجه مستقيماً، ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله وأرشدته إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

وبعث الله عز وجل سيدنا يوسف (عليه السلام) قبل سيدنا موسى (عليه السلام) إلى أهل مصر ودعا إلى الله بالقسط فلم يطيعوه تلك الطاعة إلا بمجرد الوزارة والجاه الدنيوي، وأصروا على كفرهم وعنادهم وتكذيبهم وأن لن يبعث الله رسولاً بعده، فحالكم هذا حال من يضل الله لإسرافه في أفعاله وأقواله وإرتيابه قلبه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

(٢) مقاييس اللغة، ٢١٦/١.

(١) اللسان، مادة سرف.

إن مرد المسرفين إلى الله، وأن مصيرهم النار لشركهم، فإسرافهم هو شركهم بالله تعالى، فيجازي كل بعمله، وأن المسرفين الكاذبين مصيرهم إلى النار خالدين فيها.

قال تعالى: ﴿لَا جَزَاءَ لَنَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكُمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٣].

وعلى العبد ألا يقنط (يئأس) من رحمة الله تعالى، فالله تعالى يغفر الذنوب جميعاً مع التوبة النصوحة، ولا يقنطن أحد من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه وأسرف فيها وكثرت، فإن باب الرحمة والتوبة واسع قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾. جاء رجل إلى رسول الله (ﷺ) قال: يا رسول الله إن لي غدرات وفجرات فهل يغفر لي؟ قال (ﷺ): «الست تشهد أن لا إله إلا الله؟ قال: بلى. وأشهد أنك رسول الله. فقال (ﷺ) قد غفر لك غدراتك وفجراتك».

قال تعالى: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُمْ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

إن الدين الحنيف هو دين الاعتدال والوسطية، فإن أنفقنا مالا فلا يكون تبذيراً، وإن أنقصنا فلا يكون إمساكاً أو بخلاً، وإنما هو الاعتدال في الانفاق فلا إسراف أو تبذير، ولا إمساك أو تقصير. فلا تبذير في الإنفاق فيصرف الإنسان فوق حاجته، ولا بخيلاً على أهله، فيقصر في حقهم فلا يكفيهم، بل عدلاً خياراً، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا.

قال رسول الله (ﷺ): «ما أحسن القصد في الغنى وما أحسن القصد في الفقر، وما أحسن القصد في العبادة». قال الحسن البصري: «ليس في النفقة في سبيل الله سرفاً». وقال إياس بن معاوية: «ما جاوزت به أمر الله تعالى فهو سرف، وقال غيره: السرف النفقة في معصية الله عز وجل».

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عباده، فاللباس زينة فلا يكون خيلاء ولا تكبر، والأكل والشرب قد أحله الله عز وجل ما لم يكن سرفاً أو مخيلة. قال ابن عباس: «كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة». وقال (ﷺ): «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة أو سرف فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده».

وقال رسول الله (ﷺ): «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فإن كان فاعلاً لا محالة فنلت ل طعامه وثلت لشرا به وثلت لنفسه» فلا نأكل حتى نملأ معدتنا أو نتخم، وألا نأكل حراماً فذلك هو الإسراف، والله يحب أن يحلل ما أحل،

ويحرم ما حرم، وذلك العدل الذي أمر به».

قال تعالى: ﴿يَنْهَى مَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿٣١﴾ [الأعراف: ٣١].

وعلى المسلم ألا يكون مسرفاً مبذراً فإن المسلم لو أنفق ماله كله في الحق لم يكن مبذراً، ولو أنفق مراً في غير حق كان مبذراً، والتبذير في النفقة في معصية الله تعالى وفي غير الحق والفساد. وفي التبذير سفه وترك لطاعة الله، وارتكاب لمعصيته.

قال تعالى: ﴿وَمَاتَ ذَا الْقُرْنَيْنِ حَقًّا وَالْمَسْكِينُ وَابْنُ السَّبِيلِ وَلَا بُدَّزَّرَ بَبْذِيرًا﴾ ﴿٦٦﴾ إِنَّ الْمَبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٧٧﴾ [الإسراء: ٢٦ - ٢٧].

فقد قرن الله تعالى المبذر أو المسرف بالشیطان الذي جحد وأنكر نعمة الله عليه، ولم يعمل بطاعته، بل أقبل على معصيته ومخالفته.

قال الجاحظ: «أعلم أن الحسد اسم لما فضل من المنافسة، كما أن الجبن اسم لما فضل عن الترقى، والبخل اسم لما قصر عن الاقتصاد، والسرف اسم لما جاوز الجود»^(١).

قال الشاعر:

عَلَيْكَ بِأَوْسَاطِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا نَجَاةٌ وَلَا تَرْكَبْ ذُلُولاً وَلَا صَغْباً
قال آخر:

وَحَيْرُ خَلَائِقِ الْأَقْوَامِ خُلُقٌ تَوْسُطٌ لَا أَحْتِشَامَ وَلَا أَغْتِنَاقًا^(٢)

(١) الترييع والتدوير، ١٧.

(٢) الثعالبي، التمثيل والمحاضرة، ٤٢٩.

كراهية الخيانة والغدر

قال ابن فارس في باب خَوْنٌ: «الخاء والواو والنون أصل واحد، وهو التنقص، يقال: خانه يخونه خونا، وذلك نقصان الوفاء. ويقال: تخونني فلان حقي، أي تنقصني.

قال ذو الرمة:

لَا بَلْ هُوَ الشُّوقُ مِنْ دَارٍ تَخُونُهَا مَرَأْسَحَابٌ وَمَرَأً بَارِخٌ تَرِبُ^(١)
وقال في الغدر: «الغبن والدل والراء أصل صحيح يدل على ترك الشيء. عن ذلك الغدر: نقض العهد وترك الوفاء به. يقال: غدر يغدر غدرًا. ويقولون في الدَّم: يَا غُدْرُ، وفي الجمع: يَالَ غُدْرَ. ويقال: ليلة غِدْرَة: بيّنة الغدر: أي مظلمة. وقيل لها ذلك لأنها تغادر الناس في بيوتهم فلا يخرجون من شدة ظلمتها»^(٢).

عن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) أن رسول الله (ﷺ) قال: «أربع من كن فيه، كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن، كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»^(٣).

قال رسول الله (ﷺ): «أعجل الأشياء عقوبة البغي» وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «المكر والخديعة والخيانة في النار». وقال أبو بكر الصديق (رضي الله عنه): «ثلاث من كن فيه كن عليه، البغي والنكث والمكر». وكم أوقع الغدر في المهالك من غدر، وضاعت عليه من موارد الهلكات فسيحات المصادر، وطوقه غدره وطوق خزي، فهو على فكه غير قادر، وأوقعه في خطة خسف (ذل وقهر ونقص)، وورطة حتف (موت). فما له من قوة ولا ناصر^(٤). والله عز وجل لا يحب الخائن وكل من يتصف بصفة ذميمة كالخيانة، يقول الله عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

(٢) م.ن.، ٤/١٣٤.

(٤) المستطرف، ١/٤٤٧.

(١) مقاييس اللغة، ٢/٢٣١.

(٣) رياض الصالحين، ٥٥٣.

وقال: ﴿وَلَا تُجَدِّلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا

[النساء: ١٠٧]. ﴿١٧﴾

وقال: ﴿وَلِمَا تَخَافَتَ مِن قُوَّةٍ حِيَانَةً فَأَنذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَآئِنِينَ﴾ ﴿٥٨﴾

[الأنفال: ٥٨].

وأمرنا الله عز وجل في محكم آياته أن لا نخون الله ورسوله (ﷺ)، وألا نخون الأمانات. والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية، والأعمال التي اتّمتن الله عليها العباد كالفریضة فلا ينقضوها. وإلا يخون الله ورسوله (ﷺ) بترك سنة الرسول الكريم، وارتكاب المعاصي والآثام.

قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أَمَنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٧﴾

[الأنفال: ٢٧].

وفي الغدر والخيانة قصص كثيرة منها:

قيل أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري، كان من أنصار النبي (ﷺ)، فجاءه يوماً وقال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال له رسول الله (ﷺ): «ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه، ثم آتاه مرة ثم مرة ثم قال: والذي بعثك بالحق نبياً لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه، وعاهد الله تعالى على ذلك، فقال رسول الله (ﷺ): «اللهم أرزق ثعلبة ما قال، فاتخذ ثعلبة غنماً فنمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة، فتنحى عنها، ونزل وادياً من أوديتها، وهي تنمو وكان ثعلبة لكثرة ملازمته المسجد يقال له حمامة المسجد، فلما كثرت الغنم وتنحى صار يصلي مع رسول الله (ﷺ) الظهر والعصر، ويصلي بقية الصلوات مع غنمه، فكثرت ونمت حتى بعد عن المدينة، فصار لا يشهد إلا الجمعة، ثم كثرت ونمت فتباعد أيضاً عن المدينة، حتى صار لا يشهد جمعة ولا جماعة، فكان إذا كان يوم الجمعة خرج يتلقى الناس ويسألهم عن الأخبار، فذكره رسول الله (ﷺ) ذات يوم فقال: ما فعل ثعلبة؟ قالوا: يا رسول الله اتخذ غنماً ما يسعها واد، فقال رسول الله (ﷺ): يا ويح ثعلبة. فأنزل الله تعالى آية الصدقة، فبعث رسول الله (ﷺ) رجلين، رجل من بني سليم، ورجل من جهينة، وكتب لهما أيضاً بالصدقة، وكيف يأخذانها، وقال لهما: مرّا بثعلبة بن حاطب، فسألاه الصدقة، وأقرأه كتاب رسول الله (ﷺ)، فقال: ما هذه إلا جزية، أو ما هذه إلا أخت الجزية؟ انطلقا حتى تفرغا، ثم عودا إليّ فانطلقا، وسمع بهما السلمي، فنظر إلى خيار إبله، فعزلها للصدقة، ثم استقبلهما بها، فلما رأياه قال: ما هذا؟ قال: خذاه، فإن نفسي به طيبة، فمرّا على الناس وأخذوا الصدقات، ثم رجعا إلى ثعلبة، فقال: أروني كتابكما، فقرآه، ثم قال: ما هذه إلا جزية، أو ما هذه إلا أخت الجزية؟ إذهباً حتى

أرى رأياً. قال: فذهبا من عنده، وأقبلا على رسول الله (ﷺ) فلما رآهما قال قبل أن يتكلما: يا ويح ثعلبة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَكُمْ أَنَّهُمْ لَا يَحْلُونَ عَلَيْكُمْ صُلْحًا فَمَا أَبَدُوا مُنَافِقِينَ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾. وكان عند رسول الله (ﷺ) رجل من أقارب ثعلبة، فسمع ذلك، فخرج حتى أتاه، فقال: ويحك يا ثعلبة قد نزل الله فيك كذا وكذا. فخرج ثعلبة حتى أتى النبي (ﷺ)، فسأله أن يقبل الصدقة، فقال: إن الله تعالى منعني أن أقبل منك صدقة، فجعل ثعلبة يحثو التراب على رأسه ووجهه، فقال رسول الله (ﷺ): هذا عملك قد أمرتك، فلم تطعني، فلما أبى رسول الله (ﷺ) أن يقبل صدقته رجع إلى منزله، وقبض رسول الله (ﷺ) ولم يقبل منه شيئا، ثم أتى إلى أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) حين استخلف، فقال: قد علمت منزلتي من رسول الله (ﷺ) وموضعي من الأنصار، فاقبل صدقتي، فقال أبو بكر (رضي الله عنه): لم يقبلها رسول الله (ﷺ) منك، فلا أقبلها أنا، وجاء عمر فلم يقبلها، وجاء عثمان بن عفان (رضي الله عنه) فلم يقبلها، ومات ثعلبة في خلافته.

فانظر إلى سوء عاقبة غدره كيف أذاقه وبال أمره، ووسمه سمة عار قضت عليه بخسره، وأعقبه نفاقاً يخزيه من غدر يسوق إلى النفاق، وأي عار أفضح من نقض العهد إذا عدت مساوي الأخلاق، وكان يقال: لم يغدر غادر قط إلا لصغر همته عن الوفاء، واتضاع قدره عن احتمال المكاره في جنب نيل المكارم، قال الشاعر:

غَدَرْتُ بِأَمْرِ كُنْتُ أَنتَ جَذْبَتْنَا إِلَيْهِ وَيَتَسَّ الشِّيمَةُ الْغَدْرُ بِالْغَيْهِ^(١)

ولا يكون الغدر والخيانة في الإنسان فقط، بل نجده لدى الحيوان حتى يعتبر به الإنسان، قيل: «وخرج قوم لصيد فطردوا ضبعة حتى ألجوها إلى خباء أعرابي فأجارها وجعل يطعمها ويسقيها، فبينما هو نائم ذات يوم إذ وثبت عليه فبقرت بطنه وهربت، فجاء ابن عمه يطلبه، فوجده ملقى فتبعها حتى قتلها وأنشد يقول:

وَمَنْ يَصْنَعِ الْمَعْرُوفَ مَعَ غَيْرِ أَهْلِهِ يُلَاقِي كَمَا لَاقَى مُجِيرُ أُمِّ عَامِرٍ
أَعَدَّ لَهَا لَمَّا اسْتَجَارَتْ بَيْتَهُ أَحَالِيْبَ أَلْبَانِ اللَّقَاحِ الدَّوَاتِرِ
وَأَسْمَنَهَا حَتَّى إِذَا مَا تَمَكَّنَتْ فَرْتُهُ بِأَنْيَابِ لَهَا وَأَظْفَارِ
فَقُلْ لِدَوِيِّ الْمَعْرُوفِ هَذَا جَزَاءُ مَنْ يَجُودُ بِمَعْرُوفٍ عَلَى غَيْرِ شَاكِرٍ

(١) المستطرف، ٤٤٧/١ - ٤٥٠.

وحكى بعضهم قال: دخلت البادية فإذا أنا بعجوز بين يديها شاة مقتولة وإلى جانبها جرو وذئب، فقالت: أتدري ما هذا؟ فقلت: لا، قالت: هذا جرو ذئب أخذناه صغيراً وأدخلناه بيتنا وربيناه، فلما كبر فعل بشاتي ما ترى، وأنشدت:

بَقَرْتُ شُوَيْهَتِي وَفَجَعْتُ قَوْمِي وَأَنْتَ لِشَاتِنَا ابْنَ رَبِيبٍ
غُذِيَتْ بِدَرْهَا وَنَشَأَتْ مَعَهَا فَمَنْ أَنْبَاكَ أَنَّ أَبَاكَ ذِيبٌ
إِذَا كَانَ الطَّبَاعُ طِبَاعَ سِوٍ فَلَا أَدَبٌ يُفِيدُ وَلَا أَدِيبٌ^(١)

والناظر في هذه القصص يجد أن الغدر والخيانة، قد أودت صاحبها في تعاسة وخزي وعار وفقر دائم، وأن النهاية كانت له أن اتضع قدره، وأخزاه الله في الدنيا والآخرة، فتعلبة بن حاطب مثلاً كان رجلاً تقياً ورعاً لا يترأخى عن صلاة مفروضة، وكان قانعاً برزقه، وكانت له مكانته بين قومه، إلا أنه لم ينقع بالقليل وأراد رزقاً واسعاً، وعاهد الله أن ينفق ويتصدق، ولكن المال جر إليه الويل والهلاك، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَبَدَّرَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿١١﴾ [يونس: ١١].

وما كان منه إلا أن نقض ما عاهد الله عليه، وتراجع، وحين طلب إليه الإنفاق كف وتراجع، ولا يعلم أن المال لله تعالى ونحن مستخلفين فيه، وظهر هنا حبه للمال وتمسكه بالثروة، وخاف عليها النقصان، ولا يعلم أن الله يُربي الصدقات، لمن كان قلبه مع الله تعالى والخير الطيب من المال، كما فعل السلمي حين اختار من إبله أفضلها وأسمنها، صدقة لوجه الله تعالى، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ﴿٨٩﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩].

فأخذ ثعلبة يهيل التراب على رأسه ووجهه، وكانت نهايته وخيمة، ذلك بأنه عصى أوامر الله تعالى ورسوله (ﷺ) فهذه نهاية كل غادر، خائن، لا يراعي حق الله تعالى ولا يؤديه.

(١) المستطرف، ١/ ٤٥٢.

كراهية التكبر والاختيال والعجب

قال ابن فارس: «الكِبَر: العظمة، وكذلك الكبرياء، ويقال: ورثوا المجد كابراً عن كابر، أي كبيراً عن كبير في الشرف والعز، وعلت فلان كِبَرَةً، إذا كبر. ويقال: أكبرتُ الشيء: استعظمته»^(١).

وقال في العُجب: «وهو أن يتكبر الإنسان في نفسه، تقول: هو معجبٌ بنفسه. وتقول من باب العجب، عجبني يعجب عجباً، وأمرٌ عجيب، وذلك إذا استكبر واستُعْظِم»^(٢).

والكبرياء في المأساة الإغريقية القديمة هي الكبرياء التي تملأ نفس البطل، فتدفعه إلى عدم الاعتداد بإنذار الآلهة. وإلى انتهاك شرائعهم، وتحدي الأقدار، مثال ذلك كبرياء كليون في مأساة انتجوني لسوفوكليس، وفي آخر المأساة يخاطب رئيس الجوقة جمهور النظارة قائلاً: لا سعادة حيث لا حكمة، ولا حكمة إلا في الخضوع للآلهة، وصيحة الكبرياء عقوبتها آتية لا ريب فيها، ولا يبلغ المتكبر حكمته قبل هرمه وشيخوخته»^(٣).

اعلم أخي المسلم أن الكبر والإعجاب يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل، وحسبك من رذيلة تمنع من سماع النصيح وقبول التأديب، والكبر يكسب المقت، ويمنع من التألف والمحبة والود، وقيل: لا يتكبر إلا كل وضع، ولا يتواضع إلا كل رفيع، وقال الجاحظ: «المشهورون بالكبر من قريش بنو مخزوم، وبنو أمية، ومن العرب «بنو جعفر بن كلاب، وبنو زرارة بن عدي».

وأما الأكاسرة فكانوا لا يعدون الناس إلا عبيداً، وأنفسهم إلا أرباباً وقيل: مرّ بعض أولاد المهلب بمالك بن دينار وهو يتبختر في مشيه، فقال له مالك: يا بني لو تركت هذه الخيلاء لكان أجمل بك، فقال: أو ما تعرفني؟ قال: أعرفك معرفة أكيدة أولئك نطفة مذرة

(٢) م.ن. ٢٤٣/٤.

(١) مقاييس اللغة، ١٥٤/٥.

(٣) معجم المصطلحات العربية، ٣٠٤.

(قدرة فاسدة)، وآخرك جيفة قدرة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة، فأرخى الفتى رأسه وكف عما كان عليه.

قال الشاعر:

قُولاً لَأَحْمَقَ يَلُوي التَّيْهَ أَخْدَعُهُ لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا فِي التَّيْهِ لَمْ تَتِهَ
التَّيْهِ مَفْسَدَةُ لِلْدِّينِ مَنَقْصَةً لِلْعَقْلِ مَهْلَكَةً لِلْغُرُصِ فَأَنْبَتَهُ^(١)

واعلم أن الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر، فالباطن، هو خلق في النفس، والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح، قال الغزالي: المتكبر عليه هو الله تعالى أو رسله أو سائر خلقه، وقد خلق الإنسان ظلوماً جهولاً، فتارة يتكبر على الخلق، وتارة يتكبر على الخالق، فالتكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة أقسام:

١ - التكبر على الله ومثاره الجهل المحض والطغيان، وكان نمرود يحدث نفسه أن يقاتل رب السماء، وفرعون قال: أنا ربكم الأعلى.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] أي أن المتكبرين سيدخلون جهنم داخرين أي صاغرين حقيرين، فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وعن النبي (ﷺ) قال: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ النَّاسِ يَعْلَمُهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ حَتَّى يَدْخُلُوا سَجَنًا فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ بُولَسُ تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ يَسْقُونَ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ عَصَاةُ أَهْلِ النَّارِ»^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنْسَجِدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠].

٢ - التكبر على الرسل من حيث تعزز النفس وترفعها عن الانقياد لبشر كما حكى الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا أَطَاعَتْ بَشَرًا مِمَّنْ بَنَیْنا مِنْكُمْ إِذْ أَخْبَرُوا أَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّا اتَّبَعْنَا آلِهَتَنَا وَتَوَّعْنَا لَآءِ عَذَابِ اللَّهِ﴾ [المؤمنون: ٤٧]. وقال: ﴿قَالُوا إِنَّا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ نَصُودَوكُمْ عَمَّا كُنَّا بَعْبُدُ آبَاءَنَا فَأَنْتُمْ سُلْطَانُكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٠]. وقال: ﴿قَالُوا مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتَ إِلَّا تَكْذِيبٌ﴾ [١٥ - ١٦] وقال: ﴿وَمَا مَنَعَ

(٢) تفسير ابن كثير، ٤/ ٨٨.

(١) المستطرف، ١/ ٢٨٥.

النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ [الإسراء: ٩٤].

٣ - التكبر على العباد. وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحققر غيره، فتأبى نفسه عن الإنقياد لهم وتدعوه إلى الترفع عليهم فيزدرهم ويستصغروهم ويأنف من مساواتهم، فالعز والكبر والعظمة لا يليق إلا بالملك القادر، فأما العبد المملوك الضعيف العاجز الذي لا يقدر على شيء، فمن أين يليق بحاله الكبر؟ فمهما تكبر العبد فقد نازع الله في صفة لا تليق إلا بجلاله.

فعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة (رضي الله عنهما) قالوا: قال رسول الله (ﷺ): «يقول الله عز وجل: العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبتة»^(١).

وإذا كان الكبر على عباده لا يليق إلا به، فمن تكبر على عباده فقد جنى عليه، وقد نازع الله في حقّه..

ورذيلة الكبر تكبر وتعظم حين يدعى إلى مخالفة الله تعالى في أوامره، فالمتكبر حين يسمع الحق من عبد من عباد الله عز وجل استنكف عن قبوله وتشمر لجحده، واحتال لدفعه بما يقدر عليه من التلبيس، وهذا خلق المنافق والكافر. قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ لَأُمْلِكُوْا تَغْلِبُوْنَ﴾ ﴿٢٦﴾ [فصلت: ٢٦].

فكل من يناظر للعلبة والإفحام لا ليغتنم الحق إذا ظفر به فقد شاركهم في هذا الخلق، وكذلك يحمل ذلك على الأنفة من قبول الوعظ، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

وانظر إلى إبليس إذ تكبر على سيدنا آدم (عليه السلام) بالنسب. قال تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

أما العجب فيدعو صاحبه إلى نسيان الذنوب وإهمالها، ويتولد منه الكبر والمُعجب يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه، ويشني على نفسه ويزكيها، ويستنكف من الاستفادة والاستنارة، وسؤال من هو أعلم منه، ولا يسمع النصيحة، ولا الوعظ، ويصرُّ على خطئه، ويكون عجبه ببدنه وجماله وصحته، بعقله وكياسته وفظنته، ببطشه وقوته، بنسبه الشريف، بالنسب إلى السلاطين الظلمة والأعوان، بكثرة الولد والعدد والعشيرة والأنصار والأتباع قال تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ ﴿٣٥﴾ [سبا: ٣٥].

قال رسول الله (ﷺ): «من سرّه أن يكون أكرم الناس فليتق الله».

(١) الترغيب والترهيب، ٥٦٢/٣.

قال الشاعر :

النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التَّمَثَالِ أَكْفَاءُ أَبُوهُمْ آدَمُ وَالْأُمُّ حَوَاءُ
فَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ فِي أَصْلِهِمْ شَرَفٌ يُفَاخِرُونَ بِهِ فَالطُّيْنُ وَالْمَاءُ
مَا الْفَخْرُ إِلَّا لِأَهْلِ الْعِلْمِ إِنَّهُمْ عَلَى الْهُدَى لِمَنْ اسْتَهْدَى أَدْلَاءُ
وَقَدَرُ كُلِّ أَمْرٍ مَا كَانَ يَحْسُنُهُ وَالْجَاهِلُونَ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَعْدَاءُ
وَإِنْ أَتَيْتُ بِجُودٍ فِي ذَوِي نَسَبٍ فَإِنْ نَسَبَتْنَا جُودَ وَعِلْيَاءُ
فَفُزْ بِعِلْمٍ تَعِشْ حَيًّا بِهِ أَبَدًا النَّاسُ مَوْتَى وَأَهْلُ الْعِلْمِ أَحْيَاءُ^(١)
وقد حذرنا رسول الله (ﷺ) من الكبر، وحضَّ على التواضع فإنه من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر على الله فقد أذله ووضعه، وجعله في درجة أسفل سافلين.

عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) عن رسول الله (ﷺ) قال: «من تواضع لله درجة يرفعه الله درجة حتى يجعله الله في أعلى عليين، ومن تكبر على الله درجة يضعه الله درجة حتى يجعله في أسفل سافلين، ولو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس عليها باب، ولا كوة لخرج ما غيَّه للناس كائنًا ما كان»^(٢).

فإن من شعر بالضعف والتذلل والحاجة إلى الخالق عز وجل ونفسه متواضعة احترمه الناس وعظموه وأجلوه، ورفع الله وأعزه، أما المتفاخر المتكبر على الله فإن الله عز وجل يذله وتراه من ضعف عقله معتزلاً مهانئاً حقيراً ويحسب أنه كبير. قال الشاعر:

تَوَاضَعُ تَكُنْ كَالنَّجْمِ لَاحٍ لِنَاطِرٍ عَلَى صَفْحَاتِ الْمَاءِ وَهُوَ رَفِيعُ
وَلَا تَكُ كَالِدُخَانِ يَغْلُو بِنَفْسِهِ إِلَى طَبَقَاتِ الْجَوِّ وَهُوَ وَضِيعُ
وعن جابر (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: «إن من أحبكم إليّ، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إليّ، وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون. قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارين والمتشدقين فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون»^(٣).

وروي عن أسماء بنت عميس (رضي الله عنها) قالت: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «بئس العبد عبد تخيل واختال، ونسي الكبير المتعال، بئس العبد عبد تجبر واعتدى، ونسي الجبار الأعلى، بئس العبد عبد سها ولها، ونسي المقابر والبلى، بئس العبد عبد عتى

(٢) الترغيب والترهيب، ٣/ ٥٦٠.

(١) الترغيب والترهيب، ٣/ ٥٧٢.

(٣) م.ن.، ٣/ ٥٦٢.

وطغى، ونسي المبتدأ والمنتهى، بشس العبد عبد يختل الدنيا بالدين بالشهوات. بشس العبد عبد طمع يقوده، بشس العبد عبد هوى يضلّه، بشس العبد عبد رَغَبٍ يُذَلِّهِ^(١).

فلفظة بشس تقال للذم والسُّخْط، قالها الرسول الكريم (ﷺ) لكل عبد استكبر، وجاوز الحد والمقدار في العصيان وبغى وظلم نفسه وغيره، والمعاند العاتى المتكبر على الله البعيد عن الحق المعاند له. قال تعالى: ﴿وَاغَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ﴿مِنْ رَأْيِهِ جَهَنَّمَ﴾ وَشَقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ [إبراهيم: ١٥ - ١٦].

(١) م.ن.، ٣/٥٧٠.

كراهية الكذب

جاء في معاجم اللغة أن الكذب هو نقيض الصدق، كذب يكذب كَذِباً وكِذْباً وكَذْبة وكِذْبة وكِذَاباً وكِذَاباً. وأنشد اللحياني:

نَادَتْ حَلِيمَةً بِالْوَدَاعِ، وَأَذْنَتْ أَهْلَ الصَّفَاءِ، وَوَدَّعَتْ بِكَذَابِ
وَرَجُلٍ كَاذِبٍ، وَكَذَابٍ، وَيَكْذَابٍ، وَكَذُوبٍ، وَكَذُوبَةٍ، وَكَذْبَانٍ، كِيْذْبَانٍ،
وَكِيْذْبَانٍ، وَمَكْذِبَانٍ، وَمَكْذِبَانَةٍ، وَكَذِبْزِبَانٍ، وَكَذِبْزِبٍ، وَكَذْذِبْزِبٍ.

قال جريبة بن الأشيم:

فَإِذَا سَمِعْتَ بِأَنَّنِي قَدْ بَعَثْتُكُمْ بِوَصَالِ غَانِيَةٍ، فَقُلْ كَذْذِبْزِبٍ
ويقال للأنثى: كاذبة، وكذابة، وكذوب.

والكُذْبُ: جمع كاذبٍ، قال أبو داود الرؤاسي:

مَتَى يَقُلْ تَنْفَعِ الْأَقْوَامَ قَوْلَتُهُ إِذَا اضْمَحَلَّ حَدِيثُ الْكَذْبِ الْوَلَعَةُ
أَلَيْسَ أَقْرَبَهُمْ خَيْرًا، وَأَبْغَدُهُمْ شَرًّا، وَأَجْمَهُمْ كَفًّا لِمَنْ مَنَعَهُ
لَا يَخْسُدُ النَّاسَ فَضَّلَ اللَّهُ عَنْدَهُمْ إِذَا تَشَوَّهَ نَفُوسَ الْحَسَدِ الْجَشَعَةُ
الولعة: جمع والٍ، والوالع: الكاذب، والكُذْبُ جمع كذوب.

وفي المثل، ليس لمكذوبٍ رأي. ومن أمثالهم: المعاذرُ مكاذبٌ.

يقال: حمل فما كذب. وقوله تعالى: «ما كذب الفؤاد ما رأى»، يقول: ما كذب فؤاد محمد (ﷺ) ما رأى.

ويقال: كذبنِي فلانُ أي لم يصدقني. فقال لي الكذب، وأنشد للأخطل:

كَذَبْتُكَ عَيْنُكَ، أَمْ رَأَيْتَ بِوَاسِطِ غَلَسَ بِالظُّلَامِ مِنَ الرِّبَابِ خِيَالاً؟
وقوله: ناصية كاذبة أي صاحبها كاذبٌ فأوقع الجزء موقع الجملة، ورؤيا كذوبٌ.

أنشد ثعلب:

فحيَّت فحيّاها فهبَّ فحلقت مَعَ النُّجم رؤيا، في المنام، كَذُوبٌ
ويقال للكذب: كذاب، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا﴾ أي كذبا؛
وأنشد أبو العباس قول أبي داود:

قُلْتُ لِمَاءَ صَلا مِنْ قُتَّةٍ كَذَبَ الْعِيزُ وَإِنْ كَانَ بَرَحٌ
قال معناه: كذب العير أن ينجو مني أي طريق أخذ، سانحا أو بارحا.

والتكاذب مثل التصادق، تكذبوا عليه: زعموا أنه كاذب، قال أبو بكر الصديق (رضي الله عنه):

رَسُولُ أَتَاهُمْ صَادِقٌ، فَكَذَّبُوا عَلَيْهِ وَقَالُوا: لَسْتَ فِينَا بِمَا كُنْتَ
وأكذبه: ألفاه كاذبا، أو قال له: كذبت. وفي التنزيل العزيز: فإنهم لا يكذبونك،
قرأت بالتخفيف والتثقيل. وقال الفراء، وقرئ لا يكذبونك، قال: ومعنى التخفيف، والله
أعلم، لا يجعلونك كاذبا، وأن ما جئت به باطلا، لأنهم لم يجربوا عليه كذبا فيكذبوه، إنما
أكذبوه أي قالوا: إن ما جئت به كذب، لا يعرفونه من النبوة.

وقيل: قوله تعالى: فما يكذبك بعد بالدين، أي ما يجعلك مكذبا، وأي شيء يجعلك
مكذبا بالدين أي القيامة.

وروي في التفسير أن أخوة يوسف (عليه السلام) لما طرحوه في الجب (البئر)، أخذوا
قميصه، وذبحوا جديا، فلطخوا القميص بدم الجدي، فلما رأى يعقوب عليه السلام
القميص، قال: كذبتُم، لو أكله الذئب لمزق قميصه، وقال الفراء في قوله تعالى: بدم
كذب، معناه مكذوب. وقال الأخفش: بدم كذب، جعل الدم كذبا؛ لأنه كُذِبَ فيه.

وقد يستعمل الكذب في غير الإنسان، قالوا: كذب البرق، والحُلم، والظن، والرجاء،
والطمع، وكذبت العين: خانها حسها، وكذب الرأي، توهم الأمر بخلاف ما هو به. وكذبت
نفسه: متته بغير الحق، والكذب: النفس لذلك قال:

إِنِّي وَإِنْ مِئَّتَنِي الْكَذُوبُ لَعَالِمٌ أَنْ أَجْلِي قَرِيبٌ

وفي حديث عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «كذب عليكم الحج، كذب عليكم
العمرة. كذب عليكم الجهاد، ثلاثة أسفار كذبت عليكم». قال ابن السكيت: كأن كذبت ههنا
إغراء أي عليكم بهذه الأشياء الثلاثة^(١).

(١) لسان العرب، مادة كذب.

والكذب خصلة ذميمة تؤدي بصاحبها إلى التهلكة، وأن الكذب حباله قصيرة، ومهما اختلق صاحبه المعاذير والحجج لمسلكه هذا؛ فلا بد من يُكشف يوماً ما أمره، فعليه أن يسلك طريق الصدق لأنه منجاة.

فعن عبد الله بن كعب بن مالك (رضي الله عنه) قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله (ﷺ) في غزوة تبوك. قال كعب بن مالك: لم أتخلف عن رسول الله (ﷺ) في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك، غير أنني قد تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحداً تخلف عنه، إنما خرج رسول الله (ﷺ)، والمسلمون يريدون غير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله (ﷺ) ليلة العقبة حين توثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها، وكان من خيري حين تخلفت عن رسول الله (ﷺ) في غزوة تبوك أنني لم أكن قط أقوى، ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله (ﷺ) يريد غزوة إلا ورى بغيرها (ستر وأعرض غيرها) حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله (ﷺ) في حرٍّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز، واستقبل عدواً كثيراً، فجلا للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، وأخبرهم بوجههم الذي يريد والمسلمون مع رسول الله (ﷺ)، وكثير لا يجمعهم كتاب حافظ، يريد بذلك الديوان، قال كعب: فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى ما لم ينزل فيه وهي من الله (عز وجل)، وغزا رسول الله (ﷺ) تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال فأنا إليها أصغر، فتجهز رسول الله (ﷺ) والمسلمون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقف شيئاً، وأقول في نفسي: أنا قادرٌ على ذلك إذا أردت» ولم يزل ذلك يتمادي بي حتى استمر بالناس الجد، فأصبح رسول الله (ﷺ) غادياً والمسلمون معه، ولم أقف من جهازٍ شيئاً، ثم غدوت فرجعت، ولم أقف شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادي بي حتى أسرعوا، وتفارط الغزو، فهت أن أرتحل فأدركهم، فيا ليتني فعلت؛ ثم لم يقدر لي ذلك وطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله (ﷺ) يحزنني أنني لا أرى لي أسوة إلا رجلاً مغموضاً عليه في النفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء ولم يذكرني رسول الله (ﷺ) حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب بن مالك فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه بُرداه^(١) والنظر في عطفه. فقال له معاذ بن جبل: بشما قلت، والله يا رسول الله، ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله (ﷺ)، فبينما هو على ذلك، فرأى رجلاً مبيضاً يزول من السراب، فقال رسول الله (ﷺ):

(١) حب النعيم والترف وعدم مقابلة الشدائد.

«كن أبا خيشمة، فإذا هو أبو خيشمة الأنصاري، وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون (عابوه). قال كعب: فلما بلغني أن رسول الله (ﷺ) قد توجه قافلاً (راجعاً) من تبوك حضرنى بشي (حزني وهمي) فطفقت أتذكر الكذب وأقول بما أخرج من سخطه غداً وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أصلي، فلما قيل إن رسول الله (ﷺ) قد ظل قادماً راح عني الباطل حتى عرفت أنني لن أنجو منه بشيء أبداً فأجمعت صدقه، وصبح رسول الله (ﷺ) قادماً، وكان إذا أقدم من سفر بدأ بالمسجد، فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانية رجلاً، فقبل منهم علانيتهم وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله عز وجل حتى جثت، فلما سلمت تبسم تبسم المغضب، ثم قال: يقال، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك^(١)؟ قلت: يا رسول الله إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيتُ جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكنَّ الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجده عليّ فيه (تعتب) إني لأرجو فيه عقبي الله عز وجل والله ما كان لي من عذر ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. قال: فقال رسول الله (ﷺ): «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يعفي الله عنك، فقمْتُ وثار رجال من بني سلمة، فاتبعوني، فقالوا: والله ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا، لقد عجزت في أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله (ﷺ) بما اعتذر إليه المخلفون، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله (ﷺ) فأكذب نفسي، قال: ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت، وقيل لهما ما قيل لك، قال قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن ربيعة العامري، وهلال بن أمية الواقفي. قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بداراً فيهما. أسوة، قال: فغضبت حتى ذكروهما لي قال: ونهى رسول الله (ﷺ) المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه.

قال: فاجتنبنا الناس، أو قال: تغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي، فاستكانا (خضعنا وذلاً) وقعدا في بيوتهما يكيان، وأما أنا فكنْتُ أشبَّ القوم وأجلدهم، فكنْتُ أخرج فاشهد الصلاة، وأطوف في الأسواق فلا يكلمني أحد، وآتي رسول الله (ﷺ)، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأسلم فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقه

(١) انفتحت معي على الجهاد والتضحية والدفاع في سبيل الدين، ولو فيه إراقة الدم وثقل كاهلك وتعب جسمك واستشهادك.

النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ، فإذا التفّث نحوه أعرض عني، حتى إذا طال عليّ ذلك من جفوة المسلمين مشيت حتى تسوّرت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي، وأحبّ الناس إليّ فسلمت عليه، فوالله ما رد عليّ السلام، فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمن أنني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت، فعدت فناشدته، فسكت، فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عينا، وتوليت حتى تسورت الجدار، فبينما أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ قال: فطفق الناس يشيرون له إليّ حتى جاءني، فدفع إليّ كتاباً من ملك غسان، وكنت كاتباً فقرأته، فإذا فيه: أما بعد: فإنه قد بلغنا أن صاحبنا قد جفاك (هجر)ك، ولم يجعلك الله بدار هوان، ولا مضیعة، فالحق بنا نواسك^(١). قال: فقلت حين قرأتها: وهذه أيضاً من البلاء فتيمّمت بها الثنور فسجرتها (حرقها) حتى إذا مضت أربعون من الخمسين، واستلبت الوحي (أبطاً وتأخر)، وإذا رسول الله (ﷺ) يأتي، فقال: إن رسول الله (ﷺ) يأمرك أن تعتزل امرأتك، قال: فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا. بل اعزلها فلا تقربها، وأرسل إليّ صاحبّي بمثل ذلك، قال: فقلت لا مرأتي: ألحقي بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر. قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله (ﷺ) فقالت: يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدّمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربنك. قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله (ﷺ) فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه. قال: فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله (ﷺ)، وما يدريني ما يقول رسول الله (ﷺ) إذا استأذنته فيها؟ وأنا رجل شاب، قال: فلبثت بذلك عشر ليال، فأكمل لنا خمسون ليلاً من حين نهى عن كلامنا، فبينما أنا جالس إلى الحالة التي ذكر الله عز وجل منا قد ضاقت عليّ نفسي، وضافت عليّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك! أبشر، قال: فخررت ساجداً، وعلمت أنه قد جاء فرج، قال: وأذن رسول الله (ﷺ) الناس بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، فذهب قبل صاحبّي فبشرونه، وركض رجل إليّ فرساً، وسنى ساع من أسلم من قبلي، وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرنني نزعته له ثوبي فسكوتهما إياه ببشارته والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أيمّم رسول الله (ﷺ)، فتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهتفونني بالتوبة، ويقولون: وليهناك توبة الله عليك حتى دخلنا المسجد، فإذا

(١) تقدم لنا نكرمك ونساعدك ونخفف عنك آلامك وتزول هذه الجفوة.

رسول الله (ﷺ) حوله الناس، فقام طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنائي. والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره. قال: فكان كعب لا يسناها لطلحة. قال كعب: فلما سلمت على رسول الله (ﷺ)، قال: وهو يبرق وجهه من السرور، قال: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك. قال فقلت: أمن عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟ قال: بل من عند الله، وكان رسول الله (ﷺ) إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأن وجهه قطعة قمر قال: وكنا نعرف ذلك قال: فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله؛ فقال رسول الله (ﷺ): أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك. قال: فقلت أمسك سهمي الذي بخير. قال: وقلت: يا رسول الله إنما أنتجاني الله بالصدق. وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت، قال: فوالله ما علمت أحداً أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله (ﷺ) إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي. قال: فأنزل الله عز وجل ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمَسْرَةِ﴾ حتى بلغ ﴿إِنَّهُمْ بِهِمْ رَهَوْفٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَوْا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ حتى بلغ ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾. قال كعب: والله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد إذ هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله (ﷺ) أن لا أكون كذبتة، فأهلك كما هلك الذين كذبوا، إن الله عز وجل قال للذين كذبوا حين نزل الوحي شر ما قال لأحد فقال: ﴿سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِيُتْرَضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٥٠) يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِيُتْرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَلَا يَرْضَى عَنْ الْقَوْرِ الْفَاسِقِينَ (٥١)﴾ (١).

فكعب بن مالك قد صدق رسول الله (ﷺ) فنجى، وزاده ذلك نوراً وثباتاً على الحق، ولم يتزعزع إيمانه قيد أنملة حين أتاه رسول ملك غسان حتى يغريه ويكرمه ويؤليه على رسول الله (ﷺ) وصحابته؛ لأن إيمانه عميقاً وحبه لله تعالى ولرسوله مغروساً في قلبه فعز عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) قال: قلنا: يا نبي الله من خير الناس؟ قال: ذو القلب المخموم، واللسان الصادق، قال: يا نبي الله: قد عرفنا اللسان الصادق، فما القلب المخموم؟ قال: التقى النقي الذي لا إثم فيه، ولا بغي، ولا حسد. قال: قلنا يا رسول الله، فمن على أثره، قال: الذي يشأ الدنيا ويحب الآخرة، قلنا ما نعرف هذا فينا إلا رافع مولى رسول الله (ﷺ)، فمن على أثره؟ قال: مؤمن في خلق حسن، قلنا: أما هذه فقينا (٢). فالكاذب يميل إلى الفساد وحب الإجرام والانبعاث في المعاصي، قال الشاعر:

(١) الترغيب والترهيب، ٣/ ٥٨٠ - ٥٨٦.

(٢) م. ن. ٣، ٥٩٠.

إِيَّاكَ مِنْ كَذِبِ الْكَذُوبِ وَإِفْكِهِ فَلَرُبُّمَا مَرْجَ الْيَقِينِ بِشْكِهِ وَلَرُبُّمَا كَذِبَ إِمْرُؤُ بِكَلَامِهِ وَبِصَمْتِهِ وَبِكَائِهِ وَبِضَحْكِهِ وَالكَاذِبُ مَصِيرُهُ النَّارَ، وكلما زاد كذبه ترك نقطاً سوداء على قلبه تضله وتغويه وتنسيه حقوق الله تعالى. وبالإضافة إلى سواد القلب فإنه يسود الوجه أيضاً.

عن أبي بريدة الأسلمي (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «ألا إن الكذب يسود الوجه، والنميمة عذاب القبر»^(١).

وعن مالك أنه بلغه أن ابن مسعود قال: لا يزال العبد يكذب ويتمرى الكذب، فتنتك في قلبه نكتة حتى يسود قلبه، فيكتب عند الله من الكاذبين»^(٢).

والكاذب تظهر علامات النفاق والخداع في وجهه، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر»^(٣).

ورزق الكاذب ضيق، وعيشه نكد، وأهله في فقر دائم، وأولاده في شقاء وهم وغم، روي عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: «برُّ الوالدين يزيد في العمر، والكذب ينقص الرزق، والدعاء يرُدُّ القضاء»^(٤).

ويحيا الكاذب وجسمه جيفة قذرة نتنة، وينشر برائحته الكريهة، عن ابن عمر (رضي الله عنهما) عن النبي (ﷺ) قال: «إذا كذب العبد تباعد الملك عنه ميلاً من تنن ما جاء به».

واستمرار الكاذب على كذبه يؤدي إلى اقترافه الكثير من المعاصي والذنوب ولا يتوب إلى الله إلا إذا صدق. فعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: ما كان من خلق أبغض إلى رسول الله (ﷺ) من الكذب ما أُطلع على أحد من ذاك شيء، فيخرج من قلبه حتى يعلم أنه قد أحدث توبة»^(٥).

وعاقبة الكاذب أنه يُحشَر وجهه مظلم وحالته سيئة، وصورته بشعة قذرة موحشة مقفرة، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تِلْكَ ءَايَتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ [الزمر: ٥٩ - ٦٠].

(٢) م.ن.، ٥٩٢/٣.

(٤) الترغيب والترهيب، ٥٩٦/٣.

(١) م.ن.، ٥٩٦/٣.

(٣) م.ن.، ٥٩٣/٣.

(٥) م.ن.، ٥٩٧/٣.

وانظر أخي المسلم إلى حال الأمم السابقة حين كذبوا بآيات الله، وصدوا عن ذكر الله، ووقفوا في وجه الدعوة إلى التوحيد بعناد وجلافة.

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨] وتخرصون أي تكذبون فيما أدعيتموه.

وقال أيضاً: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُهُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [يونس: ٣٩].

فإن الله عز وجل يخبرنا أنه قد كذب هؤلاء بالقرآن ولم يفهموه ولا عرفوه ولم يحصلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلاً وسفهاً، وكذلك كذب الذين من قبلهم (الأمم السالفة)، فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلماً وعلواً وكفراً وعناداً وجهلاً فاحذروا أيها الكاذبون المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم.

والله تعالى يبعث الآيات ويأتي بها على ما يسأل القوم، وهذا سهل على الله، إلا أنه قد كذب بها الأولون بعدما سألوها، وجرت سنة الله عز وجل فيهم وفي أمثالهم أنهم لا يؤخرون إن كذبوا بها بعد نزولها. فقال الله تعالى في ثمود حين سألوا آية ناقة تخرج من صخرة عينوها فدعا سيدنا صالح (عليه السلام) ربه فأخرج لهم منها ناقة على ما سألوا فلما ظلموا بها، أي كفروا عن خلقها، وكذبوا رسله وعقروا فقال: (تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب).

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآيَاتُنَا نَمُودُ النَّاقَةَ مُبْهَرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقال: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ ﴿٨٥﴾ وَآيَاتُنَا مَا يَلْبِغُ فِكَارًا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨٦﴾ وَكَانُوا يَتَحَوَّنَ مِنَ الْإِنْبَاءِ يَبُوءُوا مَا وَعَدْنَا مُبْدِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ ﴿٨٨﴾ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [الحجر: ٨٥ - ٨٩].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسِلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الشعراء: ١٧٦]. وقال: ﴿وَلَنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الحج: ٤٢]. وقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْبَادِ ﴿١٢﴾﴾ [ص: ١٢]. وقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾ [غافر: ٥]. وقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي هُوَ يُنْذِرُ ﴿٣٣﴾﴾ [القمر: ٣٣]. وقال: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا

كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ ﴿١٤﴾ [ص: ١٤].

وعلى الرغم من كراهية التحلي بهذه الصفة الذميمة إلا أنه مباح في مواضع خاصة وهذه المواطن هي:

- ١ - الخدعة في الحرب والكذب على الأعداء حتى ينال منهم ويسلم المؤمنون.
- ٢ - إصلاح ذات البين للتوفيق بين الناس والسعي فيما بينهم لرأب الصدع وغرس بذور المودة بينهم.
- ٣ - الكذب على الزوجة بحيث يؤدي ذلك إلى فض النزاع وجمع شمل العائلة.
- ٤ - ترويض الفرس. بحيث يستخدم أي طريقة من أكل وشرب وعناية حتى يصل إلى غايته ويقوم بترويض تلك الفرس مثلاً.

عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط (رضي الله عنها) قالت: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً، أو يقول خيراً» وفي رواية مسلم زيادة، قالت: ولم أسمع يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث، تعني: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها^(١).

(١) رياض الصالحين، ١١٦.

الباب الرابع

الفصل الأول: كراهية الظلم

الفصل الثاني: كراهية الفساد

الفصل الثالث: كراهية العدوان

الفصل الرابع: كراهية الكفر

الفصل الخامس: كراهية الإساءة للجار

الفصل السادس: كراهية الرياء (الشرك الأصغر)

الفصل السابع: كراهية الرشوة

الفصل الثامن: كراهية النوح والمناحة

الفصل التاسع: كراهية الطيرة

الباب الرابع

الفصل الأول

كراهية الظلم

يقول ابن فارس في مقاييسه: «ظَلَمَهُ يَظْلِمُهُ ظُلْمًا. والأصل وضع الشيء في غير موضعه، ألا تراهم يقولون: «من أشبه أباه فما ظلم» أي ما وضع الشبه غير موضعه.

قال كعب:

أنا ابنُ الذي لم يُخزني في حياتِهِ قَدِيمًا وَمَنْ يُشَبِّهُ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ
ويقال: ظلمتُ فلانًا: نسبته إلى الظلم. وظلمت فلانًا فاطلم والظلم: إذا احتمل
الظلم. وأنشد بيت زهير:

هُوَ الْجَوَادُ الَّذِي يُعْطِيكَ نَائِلَهُ عَفْوًا وَيُظْلِمُ أَحْيَانًا فَيُظْلِمُ
والأرض المظلومة: التي لم تحفر قط ثم حفرت؛ وذلك التراب ظليم. قال:
فَأَصْبَحَ فِي غِبْرَاءَ بَعْدَ إِشَاحَةٍ عَلَى الْعَيْشِ مَرْدُودٍ عَلَيْهَا ظَلِيمُهَا
وإذا نُحِرَ البعير من غير علة فقط ظلم. ومنه قوله:

عَادَ الْأَذْلَةُ فِي دَارٍ وَكَانَ بِهَا هُزْتُ الشَّقَاشِقِ ظَلَامُونَ لِلْجُزْرِ
والظلامه: ما تطلبه من مظلمتك عند الظالم. ويقال: سقانا ظليمة طيبة. وقد ظلم
وطبّه، إذا سقى منه قبل أن يروب ويُخْرِجَ زُبْدَهُ، ويقال لذلك اللبن ظليمٌ أيضًا. قال:

وَقَائِلَةٌ ظَلَمْتُ لَكُمْ سَقَائِي وَهَلْ يَخْفَى عَلَى الْعَكِدِ الظَّلِيمِ^(١)
على كل غافل أن يكفّ يده عن الظلم، ويسلك سنن العدل، ويعامل بالصفة،
ويراقب الله في السر والعلانية، ويعلم أن الله عز وجل يجازي على الخير والشر، ويعاقب

(١) مقاييس اللغة، ٤٦٨/٣ - ٤٦٩.

الظالم على ظلمه، ويتنصر للمظلوم ويأخذ له حقه ممن ظلمه، وإذا أخذ الظالم لم يفلته. والله عز وجل قد حرّم الظلم على نفسه، وأنه لا يظلم مثقال ذرة. قال عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَصْنَعُهَا يُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].
وقال: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تَظْلِمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤].

وقد أمرنا أن نتقي الظلم فإنه ظلمات يوم القيامة. فعن جابر (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: «اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»^(١).

ولا تحسب أخي المسلم أن الله غافل عما يقوم به الظالم من أحوال تلحق الأذى أولاً بنفسه ثم بالآخرين. قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبِ أَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [مُطَفِّعَاتٍ مَقْنِي رُؤُسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنَدْتُمْ هَوَاءً] [١٣] وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ يَقُولُ الَّذِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنا إِلَهُ أَجَلٍ قَرِيبٍ تُحِبُّ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ [١٤] وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْجِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ [١٥] وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لَازِلًا مِنْهُ الْجِبَالُ [١٦] فَلَا تَحْصِيَنَّ اللَّهُ تَخْلُفَ وَعَدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ [١٧] [إبراهيم: ٤١ - ٤٧].

يقول تعالى ولا تحسبن يا محمد أن الله غافل عما يفعل الظالمون أي لا تحسبنه إذا أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم مهمل لهم لا يعاقبهم على صنعهم بل هو يحصى ذلك عليهم ويعده عليهم عداً، فيؤخرهم ليوم القيامة شديد الأحوال، أبصارهم شاخصة مديمو النظر لا يطفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكر والمخافة لما يحل بهم عياداً بالله العظيم من ذلك، أما قلوبهم فخاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الخوف والوجل، فإن أمكنة أفئدتهم خالية، لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف، وقيل: هي خراب لا تعي شيئاً لشدة ما أخبر مع الله تعالى عنهم، وحين يروا العذاب يقولون لولا آخرتنا، وكنتم قد أقسمتم من قبل هذه الحالة أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه وأنه لا معاد ولا جزاء فذوقوا هذا بذلك. وقد رأيتم وبلغكم ما أحللتنا بالأثم المكذبة قبلكم ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر^(٢).

(١) رياض الصالحين، ١٠٢.

(٢) تفسير ابن كثير، ٢/ ٥٢٣ - ٥٢٢.

وقد أعد الله عز وجل للظالمين ناراً أحاط بهم سورها، حتى أنهم إذا جاعوا استغاثوا، ثم يُصب عليهم العطش فيستغيثون فيُغاثون بماء كالمهل وهو الذي قد انتهى حره فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي سقطت منها الجلود.

قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال أيضاً: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا﴾ [الكهف: ٨٧] (١).

ونكرأ: أليماً وجيعاً شديداً بليغاً.

وينزل الله تعالى الرجز على الذين ظلموا. وقيل إن الرجز هو البرد أو الطاعون أو العذاب، قال (عليه السلام): «الطاعون رجز عذاب عذب به من كان قبلكم». وقال: «إن هذا الوجد والسقم رجز عذب به بعض الأمم قبلكم».

قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ يَمَا كَانُوا يُفْسِقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩].

وقال: ﴿فَلَمَّا شَاؤَا مَا دُكِّرُوا بِهِ أَنحَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ يَمَا كَانُوا يُفْسِقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

وقال: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِن عَذَابٍ يَوْمَ إِلِيمٍ﴾ [٦٥] هل يُنظَرُونَ إِلَّا إِلَى السَّاعَةِ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ [الزخرف: ٦٥ - ٦٦].

وقال: ﴿وَنَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الَّذِينَ يُنظَرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيِّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ [الشورى: ٤٥].

وأخبرنا الله تعالى عن ظلم الأمم الغابرة وما لحقها من عذاب أليم، حتى أنهم إذا رؤوا العذاب فلا تخفيف عنهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَمَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [النحل: ٨٥].

وانظر أخي المسلم إلى العذاب الذي حل بالأمم الغابرة، فهذه ثمود التي أتاه الله عز

(١) م. ن. ، الآية ٨٧.

وجل الناقة لتدلّ على وحدانيته من خلقها، وصدق الرسول الذي أجيب دعاؤه فيها (فظلموا بها) أي كفروا بها ومنعوها شربها وقتلوها، فأبادهم الله عن آخرهم وانتقم منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر. وأن الله عز وجل يخوف عباده بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون وينكرون ويرجعون. فقد ذكر أن الكوفة وجفت على عهد ابن مسعود (رضي الله عنه) فقال: يا أيها الناس إن ربكم يستعيبكم فاعتبه». قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَآيَاتُنَا نُمُودَ النَّاقَةِ مُبِيرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

والله عز وجل يذكرنا دائماً بعذاب الأمم السالفة والقرون الخالية التي أهلكها بسبب عنادها وكفرها حتى تعتبر، وجعل لهلاكها وعذابها عدة معلومة، ووقت معين لا يزيد ولا ينقص.

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلَّذِينَ الْفُرُوعَ أَهْلَكْتُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

يخبرنا عز وجل عن سيدنا نوح (عليه السلام) أنه دعا ربه ليستغفره على قومه كما قال تعالى مخبراً عنه (فدعا ربه أني مغلوب فانتصر) وقال (رب انصرنى بما يكذبون) فأمره الله عز وجل بصنع السفينة وإحكامها واتقانها، وأن يحل فيها من كل زوجين اثنين (ذكر وأنثى) من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار، وغير ذلك وأن يحمل فيها أهله (إلا من سبق عليه القول منهم) بالهلاك وهم الذين لم يؤمنوا به، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنِّي مُفْرَقُونَ﴾ فعند معاينة المطر العظيم لا تأخذك رافة بقومك وشفقة عليهم وطمع في تأخيرهم لعلهم يؤمنون فإني قد قضيت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ﴾ [١٦] فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنِّي مُفْرَقُونَ [١٧] فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِ فَقُلِ تَعَالَى لِلَّهِ الَّذِي يَجْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [١٨] [المؤمنون: ٢٦ - ٢٨].

ويخبرنا الله عز وجل عن طغاة ثمود وإفسادهم في الأرض والتأمر على قتل نبي الله صالح (عليه السلام)، وعقر الناقة. فكان عقابهم أن دمر الله عز وجل بيوتهم وجعلها خاوية ليس فيها أحد بما ظلموا.

قال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٥١] فَبَلَكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [٥٢] وَأَفِينَا الذِّبَّ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ [٥٣] [النمل: ٥١ - ٥٣].

وانظر أخي المسلم إلى من ظلم نفسه في الدنيا بتكذيبه آيات الله عز وجل ورسله «فالله تعالى يحشرهم يوم القيامة ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون» فبهتوا فلم يكن لديهم جواب، لأنهم كانوا في الدنيا ظالمين لأنفسهم.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَخَشُّهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ قَوْماً مِمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّى إِذَا جَاءُو قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَآذًا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [النمل: ٨٣ - ٨٥].

وقد جاء في القرآن الكريم حين أخبرنا الله تعالى عن الظلم والظالمين بصيغة (أظلم) وجاء قبلها باسم الاستهام (مَنْ)، فقال: فمن أظلم أي من أشد ظلماً، أو أعظم ظلماً، أو أكبر ظلماً مِمَّنْ كذب بآيات الله عز وجل وصرف عنها أو مِمَّنْ أفتري على الله كذباً، أو ممن منع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه» أو ممن كتم شهادة عنده من الله، أو ممن افتري على الله كذباً وهو يدعى إلى الإسلام.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَلِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف: ٥٧].

يقول تعالى وأي عباد الله أظلم ممن ذكر بآيات الله فأعرض عنها أي تناساها وأعرض عنها ولم يصنع لها ولا ألقى إليها بالاً.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: ٢١].

أي لا أظلم ممن تقول على الله فادعى أن الله أرسله ولم يكن أرسله ثم لا أظلم ممن كذب بآيات الله وحججه وبراهينه ودلالاته، وإنه لا يفلح الظالمون.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْكِبُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام: ٩٣].

لا أظلم ممن كذب على الله فجعل له شركاء أو ولدأ أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يرسله، ومن ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحي مما يفتريه من القول. ولو ترى أن الظالمين وهم في غمرات الموت أي سكراته وكرباته والملائكة باسطو أيديهم بالضرب لهم حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم، فاليوم تهانون غاية الإهانة كما كنتم تكذبون

على الله وتستكبرون على اتباع آياته والانقياد لرسله .

قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

لا أظلم ممن كذب بآيات الله عز وجل وابتدع وافتري على الله ليجعل الناس يسيرون في طريق الغي والشر، والله عز وجل لا يهدي القوم الظالمين، لأنهم حرموا ما أحل الله، وأحلوا ما حرم.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤].

اختلف المفسرون في المراد من الذين منعوا مساجد الله وسعوا في خرابها على قولين: أحدهما قال: هم النصارى، كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى ويمنعون الناس أن يصلوا فيه، وقيل: هو بختنصر وأصحابه خرب بيت المقدس وأعانه في ذلك النصارى. وقيل: أعداء الله النصارى حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بختنصر البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس. وقيل: كانوا ظاهروا بختنصر على خراب بيت المقدس حتى خربه وأمر أن تطرح فيه الجيف وإنما أعانه الروم على خرابه من أجل أن بني إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا.

والثاني: هؤلاء المشركون الذين حالوا بين رسول الله (ﷺ) يوم الحديبية وبين أن يدخلوا مكة حتى نحر هديه بذى طوى وهادنهم وقال لهم: «ما كان أحد يصدّ عن هذا البيت، وقد كان الرجل يلقي قاتل أبيه وأخيه فلا يصدّه» فقالوا: لا يدخل علينا من قتل آبائنا يوم بدر وفينا باق. وقالوا: إذا قطعوا من يعمرها بذكره ويأتيها في الحج والعمرة. وقيل: أن قريشاً منعوا النبي (ﷺ) الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام^(١).

قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ إِنَّ إِيزَهَرَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَنتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠].

ينكر الله تعالى على من كفر دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء والأسباط كانوا على ملة اليهود أو النصرانية، قال الحسن البصري: كانوا يقرأون في كتاب الله الذي

(١) تفسير ابن كثير، ١/١٤٨ - ١٤٩.

آتاهم إن الدين الإسلام وأن محمداً رسول الله وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا براءً من اليهودية والنصرانية فشهدوا الله بذلك وأقروا على أنفسهم لله فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك^(١).

قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٣٢].

يقول الله عز وجل مخاطباً المشركين الذين افتروا على الله وجعلوا معه آلهة أخرى وادعوا أن الملائكة بنات الله، وجعلوا لله ولداً، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على السنة رسل الله (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين). فلا أحداً ظلم من هذا لأنه جمع بين طرفي الباطل كذب بالله تعالى وكذب على رسوله (ﷺ)، قالوا الباطل وردوا الحق قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٧].

لا أحد أظلم ممن يفترى الكذب على الله ويجعل له أنداداً وشركاء، وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص، والله لا يهدي القوم الظالمين، لأنهم يريدون أن يطفئوا نور الله نور الحق، ويحاولون أن يردوا الحق بالباطل. ومثلهم كمثل الذي يريد أن يطفئ نور الشمس بفيه، وهذا بالطبع من المستحيل.

يأمر الله عز وجل نبيه محمداً (ﷺ) أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النعم ﴿قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تُرَبِّيتِي مَا يُوعَدُونَ﴾ [٩٣] رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ [المؤمنون: ٩٣ - ٩٤].

أي إن عاقبتهم وأنا أشاهد ذلك فلا تجعلني فيهم.

والظلم أخي المسلم ثلاثة: فظلم لا يغفر، وظلم لا يترك، وظلم مغفور لا يطلب. فأما الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله والعباد بالله تعالى. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضاً. وأما الظلم المغفور الذي لا يطلب فظلم العبد لنفسه.

قيل: نادى رجل سليمان بن عبد الملك وهو على المنبر: يا سليمان: اذكر يوم الأذان. فنزل سليمان من على المنبر، ودعا بالرجل فقال له: ما يوم الأذان؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿فَإِذْهُنَّ مُؤَدَّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤]. قال: فما ظلامتك؟ قال: أرض لي مكان كذا وكذا أخذها وكيلك، فكتب إلى وكيله ادفع إليه أرضه وأرضنا مع

(١) تفسير ابن كثير، ١/١٧٩.

وقيل: بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قاعد إذ جاءه رجل من أهل مصر فقال: يا أمير المؤمنين، هذا مقام العائذ بك. فقال عمر (رضي الله عنه): لقد عدت بمجير فما شأنك؟ فقال: سابقت بفرسي ابناً لعمر بن العاص وهو يومئذ أمير على مصر فجعل يقنعني بسوطه، ويقول: أنا ابن الأكرمين، فبلغ ذلك عمرأ أباه فخشى أن آتيك فحبسني في السجن فانفلت منه فهذا الحين التقيتك، فكتب: عمرو بن العاص إذا أتاك كتابي هذا فاشهد أنت وولدك فلان الموسم. وقال للمصري: أقم حتى يأتيتك. فأقام حتى قدم عمرو وشهد موسم الحج، فلما قضى مر الحج وهو قاعد مع الناس، وعمرو بن العاص وابنه إلى جانبه، قام المصري فرمى إليه عمر (رضي الله عنه) بالدرة، قال: أنس (رضي الله عنه) فلقد ضربه ونحن نشتهي أن يضربه، فلم ينزع حتى أجبنا أن ينزع من كثرة ما ضربه، وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين. قال: يا أمير المؤمنين: لقد ضربت الذي ضربني، قال: أما والله لو فعلت ما منعك أحد حتى تكون أنت الذي تنزع، ثم أقبل على عمرو بن العاص وقال: يا عمرو، متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ فجعل عمرو يعتذر إليه ويقول: إني لم أشعر بهذا.

وقيل: لما ظلم أحمد بن طولون قبل أن يعدل. استغاث الناس من ظلمه. وتوجهوا إلى السيدة نفيسة يشكونه إليها، فقالت لهم: متى تركب، قالوا في غد، فكتبت رقعة ووقفت بها في طريقه، وقالت: يا أحمد يا ابن طولون! فلما رآها عرفها فترجل عن فرسه، وأخذ منها الرقعة فقرأها، فإذا فيها، ملكتم فأسرتم، وقدرتم فقهرتم، وخولتم فعسفتم، وردت إليك الأرزاق، فقطعتهم هذا، وقد علمتم أن سهام الأسحار نافذة غير مخطئة لا سيما من قلوب أوجعتموها، وأكباد جوعتموها، وأجساد عريتموها، فمحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم، اعملوا ما شئتم فإننا صابرون، وجوروا فإننا بالله مستجيرون، واطلموا فإننا إلى الله متظلمون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، قال: فعدل لوقته^(٢).

وروي أن بعض الملوك رقم على بساطه:

لَا تُظْلِمَنَّ إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِرًا فَالظُّلْمُ مَضْرُوهٌ يَفْضِي إِلَى النَّدَمِ
تَنَامُ عَيْنَاكَ وَالْمَظْلُومُ مُنْتَبِهٌ يَدْعُو عَلَيْكَ وَعَيْنُ اللَّهِ لَمْ تَنَمْ^(٣)

(٢) المستطرف، ١/ ٢٣٨ - ٢٣٩.

(١) المستطرف، ١/ ٢٣٥.

(٣) م. ن. ١/ ٢٣٦.

كراهية الفساد

جاء في معجم ابن فارس (مقاييس اللغة) أن لفظة فسد كلمة واحدة إذ نقول فسد الشيء يفسد فساداً وفسوداً، وهو فاسِدٌ وفسيدٌ^(١).

ويقال: فسد اللحم أو اللبن أو نحوهما، إذا أنتن وعطب. وفسدت الأمور: اضطربت، وأدركها الخلل. قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةُ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَخَّنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. ويقال: تفسد القوم، أي تدابروا وقطعوا الأرحام.

والفساد: التلف والعطب والاضطراب، والخلل، والجذب والقحط. قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

والفساد: إلحاق الضرر. قال تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿فَسَاداً﴾ بالنصب، لأنه مفعول له، أراد يسعون في الأرض للفساد.

من أهم أهداف الإسلام إقامة المجتمع الصالح السوي والقضاء على الفساد في الأرض، ولهذا عدَّ الفساد من كبائر الإثم، وحذرنا الإسلام من مغبته، فهو يُقضي إلى عذاب الله في الحياة الدنيا والآخرة، والطرده من رحمته تعالى.

ويقال أن الفساد يعني نقض في الزروع والثمار بسبب ما اكتسبه الناس من المعاصي. قيل: من عصى الله في الأرض فقد أفسد فيها، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة، وفي حديث رسول الله (ﷺ)، «لحدُّ يُقام في الأرض أحب إلى أهلها من أن يمطروا أربعين صباحاً». والسبب في هذا أن الحدود إذا أقيمت ارتدع الناس أو أكثرهم عن تعاطي المحرمات، وإذا تركت المعاصي كان سبباً في حصول البركات من السماء والأرض.

ينهى الله تعالى عن الإفساد في الأرض وما أضره بعد الإصلاح فإنه إذا كانت الأمور

(١) مقاييس اللغة، ٥٠٣/٤.

تسير على السداد والصواب ثم وقع الإفساد بعد ذلك كان أضر ما يكون على العباد فنهى تعالى عن ذلك وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه، خوفاً مما عنده من عقاب شديد، وطعماً فيما عنده من ثواب جزيل. قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وانظر أخي المسلم إلى القرآن العظيم إذ ذكر أقواماً استحقوا العذاب الشديد بسبب فسادهم في الأرض. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿١﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٢﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٣﴾ وَتَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ ﴿٤﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْدَادِ ﴿٥﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿٦﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿٧﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿٨﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَإِلْمِصَادٍ ﴿٩﴾﴾ [الفجر: ٦ - ١٤].

إن قول الله عز وجل ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ أن هؤلاء كانوا متمردين عتاة جبارين خارجين عن طاعته مكذبين، لرسله جاحدين لكتبه فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم وجعلهم أحاديث وعبراً. وكانوا أهل عمد لا يقيمون، فكانت بيوتهم من الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد، وكانوا أشد الناس في زمانهم خلقة وأقراهم بطشاً. وكذلك فرعون الذي كان يوتد أيدي جنوده وأرجلهم في أوتاد من حديد يعلّقهم بها، فقد عثوا وتمردوا وعاثوا في الأرض بالإفساد والأذية للناس، فكان نصيبهم أن أنزل الله عليهم رجزاً من السماء وأحل بهم عقوبة لا يردّها من القوم المجرمين. وقوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَإِلْمِصَادٍ﴾، قال معاذ بن جبل قال رسول الله (ﷺ): «يا معاذ إن المؤمن لدى الحق أسير، يا معاذ إن المؤمن لا يسكن روعه، ولا يأمن اضطرابه حتى يخلف جسر جهنم خلفاً ظهره، يا معاذ إن المؤمن قيده القرآن عن كثير من شهواته، وعن أن يسلك فيها هو بإذن الله عز وجل فالقرآن دليله، والخوف محبته، والشوق مطيته؛ والصلاة كهفه، والصوم جنته، والصدقة فكاكه، والصدق أميره، والجيء وزيره، وربّه عز وجل من وراء ذلك كله بالمرصاد»^(١).

وانظر إلى دعوة سيدنا شعيب (عليه السلام) إلى أهل مدين؛ إذ طلب إليهم أن يصدقوا ما جاء به من الحق من ربه، ووعظهم في معاملتهم الناس أن يوفوا الميزان والكيل ولا يبخسوا الناس أشياءهم خفية وتدليساً، واذكروا نعمة الله عز وجل إذ كنتم مستضعفين لقتلكم فصرتم أعزة لكثرة عددكم، «وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين» من الأمم الخالية والقرون الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصي الله وتكذيب رسله. قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا

(١) تفسير ابن كثير، ٥١٠/٤.

تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ [الأعراف: ٨٥ - ٨٦].

وانظر أخي المسلم إلى حال كل من المؤمن والمنافق الفاسد المفسد الذي إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا أوتمن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر. فالمؤمنون يتصفون بصفات حميدة ولهم عقبى الدار وهي العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة، أما الأشقياء الذين لا يوفون بعهد الله ولا يصلون ما أمر الله به أن يوصل، ويفسدون في الأرض، فهم مبعدون من رحمة الله تعالى، ولهم سوء العاقبة.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا فَيُغَنِّمُ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ الْعُقْبَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ [الرعد: ٢٠ - ٢٥].

وانظر إلى من كفر وصد عن سبيل الله تعالى فإن له عذاباً على كفره، وعذاباً على صده الناس من اتباع الحق، فكان فاسداً مفسداً، وأن قول الله تعالى: ﴿رَزَقْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ جاء في التفسير أنها أنهار خمسة تحت العرش يعذبون بعضها في الليل، وبعضها في النهار.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ [النحل: ٨٨].

وانظر أخي المسلم إلى طغاة ثمود ورؤوسهم الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلال والكفر وتكذيب نبي الله صالح (عليه السلام) وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة وهموا بقتل صالح (عليه السلام) أيضاً. بأن يبيتوه في أهله ليلاً فيقتلوه غيلة. وهؤلاء الطغاة تسعة نفر وهم (رعمى ورعيم وهرم وهريم وداب وصواب ورياب ومسطح وقذار بن سالف عاقر الناقة)^(١). وكان من صفاتهم الإفساد في الأرض بكل طريق يقدرعون عليها. فبعد أن عقروا الناقة اتفقوا على قتل سيدنا صالح (عليه السلام) فلما هموا بقتله دفعتهم الملائكة بالحجارة، فعذب الله القوم الفاسدين وأنجى سيدنا صالح.

(١) تفسير ابن كثير، ٣/٣٥٥.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ شَعَةٌ رَّهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (٤٨) قَالُوا نَقَاسُمُ بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (٤٩) وَمَكْرُؤًا مَكَرًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْرِهِمْ إِنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٥١) [النمل: ٤٨ - ٥١].

ومن الناس من تكون ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمرُّ من الصبر، يلبسون للناس مسوك الضآن من اللبن، يجترثون الدنيا بالدين، وأن من الناس من هو ألد الخصام، والألد في اللغة هو الأعوج، فالمنافق كاذب أعوج في خصومته، ويزور عن الحق ولا يستقيم معه بل يفترى ويفجر، قال (عليه السلام): «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم». فهو أعوج المقال، سيء الفعال، فذلك قوله وهذا فعله، كلامه كذب، واعتقاده فاسد، وأفعاله قبيحة، والفاقد ليس له همة إلا الفساد في الأرض، وإهلاك الحرث وهو محل نماء الزروع والثمار والنسل وهو نتاج الحيوان.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (٦٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ (٦٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمُهَادِّ﴾ (٦٦) [البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٦].

وانظر أخير المسلم إلى من قتل نفساً أو سعى فساداً في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً، فمن أجل قتل ابن آدم أخاه ظلماً وعدواناً شرع الله تعالى لبني إسرائيل وأعلمهم أنه من قتل نفساً بغير سبب من قصاص أو فساد في الأرض واستحل قتلها بلا سبب أو جناية فكأنما قتل الناس جميعاً؛ لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس، وانظر جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً. قيل كان قوم من أهل الكتاب بينهم وبين النبي (ﷺ) عهد وميثاق فنقضوا العهد وأفسدوا في الأرض فخير الله لرسوله إن شاء أن يقتل وإن شاء أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي إن قتلهم أو صلبهم أو قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو نفيهم خزي لهم في الدنيا بين الناس مع ما أذخر الله لهم العذاب الشديد يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ (٣١) إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٣٢) [المائدة: ٣٢ - ٣].

وعليك أيها المسلم أن تحسن إلى خلق الله عز وجل كما أحسن الله إليك. ولا تكن همتك في السعي للفساد في الأرض والإساءة إلى خلق الله عز وجل قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

«والله يعلم المفسد من المصلح»، أي أنه يعلم من قصده ونيته الإفساد أو الإصلاح، وهذه الآية قيلت في خلط مال اليتيم، أي خلطه بطعامنا، شرابه بشرابنا.

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَاطَبُوا عَنْهُ فَأَخَذُواكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْنَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ غَوِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

والمفسد في الأرض من جهله لا يشعر بكون عمله الذي يقوم به فساداً، فهو يزعم أن ما يقوم به إنما هو إصلاح وخير، بل لا يعلم أنه عين الفساد. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ١١ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ١٢ [البقرة: ١١ - ١٢].

والفساد مرض ينخر عظم المجتمع، ويتفشى فيه مسبباً له الأمراض المستعصية، والخراب والدمار. ومنه فساد العقيدة بأن تتبع ملة الكفر وتبتعد عن الدين الحنيف، وتسعى لإلحاق الضرر بنفسك وبغيرك ممن هم حولك. فقولك وعملك لا بد أن يتلازما معاً نحو الإصلاح وغرس بذور المنفعة حتى تشمل كل فرد من أفراد المجتمع إن أمكن. وإذا قصدت الفساد فأذن بعذاب من الله عز وجل في الدنيا والآخرة فإن الله عز وجل لا يحب من كان الفساد صفته وشيمته.

كراهية العدوان

قال ابن فارس: (عدو العين والذال والحرف المعتل أصل واحد، وهو يدل على تجاوز في الشيء وتقدم لما ينبغي أن يقتصر عليه). قال الخليل: التعدي: تجاوز ما ينبغي أن يقتصر عليه والعادي: الذي يعدو على الناس ظلماً وعدواناً. وذئب عدوان: يعدون على الناس.

قال:

تَذَكَّرْ إِذْ أَنتَ شَدِيدُ الْقَفْزِ نَهْدُ الْقُضِيرِ عَدَوَانَ الْجَمْرِ
ويقال: عدا فلان طوره، ومنه العدوان. قال: وكذلك العداء والاعتداء والتعدي قال أبو نخيلة:

مَا زَالَ يَعْدُو طَوْرُهُ الْعَبْدُ الرَّدِي وَيَعْتَدِي وَيَعْتَدِي
قال: والعدوان: الظلم الصُّراح. والاعتداء مشتق من العدوان. وأما العدوى فقال الخليل: هو طلبك إلى وإل أو قاضٍ أن يعديك على من ظلمك أي ينتقم منه باعتدائك عليه^(١).

قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِلَيْكُمْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعَذِّبِينَ﴾ (١٦٥) وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبَلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجَكُمْ وَالَّذِينَ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٦٦﴾ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٦٨﴾ [البقرة: ١٩٠ - ١٩٣].

كان رسول الله (ﷺ) يقاتل من قاتله ويكف عمن كف عنه، وطلب الله تعالى إلينا أن نقاتل في سبيله وألا نعتدي. قال (ﷺ): «اغزوا في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا

(١) مقاييس اللغة، ٤/ ٢٤٩ - ٢٥٠.

تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع».

وإذا انتهوا مما هم فيه من الشرك وقتال المؤمنين فكفوا عنهم فإن من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم ولا عدوان إلا على الظالمين، فإن انتهوا فقد تخلصوا من الظلم وهو الشرك فلا عدوان عليهم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا سَعْيَكُمْ إِلَىٰ الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا أُمِينَ الْحَرَامِ يَتَتَفَعُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْرِ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدُوِّ وَأَقْبُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَدِيدُ الْعِقَابِ ٢٢﴾ [المائدة: ٢٢].

فلا يحملنكم بغض من قد كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام وذلك عام الحديبية على أن تعتدوا حكم الله فيهم فتقتصوا منهم ظلماً وعدواناً بل احكموا بما أمركم الله به من العدل في حق كل أحد.

وأمرنا الله تعالى بالمعونة على فعل الخيرات وهو البر، وترك المنكرات وهو التقوى، ونهانا عن التناحر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم. قال ابن جرير: الإثم ترك ما أمر الله بفعله والعدوان مجاوزة ما فرض الله عليكم في أنفسكم وفي غيركم. قال رسول الله (ﷺ): «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قيل: يا رسول الله هذا نصرته مظلوماً فكيف أنصره إذا كان ظالماً؟ قال: تحجزه وتمنعه من الظلم فذاك نصره».

وانظر أخي المسلم إلى الذين يسارعون في إرتكاب المآثم والمحارم والاعتداء على الناس وأكلهم أموالهم بالباطل، فبئس عملهم وبئس اعتداؤهم.

قال تعالى: ﴿وَرَأَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السَّخِطَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٦٢﴾ [المائدة: ٦٢].

وانظر أخي المسلم إلى الذين يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول (ﷺ) قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ التَّجَوُّيِ ثُمَّ يُعَادُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءَكَ حَيْوَتُكَ يَمَا لَكَ يُخِيكَ بِهِ اللَّهُ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلَوْنَهَا فَيَلْسَنُ الْمَصِيرُ ٨﴾ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَجُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْإِثْرِ وَالتَّقْوَىٰ وَأَقْبُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ ٩﴾ إِنَّمَا التَّجَوُّي لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ١٠﴾ [المجادلة: ٨ - ١٠].

ورد في السنة بالنهي عن التناجي حيث يكون في ذلك تأذ على مؤمن قال (ﷺ): «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه». كانت اليهود لعنهم الله - إذا مر

رجل من أصحاب النبي (ﷺ) جلسوا يتناجون بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره المؤمن فإذا رأى المؤمن ذلك خشيه فترك طريقه عليهم فنهاهم النبي (ﷺ) عن النجوى فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى. وكانوا يتناجون بالإثم والعدوان، الإثم وهو ما يختص بهم، والعدوان وهو ما يتعلق بغيرهم ومن معصية الرسول ومخالفة يصرون عليها ويتواصون بها. فهؤلاء جهنم كفايتهم في الدار الآخرة وبئس المصير^(١).

وانظر أخي المسلم إلى الذين يأكلون أموالهم بينهم بالباطل عدواناً وظلماً، وإلى الذين يقتلون النفس التي حرم الله. قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٢٩ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝٣٠﴾ [النساء: ٢٩ - ٣٠].

فالله عز وجل قد نهانا عن أكل أموال بعضنا البعض بالباطل أي بأنواع المكاسب التي هي غير شرعية كأنواع الربا والقمار، وألا نرتكب محارم الله وتعاطي معاصيه وأكل أموالنا بيننا بالباطل. قال (ﷺ): «من قتل نفسه بشيء عذب به يوم القيامة». ومن يفعل أي يتعاطى ما نهاه الله عنه متعدياً فيه ظالماً في تعاطيه، أي عالماً بتحريمه متجاسراً على انتهاكه، فسوف يصلية الله (عز وجل) ناراً.

وإن أشد الناس عداوة للمؤمنين اليهود - لعنهم الله - وذلك لأن كفرهم كفر عناد وجحود ومباهته - للحق وغمط للناس وتنقص بجهلة العلم ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى هموا بقتل رسول الله (ﷺ) غير مرة وسمّوه وسحروا وألقوا عليه أشباههم من المشركين عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة. قال (ﷺ): «ما خلا يهودي بمسلم قط إلا هم بقتله»^(٢).

قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ فَيَقْسِيصُونَ وَيُهْبِكُونَ ۝٨٢﴾ [المائدة: ٨٢].

وأمرنا الله عز وجل ألا نحرم طيبات ما أحل لنا وألا نعتدي بأن نبالغ في التضيق على أنفسنا بتحريم المباح علينا، أو أن نعتدي في تناول الحلال بل نأخذ منه بقدر كفايتنا وحاجتنا ولا نتجاوز الحد فيه. قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِئَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا

(١) تفسير ابن كثير، ٣٢٤/٤.

(٢) تفسير ابن كثير، ٨١/٢.

تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ [المائدة: ٨٧].

والله تعالى يحرض المؤمنين على معاداة المشركين والتبرؤ منهم مبيناً أنهم لا يستحقوه أن يكون لهم عهد لشركهم بالله تعالى وكفرهم برسوله (ﷺ) ولأنهم لو ظهروا على المسلمين وأزيلوا عليهم لم يبقوا ولم يذروا ولا راقبوا فيهم قرابة أو عهد أو حلف.

قال تعالى: ﴿لَا يَرْفَعُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة:

. [١٠].

كراهية الكفر

معنى الكفر لغوياً: الكُفر: نقيض الإيمان، آمنا بالله وكفرنا بالطاغوت، كفر بالله يكفرُ كُفراً وكفوراً وكفراناً، ويقال لأهل دار الحرب، قد كفروا أي عصوا وامتنعوا.

والكفر: كفرُ النعمة، وهو نقيض الشكر. والكفر، جحود النعمة، وهو ضد الشكر. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا يَكْفِرُونَ﴾؛ أي جاحدون. وكفر نعمة الله يكفرها كفوراً وكفراناً وكفر بها، جحدها وسترها. وكافره حقه، جحده. ورجل مكفر، مجحود النعمة مع إحسانه. ورجل كافر، جاحد لأنعم الله، مشتق من الستر، وقيل: لأنه مغطى على قلبه.

قال ابن دريد: كأنه فاعل في معنى مفعول، والجمع كفار وكفرة وكفار مثل جائع وجياع ونائم ونيام، قال القطامي:

وَشُقُّ الْبَحْرِ عَنْ أَصْحَابِ مُوسَى وَغُرَّتِ الْفَرَاغَةُ الْكِفَارُ
وروى عن النبي (ﷺ) أنه قال: «قتال المسلم كفرٌ وسبابه فسقٌ ومن رغب من أبيه فقد كفر». وقال بعض أهل العلم: الكفر على أربعة أنحاء: كفر إنكار بأن لا يعرف الله أصلاً ولا يعترف به، وكفر جحود، وكفر معاندة، وكفر نفاق، من لقي ربه بشيء من ذلك لم يغفر له ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. فأما كفر الإنكار فهو أن يكفر بقلبه ولسانه ولا يعرف ما يذكر له من التوحيد، وكذلك روي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي الذين كفروا بتوحيد الله، وأما كفر الجحود فإن يعترف بقلبه ولا يقر بلسانه فهو كافر جاحد ككفر إبليس وكفر أمية بن أبي الصلت. ومن قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ يعني كفر الجحود، وأما كفر المعاندة فهو أن يعرف الله بقلبه ويقر بلسانه ولا يدين به حسداً وبغياً ككفر أبي جهل وأضرابه، وفي التهذيب: يعترف بقلبه ويقر بلسانه ويأبى أن يقبل كأبي طالب حيث يقول:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنْ دِينَ مُحَمَّدٍ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينًا
لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حِذَارُ مَسْبِيَّةٍ لَوَجَدْتَنِي سَمَحاً بِذَلِكَ مُبِينًا

وأما كفر النفاق فإن يقر بلسانه ويكفر بقلبه ولا يعتقد بقلبه. قال الهروي: سأل الأزهري عن يقول بخلق القرآن أنسميه كافراً؟ فقال: الذي بقوله كفر.

وكتب عبد الملك إلى سعد بن جبير يسأله عن الكفر فقال: الكفر على وجوه: فكفر هو شرك يتخذ مع الله إلهاً آخر، وكفر بكتاب الله ورسوله، وكفر بإدعاء ولد الله، وكفر مدعي الإسلام، وهو أن يعمل أعمالاً بغير ما أنزل الله ويسعى في الأرض فساداً ويقتل نفساً محرمة بغير حق، ثم نحو ذلك من الأعمال كفران: أحدهما كفر نعمة الله، والآخر التكذيب بالله. وفي التنزيل العزيز «إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم». قال أبو إسحاق: قيل في غير قول: قال بعضهم: يعني به اليهود لأنهم آمنوا بموسى (عليه السلام) ثم كفروا بعزير ثم كفروا بعبسى ثم ازدادوا كفراً بكفرهم بمحمد (ﷺ)؛ وقيل: جائز أن يكون محارب آمن ثم كفر، وقيل: جائز أن يكون منافق أظهر الإيمان وأبطن الكفر ثم آمن بعد ثم كفر وازداد كفراً بإقامته على الكفر، فإن قال قائل: الله عز وجل لا يغفر كفر مرة، فلم قيل ههنا فيمن آمن ثم كفر ثم آمن ثم كفر لم يكن الله ليغفر لهم، ما الفائدة في هذا؟

فالجواب في هذا، والله أعلم، أن الله يغفر للكافر إذا آمن بعد كفره، فإن كفر بعد إيمانه لم يغفر الله له الكفر الأول لأن الله يقبل التوبة، فإذا كفر بعد إيمانه قبله كفر فهو مطالب بجميع كفره، ولا يجوز أن يكون إذا آمن بعد ذلك لا يغفر له لأن الله عز وجل يغفر لكل مؤمن بعد كفره، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، معناه أن من زعم أن حكماً من أحكام الله الذي أتت به الأنبياء (عليهم السلام) باطل فهو كافر.

وقال الليث: يقال إنما سمي الكافر كافراً لأن الكفر غطى قلبه كله؛ قال الأزهري: ومعنى قول الليث هذا يحتاج إلى بيان يدل عليه وإيضاحه أن الكفر في اللغة التغطية، والكافر ذو كفر أي ذو تغطية لقلبه يكفره. وفي الحديث أن رسول الله (ﷺ) قال في حجة الوداع: «أحدهما لابسين السلاح متهيين للقتال من كفر فوق درعه إذا لبس فوقها ثوباً كأنه أراد بذلك النهي عن الحرب، والقول الثاني: أنه يكفر الناس فيكفر كما تفعل الخوارج إذا استعرضوا الناس فيكفرونهم، وهو كقوله: «من قال لأخيه يا كافر فقد باء به أحدهما، لأنه إما أن يصدق عليه أو يكذب، فإن صدق فهو كافر، وإن كذب عاد الكفر إليه بتكفير أخاه المسلم.

والكافر: الزارع لستره البذر بالتراب. والكفار: الزراع. وتقول العرب للزارع: كافر لأنه يكفر البذر المبدور بتراب الأرض المشارة إذا أمر عليها مالقة، ومنه قوله تعالى: ﴿كَمْثَلْ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكَفَّارِ نَبَاتَهُ﴾ أي أعجب الزراع نباته.

والكفر: التغطية، وكفرت الشيء اكفره، أي سترته، والكافر: الليل وكفر الليل على أثر صاحبي: أي غطاه بسواده وظلمته، والكافر الوادي العظيم. والكافر: المطر، وأنشد:

وَحَدَّثَهَا الرُّوَادُ أَنْ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ قُرَى نَجْرَانَ وَالشَّامِ كَافِرُ
والكافر: التراب لأنه يستر ما تحته. ورماد مكفور: ملبس تراباً أي سفت عليه الرياح التراب حتى دارته وغطته، قال:

هَلْ تَعْرِفُ الدَّارَ بِأَعْلَى ذِي الْقُورِ قَدْ دَرَسَتْ غَيْرَ رَمَادٍ مَكْفُورٍ
مُكْتَبِ اللَّوْنِ مَرْوَحِ مَمْطُورِ

والكفر: الغير الذي يطل به السفن لسواد، وتغطيته. والكافر: الذي كفر درعه بثوب أي غطاه ولبسه فوقه، وكل شيء غطى شيئاً، فقد كفره.

والكفر: العصا القصيرة، وهي التي تقطع من سعف النخل، قال ابن الأعرابي: الكفر: الخشبة الغليظة القصيرة، والكافور: كم العنب قبل أن ينور.

والكفر: تعظيم الفارسي بملكه، والتكفير لأهل الكتاب، أن يطأطأ أحدهم رأسه لصاحبه كال تسليم عندنا، وقد كفر له.

والكفر: العظيم من الجبال، والكفر، العقاب من الجبال، ورجل كفرين: داه. وكفرني: أحقق خامل^(١).

قال ابن فارس: «والكفر ضد الإيمان، سمي لأنه تغطية الحق. وكذلك كفران النعمة: جحودها وسترها»^(٢).

وعلى المسلم أن يؤمن بوجود إله واحد خالق لكل الكون وهو ما يسمى بالوحدانية (monotheism) والوحدانية في علم الكلام الإسلامي: صفة من صفات الله تعالى معناها أن يمتنع أن يشاركه شيء في ماهيته وصفات كماله، وأنه منفرد بالإيجاد والتدبير العام بلا واسطة ولا معالجة، ولا مؤثر سواه في أثر ما عموماً^(٣).

انظر أخي المسلم إلى الإنسان ما أكفره، قال تعالى: ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ﴾ ﴿١٧﴾ [عبس].

يقول عز وجل وأما لمن أكر البعث والنشور من بني آدم، قتل الإنسان ما أكفره» وقتل أي لعن، وما أكفره أي ما أشد كفره، وقيل ويحتمل أن يكون المراد أي شيء جعله كافر أو

(٢) مقاييس اللغة، ١٩١/٥.

(١) اللسان مادة كفر.

(٣) معجم المصطلحات العربية، ٤٣٠.

أي حمله على التكذيب بالمعاد، وقيل: ما أكفره أي ما ألعنه.

وانظر إلى كفر اليهود والنصارى فيما ادعاهم في المسيح بن مريم وهو عبد من عباد الله وخلق من خلقه أنه هو الله - تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً - قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة: ١٧ - ١٨].

يقول الله تعالى رداً على اليهود والنصارى في كذبهم وافتراءهم ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ﴾ أي نحن منتسبون إلى أنبيائهم وهم بنوه وله بهم عناية وهو يحبنا ونقلوا عن كتابهم أن الله تعالى قال لعبده إسرائيل أنت ابني بكري فحملوا هذا على غير تأويله وحرفوه. وقد رد عليهم غير واحد ممن أسلم من عقلائهم وقالوا: هذا يطلق على التشريف والإكرام عندهم كما نقل النصارى من كتابهم أن عيسى قال لهم: إني ذاهب إلى أبي وأبيكم يعني ربي وربكم ومعلوم أنهم لم يدعوا لأنفسهم من النبوة ما ادعوا في عيسى (عليه السلام) وإنما أرادوا من ذلك عثرتهم لديه وحظوتهم عنده ولهذا قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه. قال: لئن رادوا عليهم (قل فلم يعذبكم بذنوبكم) أي لو كنتم كمتادعون أبناءه وأحباؤه فلم أعددت لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وافتراءكم؟

عن أنس قال مر النبي (ﷺ) في نفر من أصحابه وصبي في الطريق فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ فأقبلت تسعى وتقول ابني ابني وسعت فأخذته فقال القوم: يا رسول الله ما كانت هذه لتلقي ولدها في النار. قال: فحفظهم النبي (ﷺ) فقال: «لا والله ما يلقي حبيبه في النار»^(١).

وانظر إلى مصير الكافرين انهم يساقون إلى جهنم جماعات، قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتِيحتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِمَا قَسَّيْنَا عَلَى الْمُنْكَرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر: ٧١ - ٧٣].

(١) تفسير ابن كثير، ٣٣/٢.

فالله تعالى يخبرنا عن حال الأشقياء والكفار كيف يساقون إلى النار، وإنما يساقون سوقاً عنيفاً بزجر وتهديد ووعيد، ويدفعون إليها دفعاً وهم عطاش ظمأ صم بكم عمي منهم من يمشي على وجهه، وبمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعاً لتعجل لهم العقوبة ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية الذين هم غلاظ الأخلاق شداد القوى على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل ﴿يَا أَيُّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ﴾ أي من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم. ابقوا فيها لا خروج لكم ولا زوال لكم عنها فبئس المصير وبئس المقيّل لكم بسبب تكبركم في الدنيا وإبائكم عن اتباع الحق فهو الذي صيركم إلى ما أنتم فيه. فبئس الحال وبئس المآل.

وأخبرنا تعالى أن عقبي الكافرين نار جهنم، قال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا دَائِمٌ وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمِمَّا يَأْتِيهِمْ مِنْهُ نَبْعٌ فَاضٍ كَالْغَيْظِ السَّارِجِ يَخْرُجُ مِنْ تَحْتِهَا يَنْبَعُ الْكُفْرِ وَالْكَافِرِينَ الْنَارُ﴾ [الرعد: ٣٥].

والذين كفروا لهم عذاب في الدنيا وعذاب أشقى في الآخرة. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعْدَبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٦].

وكذلك فعل الله بمن كفر بالمسيح من اليهود أو غلا فيه أو أطراه من النصارى عذابهم في الدنيا بالقتل والسبي وأخذ الأموال وإزالة الأيدي عن الممالك، وفي الدار الآخرة عذابهم أشد وأشق.

وانظر إلى موقف الكافر يوم القيامة يلعنه الله تعالى وتلعنه الملائكة ويلعنهم الناس أجمعون.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١ - ١٦٢].

فالذين كفروا واستمر كفرهم إلى مماتهم فإن لعنة الله عليهم إلى يوم القيامة والمصاحبة لهم في نار جهنم التي (لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) أي لا يغير عنهم ساعة واحدة ولا يفتر بل هو متواصل دائم فنعوذ بالله من ذلك.

والنار والعياذ بالله مصير الكافرين لا محالة، وبئست مقبلاً ومنزلاً ومرجعاً ومؤثلاً ومقاماً.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا نُنَادِيَنَّهُمْ نَبِيُّنَا بَيْنَنَا نَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ مَكَادُورٌ يُسْطَرُجُ بِالَّذِينَ يَكُونُ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ النَّارِ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢].

يقول عز وجل أنه إذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله وأنه لا إله إلا هو وأن رسله قوم صدق، يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء قل يا محمد لهؤلاء ﴿أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ النَّارُ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِي كَفَرُوا﴾ أي النار وعذابها ونكالها أشد أشق وأطم وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تتلون منهم إن نلتهم بزعمكم وإرادتكم. وبئست النار مقاماً ومستقراً ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾ (١).

وانظر أخي المسلم إلى كل كفار عنيد كثير الكفر والتكذيب بالحق، وإلى من جعل مع الله إلهاً آخر، فإنهما يلقيان في نار جهنم وبئس المهاد. قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (١٤) ﴿مَنَعَ لِلْخَيْرِ مُعْتَرِ مُرِيبٍ﴾ (١٥) ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً مآخِرَ فَأَلْقَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ (١٦) [ق: ٢٤ - ٢٦].

وانظر أخي المسلم إلى من كفر بأنعم الله تعالى. قال تعالى: ﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِسَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (١٧) [النحل: ١١٢].

كانت مكة وأهلها في أمان واستقرار يأتيها رزقها سهلاً من كل مكان، فجحدت أنعم الله وأعظمها بعثة محمد (ﷺ) فألبسها الله وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبي إليهم ثمرات كل شيء ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان، وذلك أنهم استعصوا على رسول الله (ﷺ) وأبوا إلا خلافه فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم فأكلوا العلهز وهو دبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه (والخوف) وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله (ﷺ) وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة من سطوته وسراياه وجيوشه وجعل كل مالهم في دمار وسفال حتى فتحها الله على رسوله (ﷺ) وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول (ﷺ) الذي بعثه الله فيهم وامتن به عليهم (٢).

وانظر أخي المسلم إلى نعمة الله تعالى على أهل قريش في أحلهم من حرمه الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد ومن دخله كان آمناً فهم في أمن عظيم والأعراب من حوله ينهب بعضهم بعضاً ويقتل بعضهم بعضاً، فكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا بالله وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد، فكفروا بنبي الله وعبدوه ورسوله فكان اللائق بهم إخلاص العبادة لله وأن لا يشركوا به وتصديق الرسول وتعظيمه وتوقيره فكذبوه

(١) تفسير ابن كثير، ٢٢٨/٣.

(٢) م.س.، ٥٦٩/٢ - ٥٧٠.

فقاتلوه فأخرجوه من بين أظهرهم ولهذا سلبهم الله تعالى ما كان أنعم عليهم، وقتل من قتل منهم ببدر ثم صارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين ففتح الله على رسوله مكة وأرغم أنامهم وأذل رقابهم. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَّأْمُونًا وَسَخَطُ النَّاسِ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِيَالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [العنكبوت: ٦٧ - ٦٨].

وانظر أخي المسلم إلى من بدل نعمة الله فأهلكه (وقيل أنهم كفار أهل مكة) وقيل (منافقو قريش) فهم قد أحلوا قومهم دار البوار (جهنم)، فالله عز وجل يتوعد المنافقين والكافرين على السواء بأنهم مهما فعلوا وقدروا في الدنيا فإنهم راجعون إلى الله ومصيرهم وماوهم النار يصلونها وبئس القرار. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ بَدَلُوا بِدَلْوَاهُمْ أَلَهُمْ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٧٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَبَيْسَ الْقَرَارِ ﴿٧٩﴾ وَيَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا يُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٨٠﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨ - ٣٠].

وانظر أخي المسلم إلى الكافر وما يتمناه لنفسه بأن يكون تراباً من شدة ما يرى من العذاب، فإنه يود يومئذ أنه كان في الدنيا تراباً ولم يكن خلق ولا خرج إلى الوجود وذلك حين عاين عذاب الله ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سطرت عليه بأيدي الملائكة السفارة الكرام البررة، وقيل إنما يود ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجور حتى إنه ليقصص للشاة الجماء من القرناء. فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها كوني تراباً فتصير تراباً فعند ذلك يقول الكافر (يا ليتني كنت تراباً) أي كنت حيواناً فأرجع إلى التراب^(١).

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا ﴿٤٠﴾﴾ [النبا: ٤٠].

فانظر إلى مصير الكافر في الدنيا والآخرة، في الدنيا وما يلحق به من ذل وهوان وحقارة من الناس، وفي الآخرة ذل وهوان وعذاب شديد وخلود في جهنم وبئس القرار، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَفِثَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء: ٥٦] صدق الله العظيم.

(١) تفسير ابن كثير، ٤/٤٦٦.

كراهية الإساءة للجار

قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

فقد ورد عن ابن عباس (رضي الله عنه) أن الجار ذي القربى هو الذي بينك وبينه قرابة، والجار الجنب الذي ليس بينك وبينه قرابة، وقيل: الجار ذي القربى يعني الجار المسلم، والجار الجنب اليهودي والنصراني. وقيل: الجار ذي القربى: المرأة، والجار الجنب: يعني الرفيق في السفر. فعن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) أن رسول الله (ﷺ) قال: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»^(١). وقيل أن السيدة عائشة أم المؤمنين (رضي الله عنها) سألت رسول الله (ﷺ) فقالت: إن لي جارين فإلى أيهما أهدي؟ قال: إلى أقربهما منك باباً.

واسم الجار يشمل المسلم والكافر والعابد والفاسق والصديق والعدو «الغريب والبلدي والنافع والضار والقريب والأجنب أي الأبعد. فالجيران ثلاثة: «جار له حق وهو المشرك له حق الجوار، وجار له حقان وهو المسلم له حق الجوار وحق الإسلام، وجار له ثلاثة حقوق مسلم له رحم وله حق الجوار والإسلام والرحم».

كان أهل الجاهلية يحافظون على الجار، ويحصل امتثال الوصية به لا بإيصال ضروب الإحسان إليه بحسب الطاقة كالهدية، والسلام، وطلاقة الوجه عند لقائه وتفقد حاله ومعاونته فيما يحتاج إليه إلى غير ذلك، وكف أسباب الأذى عنه على اختلاف أنواعه حسية كانت أو معنوية. وقد نفى رسول الله (ﷺ) الإيمان عند من لم يأمن جاره بوائقه.

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: من يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه (شره)»^(٢).

(١) تفسير ابن كثير، ٤٦٨/١.

(٢) الترغيب والترهيب، ٣/٣٥٢.

ويفترق الحال في ذلك بالنسبة للجار الصالح وغير الصالح، والذي يشمل الجميع إرادة الخير له، وموعظته بالحسنى والدعاء له بالهداية وترك الإضرار له إلا في الموضع الذي يجب فيه الإضرار له بالقول والفعل، والذي يخص الصالح هو جميع ماتقدم، وغير الصالح كفه عن الذي يرتكبه بالحسنى على حسب مراتب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ويعظ الكافر بعرض الإسلام عليه ويبين محاسنه والترغيب فيه برفق، ويعظ الفاسق بما يناسبه بالرفق أيضاً ويستتر عليه زلله عن غيره وينهاه برفق، فإن أخاه فيه وإلا فيهجره قاصداً تأديبه على ذلك مع إعلامه بالسبب.

وللجار حقوق على جاره منها:

- ١ - أنه إذا طلب العون والغوث مدّت له يد المساعدة وأعانتة.
- ٢ - إذا طلب منا قرضاً أو سلفة أو ديناً فعليك إقراضه ومساعدته.
- ٣ - وإذا لحقه فقر أو حاجة ذهبت إليه وأعنته على نوائب الدهر وشدة الفقر.
- ٤ - إذا مرض زرته وإطمأنت على حاله.
- ٥ - إذا أصابه خير هنأته وفرحت له، وإذا أصابته مصيبة عزيتة وواسيته، وشاركتة في أحزانه.
- ٦ - إذا مات اتبعت جنازته.
- ٧ - ولا تستطيل عليه بالبنیان فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ورضاه، ولا تؤذه بغبار ريح قدرك إلا أن تفرق له منها، وإن اشتريت فاكهة فأهد له، فإن لم تفعل فأدخلها سراً، ولا يخرج ولدك ليغيظ بها ولده».

روي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي (ﷺ) قال: «من أغلق بابَه دون جاره مخافة على أهله وماله، فليس ذلك بمؤمن، وليس بمؤمن من لم يأمن جاره بوائقه، أتدري ما حق الجار؟ إذا استعانك أعنته، وإذا استقرضك أقرضته، وإذا افتقر عدت عليه، وإذا مرض عدته، وإذا أصابه خير هنأته، وإذا أصابته مصيبة عزيتة، وإذا مات اتبعت جنازته، ولا تستطيل عليه بالبنیان فتحجب عنه الريح إلا بإذن، ولا تؤذه بغبار ريح قدرك إلا أن تغرف له منها، وإن اشتريت فاكهة فأهد له، فإن لم تفعل فأدخلها سراً، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده»^(١).

(١) الترغيب والترهيب، ٣/٣٥٧.

فمن كان مؤمناً بالله تعالى واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت»^(١).

وقد أخبرنا رسول الله (ﷺ) أن من آذى جاره فقد آذاه، ومن آذاه فقد آذى الله تعالى، ومن حاربه فقد حارب الله عز وجل فهو بذلك قد أعلن عصيانه وفسقه وفجوره، فقد روى عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «من آذى جاره فقد آذاني، ومن آذاني، فقد آذى الله، ومن حارب جاره فقد حاربنى، ومن حاربنى فقد حارب الله عز وجل»^(٢).

واعلم أخي المسلم أن أذية الجار تحبب ثواب الأعمال الصالحة، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رجل: يا رسول الله إن فلانة تكثر من صلاتها وصدقته وصيامها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها، قال: هي في النار، قال: يا رسول الله، فإن فلانة يذكر من قلة صلاتها وصيامها، وأنها تتصدق بالأنوار من الإقط، ولا تؤذي جيرانها، قال: هي في الجنة»^(٣).

وأخبرنا رسول الله (ﷺ) عن ثلاثة قاصمة للظهر وعدّها من الدواهي، إمام أو خليفة أو سلطان أو أمير تولى رئاسة العمل فلا يكافأك على إحسان ولا يغفر لك زلة، وجار جائر إن علم منك فعل خير ستره وأخفى أثره وكتّم فضله، لأنه حسود يأجج قلبه غيظاً وكمداً، وإن رأى منك شراً نشره وأظهره بين الناس ليعيبك به، لأنه كالذباب يسقط على موائد الفضلات. وإمرأة تقدم لك قوارس الكلم وشنعاء الفعل بتبجح وقلة حياء، لأنها سليطة صخابة فاسقة شتامة، وإن غبت عنها لم تحفظك فتخونك، وتسرف في مالك.

فعن فضالة بن عبيد (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «ثلاثة من الفواقر: إمام إن أحسنت لم يشكر، وإن أسأت لم يغفر، وجار سوء إن رأى خيراً دفنه، وإن رأى شراً أذاعه، وإمرأة إن حضرت آذتك وإن غبت عنها خاتتك»^(٤).

وفي مسألة الشقاء والسعادة فإن أربعاً تسعد وأربعاً يشقى بهن المرء، فالأربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء، وأربعاً من الشقاء: الجار سوء والمرأة سوء، والمركب سوء، والمسكن الضيق.

فعن سعيد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «أربع من

(٢) الترغيب والترهيب، ٣/٣٥٤.

(٤) م.ن.، ٣/٣٥٨.

(١) م.ن.، ٣/٣٥٢.

(٣) م.ن.، ٣/٣٥٦.

السعادة المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والجار الصالح، والمركب الهنيء. وأربع من الشقاء: الجار سوء، والمرأة سوء، والمركب سوء، والمسكن الضيق»^(١).

وإن خير الجيران عند الله خيرهم لجاره، فعن عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله (ﷺ): «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره»^(٢).

ويروى عن رسول الله (ﷺ) أن أول خصمين يحاسبان يوم القيامة جاران، أي جاران متخاصمان متنازعان يقضي الله تعالى بينهما بالحق.

فعن عقبة بن عامر (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «أول خصمين يوم القيامة جاران».

وقد روي عن الرسول الله (ﷺ) أنه حَرَمَ رجلاً من اللهاق معه للخروج ومقاتلة أعداء الله بسبب إيذائه جاره، فرسول الله (ﷺ) أراد أن يحارب أعداء الدين ويطلب النصر من رب العالمين، ولا ينصر الله إلا الصالحين غير المرتكبين ذنوباً فنفى رجال جيشه وصفاهم واختارهم من المتقين. فالرسول (ﷺ) نهى من اعتدى بالبول على حائط جاره أن يرافقه في الغزو.

روي عن عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) قال: خرج رسول الله (ﷺ) في غزاة قال: لا يصحبنا اليوم من آذى جاره، فقال رجل من القوم أنا بُلت في أصل حائط جاري، فقال: لا تصحبنا اليوم»^(٣).

(٢) م.ن.، ٣/٣٦٠.

(١) الترغيب والترهيب، ٣/٣٦٣.

(٣) م.ن.، ٣/٣٥٥.

كراهية الرياء (الشرك الأصغر)

يقال: راءى فلانٌ يرائي، وفعل ذلك رياء الناس. وهو أن يفعل شيئاً ليراه الناس.

والرياء في العبادة ويطلق عليه (الشرك الأصغر). وهو أن يريد الإنسان بعبادته غير وجه الله عز وجل كأنه يقصد اطلاع الناس على عبادته وورعه حتى يحصل له منهم غرض دنيوي نحو مالٍ أو جاهٍ أو ثناء، فكل من يفعل ذلك تكن عبادته باطلة ويكون مذموماً مدحوراً من الله عز وجل مردوداً عليه عمله؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - لا يقبل من العباد إلا ما كان خالصاً لوجهه.

وقد ذم الله عز وجل الرياء فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۚ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۚ وَمَتَعُونَ الْمَاعُونَ ۖ﴾ [الماعون: ٤ - ٧].

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رجل يا رسول الله الرجل يعمل العمل بسره فإذا اطلع عليه أعجبه قال: قال رسول الله (ﷺ): «له أجران أجر السر وأجر العلانية».

وقد وضع الله تعالى لعباده المقبول عمله من المطرود من رحمته، وعمل عملاً صالحاً يراد به وجه الله ولا يشرك بعبادة ربه أحداً.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

إن من يرجو لقاء ربه أي ثوابه وجزاءه الصالح فليعمل عملاً موافقاً لشرع الله، ولا يشرك بعبادة الله، بل يراد به وجه الله وحده لا شريك له. فالعمل المتقبل له ركنان: أن يكون خالصاً لله صواباً وعلى شريعة رسول الله (ﷺ).

قال شداد بن أوس (رضي الله عنه) إن أخوف ما أخاف عليكم أيها الناس لما سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «من الشهوة الخفية والشرك» فقال عبادة بن الصامت وأبو الدرداء: اللهم غفراً ألم يكن رسول الله (ﷺ) قد حدثنا أن الشيطان قد ينس أن يعبد في جزيرة العرب. أما الشهوات الخفية فقد عرفتوها هي شهوات الدنيا من نسائها وشهواتها، فما

الشرك الذي تخوفنا به يا شداد؟ فقال شداد: أرايتكم لو رأيتم رجلاً يصلي لرجل أو يصوم لرجل أو يتصدق أترون أنه قد أشرك؟ قالوا: نعم، والله إن من صلى لرجل أو صام أو تصدق له لقد أشرك. فقال شداد: فإني سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «من صلى يرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك، ومن تصدق يرائي فقد أشرك؟ قال عوف بن مالك فعند ذلك أفلا يعمد الله إلى ما ابتغى جهة وجهه من ذلك العمل كله فيقبل ما خلص له ويدع ما أشرك به فقال شداد: عن ذلك فإني سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «إن الله يقول أنا خير قسيم لمن أشرك بي، من أشرك بي شيئاً فإن عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به، أنا عنه غني»^(١).

ويقول رسول الله (ﷺ): «أتخوف على أمتي الشرك والشهوة الخفية، قيل له: يا رسول الله أتشرك أمتك من بعدك؟ قال نعم، أما أنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً ولكن يراءون بأعمالهم والشهوة الخفية أمن يصبح أحدهم صائماً فعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه».

فالمقصود بمراءة الأعمال: إظهار الأعمال الصالحة للناس ليقال إنهم من الصالحين، بينما يأتون ما تشتهيه أنفسهم من المعاصي سرّاً.

ويقول رسول الله (ﷺ): «إذا جمع الله عز وجل الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ينادي مناد: من كان أشرك في عمل عمله لله تبارك وتعالى أحداً فيطلب ثوابه من عند غير الله عز وجل فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك».

ويقول رسول الله (ﷺ): «من سمع سمع الله به، ومن يراني يراني الله به». أي أن من سمع أي من عمل عملاً على غير إخلاص، وإنما أراد منه أن يراه الناس ويسمعه جوزي على ذلك بأن يشهره الله ويفضحه ويظهر ما كان يخفيه ويبطنه. ومن رأى الناس بعمله رأى الله به؛ أي أطلعهم على أنه فعل ذلك رياءً لهم لا لوجهه واستحق سخط الله عليه وعذابه.

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ١٥ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٦﴾ [هود: ١٥ - ١٦].

قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا وذلك أنهم لا يظلمون فقيراً. يقول: من عمل صالحاً التماس الدنيا صوماً أو صلاة أو تهجداً

(١) تفسير ابن كثير، ١٠٧/٣.

بالليل لا يعمله إلا التماس الدنيا يقول الله تعالى؛ «أو نية الذي التمس في الدنيا المثابة وحبط عمله الذي كان يعمله لالتباس الدنيا وهو في الآخرة من الخاسرين. فإن كان همه الدنيا ونيته وطلبه جازاه الله بحسناته في الدنيا ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء وأما المؤمن فيجازي بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة.

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَالَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ١٩﴾ كُلًّا نُمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ٢٠﴾ أَنْظَرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ٢١﴾ لَا يَجْعَلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَقَعَّدَ مَذْمُومًا مَحْدُولًا ٢٢﴾ [الإسراء: ١٨ - ٢٢].

روي أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال لي رسول الله (ﷺ): «ألا أريك الدنيا بما فيها؟ قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بيدي وأتى إلى واد من أودية المدينة فإذا مزبلة فيها رؤوس الناس وعذرات وخرق بالية وعظام البهائم. فقال: يا أبا هريرة هذه الرؤوس كانت تحرص حرصكم. وتأمل أمالككم وهي اليوم صارت عظاماً بلا جلد، ثم هي صائرة عظماً رميمًا، وهذه العذرات ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبتموها في الدنيا فأصبحت والناس يتحامونها، وهذه الخرق البالية رياشهم أصبحت والرياح تصفقها، وهذه العظام عظام دوابهم التي كانوا ينتفعون عليها أطراف البلاد. فمن كان باكيًا على الدنيا فليبك قال: فما برحنا حتى اشتد بكأؤنا».

وروي أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) دخل على النبي (ﷺ) وهو على سرير من الليف وقد أثر الشريط في جنبه، فبكى عمر (رضي الله عنه)، فقال رسول الله (ﷺ): «ما ييكيك يا عمر؟ فقال: تذكرت كسرى وقيصر. وما كانا فيه من سعة الدنيا، وأنت يا رسول الله، وقد أثر الشريط بجنبك، فقال (ﷺ): هؤلاء قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، ونحن قوم أخرت لنا طيباتنا في الآخرة.

وما أحسن ما قال سليمان بن الضحاك:

لا والمال حلٌّ حسنٌ جيّدٌ على الفتى لكئله عاريفه
ما أحسن الدنيا ولكنّها مع حسنّها عداوةٌ فانيةٌ (١)

وعن أبي علي رجل من بني كاهل قال: خطبنا أبو موسى الأشعري فقال: يا أيها

(١) المستطرف، د ٥٩٨/٢ - ٥٩٩.

الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أصغر من دبيب النمل فقام إليه عبد الله بن حزن وقيس بن المضارب فقالا: والله لتخرجنَّ مما قلت أو لنأتينَّ عمر مأذوناً لنا أو غير مأذون، فقال بل أخرج عما قلت: خطبنا رسول الله (ﷺ) ذات يوم فقال: «يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل». فقال له من شاء أن يقول وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ قال: قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من أن نُشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك مما لا نعلمه»^(١).

فالمؤمن يجتهد أن تكون أعماله كلها لله تعالى، ولا يشرك أحداً في نيته خشية أن يرد الله عليه أعماله ويحرمه من الثواب كما عذب من قاتل ليتحدث الناس بشجاعة فاستشهد، ولم يجد في آخرته ثواباً، وكذا العالم القارئ والغني الجواد فأخذ كل واحد نصيبه في حياته مدحاً وثناءً، وأن الذي ينافق في عمله ويرائي يرد عليه ما عمل ويفضحه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، ويظهر خفاياه، ويبعده من رحمته، وقد وصف الله تعالى المرائين بالخداع والمكر واللؤم، ولين الملمس، وحلاوة اللسان، وخبث الطوية، وسوء النية، وأنذرهم بالعذاب الأليم، ونار الجحيم وبئس القرار، وبين الله تعالى علامة الصالحين: إخلاص لله عز وجل في السر والعلن، وملازمة التقوى، واتقان العمل لله، والأمانة، وصدق الحديث، والتوكل على الله سبحانه وتعالى، والعمل لله خفية، وبغض الجهر، وعدم التظاهر، وأنهم يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

(١) الترغيب والترهيب، ٧٦/١.

كراهية الرِّشوة

الرِّشوة تقال بالراء المثلثة: الرِّشوة، الرِّشوة، الرِّشوة.

وتعني إعطاء صاحب منصب أو نفوذ مالاً أو متاعاً ليسهل له أخذ شيء ما لا حق له فيه. فكلُّ من الراشي (المُعطي للرِّشوة) والمرتشي (الأخذ لها)، والساعي فيما بينهما وهو (الرائش) ملعونون. واللعنة تلحق بالراشي إذا قضبها أذية الغير، أو نيل ما لا يستحق، أما إذا أعطى ليتوصل إلى حق ما، ويدفع عن نفسه ظلماً، فإنه غير داخل في اللعنة.

لذلك نهى الله عز وجل من أكل مال الناس عن طريق الرشوة، وخاصة رشوة الحكام. فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَآ إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

قال علي بن أبي طلحة وعن ابن عباس هذا في الرجل يكون عليه مال وليس عليه فيه بنية فيجحد المال ويخاصم إلى الحكام وهو يعرف أن الحق عليه، وهو يعلم أن آثم ثم أكل الحرام.

وقالوا: لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم وقد ورد في الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله (ﷺ) قال: «لا إنما أنا بشر وإنما يأتيني الخصم فلعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض (أفطن وأذكى) فأقضي له فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من نار فليحملها أو ليذرها (يتركها)». فحكم الحاكم لا يغير الشيء في نفس الأمر فلا يحل في نفس الأمر حراماً هو حرام ولا يحرم حلالاً هو حلال وإنما هو ملزم في الظاهر فإن طابق في نفس الأمر فذاك وإلا فللحاكم أجره وعلى المحتال وزره، قال قتادة: أعلم يا ابن آدم أن قضاء القاضي لا يحل لك حراماً ولا يحق لك باطلاً وإنما يقضي بنحو ما يرى وتشهد به الشهود، والقاضي بشر يخطئ ويصيب، واعلموا أن من قضى له بباطل أن خصومته لم تنقض حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة فيقضي على المبطل للمحق بأجود مما قضى به للمبطل على المحق في الدنيا^(١).

(١) تفسير ابن كثير، ٢١٤/١.

وفي أيامنا الحاضرة وقد كثرت الشكاوي والدعاوي في المحاكم، نرى كثيراً من الناس يستولون على مال الغير ظلماً وعدواناً عن طريق المحاكم التي تبني أحكامها على الأدلة الظاهرة، وهم يمهّدون لذلك عن طريق استغلال بسطاء القلوب ورشوة بعض المتنفذين والشهود والخبراء والاستعانة بالمحامين المهرة.

يقول النبي الكريم (ﷺ): «من استعملناه على عمل فرزقناه زرعاً (أي منحناه راتباً) فما أخذه بعد ذلك فهو غلول (خيانة)».

فقد استعمل النبي الكريم (ﷺ) رجلاً من قبيلة الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة فلما قدم قال: هذا لكم وهذا أهدي لي، فقال النبي: فهلاًّ جلس في بيت أبيه أو بيت أمه فينظر يهدى له أم لا، والذي نفسي بيده، لا يأخذ أحد منه شيئاً إلاّ جاء به يوم القيامة يحمله على رقبتة».

عن عمرو بن العاص (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «ما من قوم يظهر فيهم الربا إلا أخذوا بالسنة (القحط وشدة الغلاء وقلة المحاصيل وكثرة الآفات الزراعية)، وما من قوم يظهر فيهم الرشاً إلا أخذوا بالرشع (الفرع فالله يغفره ويزيده خوفاً ولا يبارك في أمواله وفي يوم ما يفتضح أمره ويفصل من عمله)»^(١).

وقد حذرنا رب العزة عن أكل الأموال بالباطل؛ أي بما لم يبيحه الشرع كالرشوة والربا والغصب والسرقة والقمار وكل أنواع المناهي. فلا يحل مال امرئ إلا عن طيب نفس منه.

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الذِّبُّ ءَامِنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَحْكَرَةً عَنْ رَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ [النساء: ٢٩].

وعن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: الرشوة في الحكم كفر، وهي بين الناس سُحْتٌ^(٢).

فالسحت حرام لا يحل كسبه، والسحت يسحت البركة أي يهلكها، والسحت بالهدية: أي الرشوة في الحكم، ومنه حديث ابن رواحة (رضي الله عنه) وخرص النخل أنه قال ليهود خبير لما أرادوا أن يرشو: أتعطمونني السحت: أي الحرام، سمي الرشوة في الحكم سُحْتاً.

وقد أخبرنا رب العزة سبحانه وتعالى عمن يأكل السحت من المنافقين واليهود ومن جرى مجراهم من عصاة المسلمين الذين يمدون أيديهم للرشوة. فتراهم يسارعون في الإثم (الحرام والكذب) وكذلك العدوان (الظلم ومجاوزة الحد في المعاصي) ويأكلون السحت

(٢) م.ن.، ١٨١/٣.

(١) الترغيب والترهيب، ١٨٠/٣.

(الحرام) رخصه الله تعالى بالذكر للمبالغة في أضراره، لبئس ما كانوا يصنعون.

وقال تعالى: ﴿وَرَأَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُزْعِرُونَ فِي الْآثَرِ وَالْعُدُونِ وَأَكْثِيَهُمُ الشُّعْتَةُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٢].

يقولون: الرشوة رشاء الحاجة. والرشاء هو حبل الدلو الذي بوساطته يؤخذ الماء من البئر. ولكن العون أو المساعدة لا تكون إلا في العمل الصالح المفيد النافع للإنسان وأخيه، أما الباطل فمحموق وزائل لا محالة، ولا يُساعد على تنميته وزيادة الغوص فيه أو التماذي. فما أساسه باطل ينهار كالجدار الضعيف الذي يتهدم من نسمة هواء أو حركة رياح. ولكن الحق نور ساطع يُبدد العتمة ويذريها كما تذرّوا الرياح بقايا العشب اليابس.

فالأخذ والعطاء يكونان فيما أحل الله تعالى، فإن احتجت فالجأ إلى الله عز وجل فهو نعم العون، وإن كان عندك فضل مال فهو مال الله فأنفقه في وجه الخير والطرق المشروعة التي وضعتها لنا رب العزة سبحانه وتعالى ونحن والحاجة أمام مثلث زواياه كلها داخلية في نطاق المحرمات أو الحرام. هذا المثلث يتألف من ثلاث زوايا، الأولى: الراشي، الثانية، المرتشي، الثالثة: الرائش بينهما وهذا المثلث ملعون عند الله عز وجل وعند رسول الله الكريم (ﷺ)، وذليل بين الناس ينظر إليهم كاللصوص الذين يسرقون أموال غيرهم.

فعن ثوبان (رضي الله عنه) قال: لعن رسول الله (ﷺ) الراشي والمرتشي والرئش بينهما، يعني الذي يمشي بينهما.

وهؤلاء الثلاثة قد استحوذ عليهم الشيطان فأضلهم وأغواهم فساروا في طريقه بعيدين عن رحمة الله وهده، فيرتكبون الآثام والمعاصي. وأن أعمالهم هذه ليس لها إلا طريق واحد في نهاية المطاف ألا وهو النار وبئس القرار. عن عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) عن النبي (ﷺ) قال: «الراشي والمرتشي في النار»^(١).

(١) الترغيب والترهيب، ٣/ ١٨٠.

كراهية النوح والمناحة

يقول ابن فارس في مقاييسه: «نوح: النون والواو والحاء أصل يدلُّ على مقابلة الشيء للشيء. منه تناوح الجبلان، إذا تقابلا. وتناوحت الرِّيحان: تقابلتا في المهب، وهذه الرِّيح نِيْحَةٌ لتلك؛ أي مقابلتها. ومنه النوح والمناحة، لتقابل النساء عند البكاء»^(١). وهناك أيضاً النحيب: نحيب الباكي. وهو بكاءه مع صوت وإعوال.

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧].

أيما كنتم يدرككم الموت فكونوا في طاعة الله وحيث أمركم الله فهو خير لكم فإن الموت لا بد منه ولا محيد عنه ثم إلى الله المرجع والمآب فمن كان مطيعاً له جازاه أفضل الجزاء ووفاه أتم الثواب.

عن معاذ بن جبل أنه قال: مات لي ابن، فكتب إلي رسول الله (ﷺ): من محمد رسول الله (ﷺ) إلى معاذ بن جبل، سلام عليكم، فلاني أحمد الله الملك الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فعظم الله لك الأجر، وألهمك الصبر، ورزقنا وإياك الشكر، ثم اعلم أن أنفسنا وأموالنا وأهلنا وأولادنا من مواهب الله تعالى الهنية وعواريه المستودعة، يمتعنا بها إلى أجل معدود ويقبضها لوقت معلوم، ثم فرض الله تعالى علينا الشكر إذا أعطى، والصبر إذا ابتلى، وكان ابنك من مواهب الله الهنية وعواريه المستودعة. متّعك الله به في غبطة وسرور، وقبضه بأجر كبير إن صبرت واحتسبت. فاصبر واحتسب. واعلم أن الجزع لا يرد ميتاً ولا يطرد حزناً.

وروي عن أبي بكر (رضي الله عنه) أنه كان إذا عزى مرزاً قال: ليس مع العزاء مصيبة، ولا مع الجزع فائدة، والموت أشد مما قبله، وأهون مما بعده، فاذكر مصيبتك برسول الله (ﷺ) تهن عليك مصيبتك»^(٢).

(٢) المستطرف، ٥٨٤/٢.

(١) مقاييس اللغة، ٣٦٧/٥.

وعلى المسلم أن يضبط نفسه ويهديء من أعصابه عند تلقي المصيبة، ويكون على يقين تام بأنها مقدرة من عند الله، وهذا مما يخفف وقعها على النفس البشرية.

وروي أن ابن عباس نعي إليه أخوه وهو في سفر، فاسترجع (أي قال إنا لله وإنا إليه راجعون) ثم صلى ركعتين وقال: فعلنا كما أمر الله (واستعينوا بالصبر والصلاة).

فما على المؤمن إلا الصبر والرضا بقضاء الله تعالى. ولا يتصرف تصرفاً يغضب الله تعالى، فلا يتبرم ويتصرف تصرفاً طائشاً يتنافى مع الصبر والرضا بقضاء الله فيقدمون على شق ثيابهم ولطم خدودهم، وخمش وجوههم، ونبش شعورهم، والتصفيق بإحدى اليدين على الأخرى، ورفع أصواتهم عند المصيبة، وهذا كله مما حرمه الإسلام ونهى عنه أشد النهي.

وعن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية».

وعن أبي بردة قال: «وجع أبو موسى الأشعري (رضي الله عنه) ورأسه في حجر امرأة من أهله، فأقبلت تصيح برئته (بصوت وألم) فلم يستطع أن يرد عليها شيئاً، فلما أفاق قال: أنا بريء ممن برئ منه رسول الله (ﷺ) إن رسول الله (ﷺ) بريء من الصالقة والحالقة والشاقة».

فالصالقة التي ترفع صوتها بالندب والنياحة، والحالقة التي تحلق رأسها عند المصيبة، والشاقة التي تقوم بشق ثيابها.

وعن أبي أمامة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) لعن الخامشة وجهها، والشاقة جيبها والداعية بالويل والثبور^(١).

وقد لعن رسول الله (ﷺ) النائحة والمستعمة لها معاً، فالنايحة هي المرأة التي ترفع صوتها وتندب وتصحب، والمستعمة هي المرأة الجالسة تسمع قول النائحة، وهي راضية مائلة صافية. فقد روي عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) قال: لعن رسول الله (ﷺ) النائحة والمستعمة.

وهذه الأمور التي تقوم بها النساء ليست من الإسلام في شيء وإنما هي رواسب الجاهلية ومن أفعالهم. فعن أبي مالك الأشعري (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة. وقال: النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة، وعليها

(١) الترغيب والترهيب، ٤/ ٣٥٣ - ٣٥٤.

سربال من قطران، ودرع من جرب»^(١).

وانظر أخي المسلم إلى عقوبة هذه المرأة التي يعلو صوتها بصراخ وعويل، فمصيورها - كما أخبرنا رسول الله (ﷺ) - النار ويئس القرار، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: «لا تصلّي الملائكة على نائحة ولا مرثة». فإن ملائكة الرحمة لا تدعو لصاحبة ولا مصوطة. فهذه النائحة تحرك ساكن السدات الثكلنى وترفع صوتها بكلمات مزعجة مؤلمة، فلا دين يردعها، ولا زوج يمنعها، فلا حول ولا قوة إلا بالله» وقد ادخر الله عقابها أن كساها بمادة قدرة سوداء راثحتها رديئة كريهة، وأحاطها بلباس من حديد مصلى بالنار يضغط عليها ويؤلمها فتصطلى جهنم هذا إلى أن تكون نائحة صغاية.

ألا تعلم هذه النسوة النائحات اللواتي يقمن بخمش وجوههن، وشق جيوبهن، ولطم خدودهن، وحلق شعورهن، وإهالة التراب على رؤوسهن ووجوهن، أن عزيزهم أو فقيدهم يعذب بما ينح عليه يوم القيامة، ويعذب في قبره أيضاً بما ينح عليه.

عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال: قال النبي (ﷺ): «الميت يعذب في قبره بما ينح عليه (يرسل الله عذابه للميت بسبب نوح أهله عليه).

وعن النعمان بن بشير (رضي الله عنهما) قال: أغمي على عبد الله بن رواحة فجعلت أخته تبكي، واجبلأه، واكذا، واكذا، تعدد عليه، فقال حين أفاق: ما قلت شيئاً إلا قيل لي: أنت كذلك»^(٢).

ويقال أن معنى التعذيب تألم الميت بما يقع من أهله من النياحة وغيرها. أو من كانت طريقته النوح فمشى أهله على طريقته أو أوصاهم بذلك عذب بصنيعه، أو من كان يعرف من أهله النياحة وأهمل نهيهم عنها.

وانظر إلى المؤمن الصابر المحتسب الذي إن أصابته مصيبة قال «إنا لله وإنا إليه راجعون» فقد روي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (٥٦) أَوْلَيْكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأَوْلَيْكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ (٥٧) قال: أخبر الله عز وجل أن المؤمن إذا سلم لأمر الله ورجع فاسترجع عند المصيبة كتب له ثلاث خصال من الخير: الصلاة من الله والرحمة، وتحقيق سبيل الهدى، وقال رسول الله (ﷺ): «من استرجع عند المصيبة، جبر الله مصيبتها، وأحسن عقابه (عاقبته)، وجعل له خلفاً (بدلاً وعوضاً) يرضاه»^(٣).

(٢) الترغيب والترهيب، ٤/ ٣٤٨ - ٣٥٠.

(١) م. ن.، ٤/ ٣٥٠ - ٣٥١.

(٣) الترغيب والترهيب، ٤/ ٣٣٨.

وقد وضع لنا رسول الله (ﷺ) أن العين تدمع والقلب يحزن، ولكن المتوفى يعذب أو يرحم ويعذب الميت ببكاء أهله عليه، فالصبر والسلوى وطلب الأجر من الله تعالى على مصابهم والدعاء والاستغفار وقراءة القرآن، والصدقة عن روح الفقيد، أجدى لهم فيحصل لهم بذلك حسن العزاء والأجر على مصابهم والثواب لميتهم.

قال رسول الله (ﷺ): «يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة».

وعن أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: «إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون نعم؟ فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده (فلذة كبده وزهرة حياته)؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنو لعبدي بيتاً في الجنة، وسموه بيت الحمد»^(١).

قال الشاعر:

تصَبَّرْ ففِي اللَّأَوَاءِ^(٢) قَدْ يَحْمَدُ الصَّبْرُ وَلَوْلَا صُرُوفُ الدَّهْرِ لَمْ يَعْرِفِ الْحَزْرُ
وَإِنْ الَّذِي أَبْلَى هُوَ الْعَوْنُ فَاثْتَدَبْ جَمِيلَ الرِّضَا يَبْقَى لَكَ الذِّكْرُ وَالْأَجْرُ
وَتُقَى بِالَّذِي أُعْطِيَ وَلَا تَكُ جَازِعاً فَلَيْسَ بِحَزْمٍ مِنْكَ أَنْ يَرْدَعَكَ الضَّرُّ
فَلَا نَعَمْ تَبْقَى وَلَا نَعَمْ وَلَا يَدُومُ كَلَا الْحَالِيْنَ عَسْرٌ وَلَا يَسْرُ
تَقْلُبُ هَذَا الْأَمْرُ لَيْسَ بِدَائِمٍ لَدَيْهِ مَعَ الْأَيَّامِ حَلْوٌ وَلَا مَرُّ
وقال المتنبي في الموت:

وقد فارقَ النَّاسُ الْأَحْبَبَةَ قَبْلَنَا وَأَعْيَا دَوَاءَ الْمَوْتِ كُلُّ طَبِيبٍ^(٣)

(٢) اللأواء: الشدة.

(١) م.ن.، ٢٨١/٤، الحاشية.

(٣) التمثيل والمحاضرة، ٤٠٥.

كراهية الطيرة

يقول ابن فارس في مقاييسه: «طير: الطاء والياء والراء أصل واحد يدل على صفة الشي في الهواء، ثم يستعار ذلك في غيره وفي كل سرعة. من ذلك الطير، جمع طائر، سمي ذلك لما قلناه، يقال طار يطير طيراناً. ثم يقال لكل من خف: قد طار. قال رسول الله ﷺ: «خير الناس رجل تمسك بعنان فرسه في سبيل الله، كلما سمع هيلة طار إليها».

ويقال في هذا: تطاير الشيء أي تفرق، واستطار الفجر، انتشر. وكذلك كل منتشر. قال الله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَتْ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ فأما قولهم: تطير من الشيء، فاشتقاقه من الطير كالغراب وما أشبهه. ومن الباب: طائر الإنسان، وهو عمله. وبثر مطاره، إذا كانت واسعة الفم، قال الشاعر:

كَأَنَّ حَفِيفَهَا إِذْ بَرَكُوهَا هُوِيَ الرِّيحِ فِي جَفْرِ مَطَارٍ

ومن الباب: الطيرة: الغضب، وسمي كذا لأنه يستطار له الإنسان. ومن الباب قولهم: خذ ما تطاير من شعر رأسك، أي طال.

قال أبو النجم العجلي الراجز: وطَارَ جني السنام الأطول^(١).

وزجر الطير هو الاستدلال بصوت الحيوان وحركته وحالته على الحوادث، فكان العربي يرمي الطائر بحصاة أو يصيح به، فإن طار إلى يمينه تفاعل به، وإن اتجه في طيرانه إلى يساره تشاءم منه وتطير، وقد اشتهر بالتنبؤ وملاحظة حركة الطيور بنو أسد وبنو لهب، وكانوا يتيامنون ويتفائلون بالطير إن جرت يمينه، ويتشاءمون إن جرت يسره، وقال الجاحظ: «وأصل العيافة التطير من الطير إذ مر بارحاً (ميامناً) وسائحاً (مياسراً) أو رآه يتفأى ويتنف، حتى صاروا إذا عانوا الأعور من الناس أو البهائم أو الأعضب أو الأبتز زجروا عند ذلك وتطيروا. فكان زجر الطير هو الأصل. ومنه اشتقوا التطير، ثم استعملوا ذلك في كل شيء... وللطيرة سمت العرب المنهوش بالسليم والبرية بالمفازة، وكنوا الأعمى أبا بصير

(١) مقاييس اللغة، ٢/ ٤٣٥ - ٤٣٦.

والأسود أبا البيضاء، وسموا الغراب بحاتم، والغراب أكثر من جميع ما يتطير به في باب الشؤم^(١).

كان رسول الله (ﷺ) يحب الفال ويكره الطيرة، وقيل: ذكرت الطيرة عند رسول الله (ﷺ) فقال: «من عرض له من هذه الطيرة شيء، فليقل اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم». وعنه (ﷺ) أنه قال: «ليس منا من تطير أو تكهن له أو تكهن أو تكهن له».

قال المبرد (محمد بن يزيد الأزدي):

لَا يَغْلَمُ الْمَرْءُ لَيْلًا مَا يَصْبُحُهُ إِلَّا كَوَاذِبٌ مَا يَجْرِي بِهِ الْقَالُ
وَالْفَالُ وَالزَّجْرُ وَالْكَهَانُ كُلُّهُمْ مُضِلُّونَ وَدُونَ الْغَيْبِ أَقْفَالُ
وقال لبيد بن ربيعة العامري:

لَعَمْرِي مَا تَذَرِي الطَّوَارِقُ بِالْحَصَى وَلَا زَاجِرَاتُ الطَّيْرِ مَا اللَّهُ صَانِعُ
وكانت العرب تتطير بأشياء كثيرة منها العطاس، وسبب تطيرهم منه أن دابة يقال لها
العاطوس كانوا يكرهونها وكانوا إذا أرادوا سفر خرجوا من الغلس والطير في أوكارها على
الشجر فيطيرونها فإن أخذت يميناً أخذوا يميناً، وإن أخذوا شمالاً أخذوا شمالاً. والعرب
أعظم من يتطيرون من الغراب، فالقول فيه أكثر من أن يطلب عليه شاهد ويسمونه حاتمًا لأنه
يحتم عندهم بالفراق، ويسمونه الأعور على جهة التطير بصراً.

وفيه يقول بعضهم:

إِذَا مَا غَرَابُ الْبَيْنِ صَاحَ فَقُلْ بِهِ تَرَقَّبْتُ رَمَاكَ اللَّهُ يَا طَيْرَ الْبَعْدِ
لَأَنْتَ عَلَى الْعُشَاقِ أَقْبَحُ مَنْظَرٍ وَأَبْشَعُ فِي الْإِبْصَارِ مِنْ رُؤْيَا اللَّحْدِ
تَصِيحُ بِبَيْنِ ثَمَّ تَعُثِّرُ مَا شِئَا وَتَبْرُرُ فِي ثَوْبٍ مِنَ الْحُزَنِ مَسْوَدُ
مَتَى صَحَتْ صَحَّ الْبَيْنُ وَانْقَطَعَ الرَّجَا كَأَنَّكَ مِنْ يَوْمِ الْفِرَاقِ عَلَى وَعْدِ
وَأَعْرَضَ بَعْضُهُمْ عَنِ الْغَرَابِ وَتَطِيرَ بِالْإِبِلِ، وَسَبَبُ ذَلِكَ لَكُونِهَا تَحْمِلُ أَثْقَالَ مِنْ
ارْتَحَلَ، وَفِي ذَلِكَ قَالَ بَعْضُهُمْ مَفْرَدًا أَجَاد:

زَعَمُوا بَأَنَّ مَطِيَّهُمْ سَبَبُ النَّوَى وَالْمُؤْذِنَاتُ بِفِرْقَةِ الْأَحْبَابِ
وقالوا: من تطير من شيء وقع فيه^(٢).

(١) معجم المصطلحات العربية، ٢٦٢ - ٢٦٣. (٢) المستطرف، ١٨٧/٢ - ١٨٨.

والطيرة شرك، وأن المتشائم إذا اعتقد أن هناك مؤثراً أو تأثيراً لغير الله فهو مشرك، إذ الأفعال كلها لله وحده، والمؤثر هو الله وحده. قال الله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُنَازِقَنَا فِي شَيْءٍ إِنْ أَرَادْنَا بِكَ الْبَأْسَ أَوْ الْوَيْلَ أَوْ نَنْصُرَ عَلَىٰ مَا هَٰذَا يَمْتَنِعُونَ ۚ وَاللَّهُ يَمُنُّ عَلَىٰ مَا عَدَايْتُمْ ۚ وَاللَّهُ وَكَافٍ عَلَيْكُمْ ۖ﴾ [إبراهيم: ١١ - ١٢].

وعن ابن مسعود (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: «الطيرة شرك، الطيرة شرك، الطيرة شرك، والمؤمن عليه أن يعتقد دائماً أن كل شيء من الله تعالى فالمشيئة ليست موكولة للبشر فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله تعالى رب العالمين.

قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]. وقال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقال: ﴿قُلْ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِنَفْسٍ مِنْكُمْ الْبَأْسَ فَلَا يَكُونُ لَهُ حَافِظٌ ۚ وَمَنْ يَرْثُ مَا تَرَكَ الْبَاقُونَ ۚ وَاللَّهُ يَخْتَارُ مَا يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧].

الفهرس

الموضوع

الصفحة

الباب الأول

الحب في القرآن الكريم

| | |
|--|----|
| تمهيد: معنى الحب لغوياً | ١٣ |
| الفصل الأول: حب الله تعالى وحب رسوله (ﷺ) | ١٩ |
| الفصل الثاني: الإيثار (حب الآخرين) | ٢٥ |
| الفصل الثالث: حب المال | ٢٩ |
| الفصل الرابع: الإحسان | ٣٤ |
| الفصل الخامس: حب العلم والأدب | ٣٦ |
| الفصل السادس: فضل برّ الوالدين | ٤٧ |
| الفصل السابع: فضل الذكر وأهميته | ٥٢ |
| الفصل الثامن: فضل التوبة | ٦١ |
| الفصل التاسع: حب الجهاد في سبيل الله | ٦٧ |

الباب الثاني

| | |
|---|-----|
| الفصل الأول: فضل الصبر | ٨٣ |
| الفصل الثاني: فضل التسبيح | ٨٩ |
| الفصل الثالث: فضل المغفرة وطلبها | ٩٤ |
| الفصل الرابع: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر | ٩٩ |
| الفصل الخامس: فضل التقوى | ١٠٣ |
| الفصل السادس: حب العدل | ١٠٧ |
| الفصل السابع: الإنفاق في وجوه الخير | ١١١ |

| | |
|-----------|-------------------------------------|
| ١١٦ | الفصل الثامن: حب الزُّهد |
| ١٢٢ | الفصل التاسع: فضل شكر النِّعم |

الباب الثالث

الكراهية

| | |
|-----------|--|
| ١٢٩ | تمهيد: معنى الكراهية لغوياً |
| ١٣٣ | الفصل الأول: كراهية الغش والاحتكار |
| ١٣٨ | الفصل الثاني: كراهية النميمة |
| ١٤٤ | الفصل الثالث: كراهية الحسد |
| ١٥٠ | الفصل الرابع: كراهية البخل |
| ١٥٥ | الفصل الخامس: كراهية النفاق |
| ١٦٠ | الفصل السادس: كراهية الإسراف والتبذير |
| ١٦٤ | الفصل السابع: كراهية الخيانة والغدر |
| ١٦٨ | الفصل الثامن: كراهية التكبر والاختيال والعجب |
| ١٧٣ | الفصل التاسع: كراهية الكذب |

الباب الرابع

| | |
|-----------|--|
| ١٨٥ | الفصل الأول: كراهية الظلم |
| ١٩٣ | الفصل الثاني: كراهية الفساد |
| ١٩٨ | الفصل الثالث: كراهية العدوان |
| ٢٠٢ | الفصل الرابع: كراهية الكفر |
| ٢٠٩ | الفصل الخامس: كراهية الإساءة للجار |
| ٢١٣ | الفصل السادس: كراهية الرياء (الشرك الأصغر) |
| ٢١٧ | الفصل السابع: كراهية الرِّشوة |
| ٢٢٠ | الفصل الثامن: كراهية النوح والمناحة |
| ٢٢٤ | الفصل التاسع: كراهية الطيرة |
| ٢٢٧ | الفهرس |